

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد العربي بن مهدي - أم البواقي

رقم التسجيل:

كلية الآداب واللغات

رقم التسلسل:

قسم اللغة العربية وآدابها

بلاغة الخطاب الإقناعي في القرآن الكريم سورتي البقرة والأنعام - أنموذجا -

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة العربية وشعرية الخطاب

إشراف الأستاذ/ الدكتور:

الأخضر عيكوس

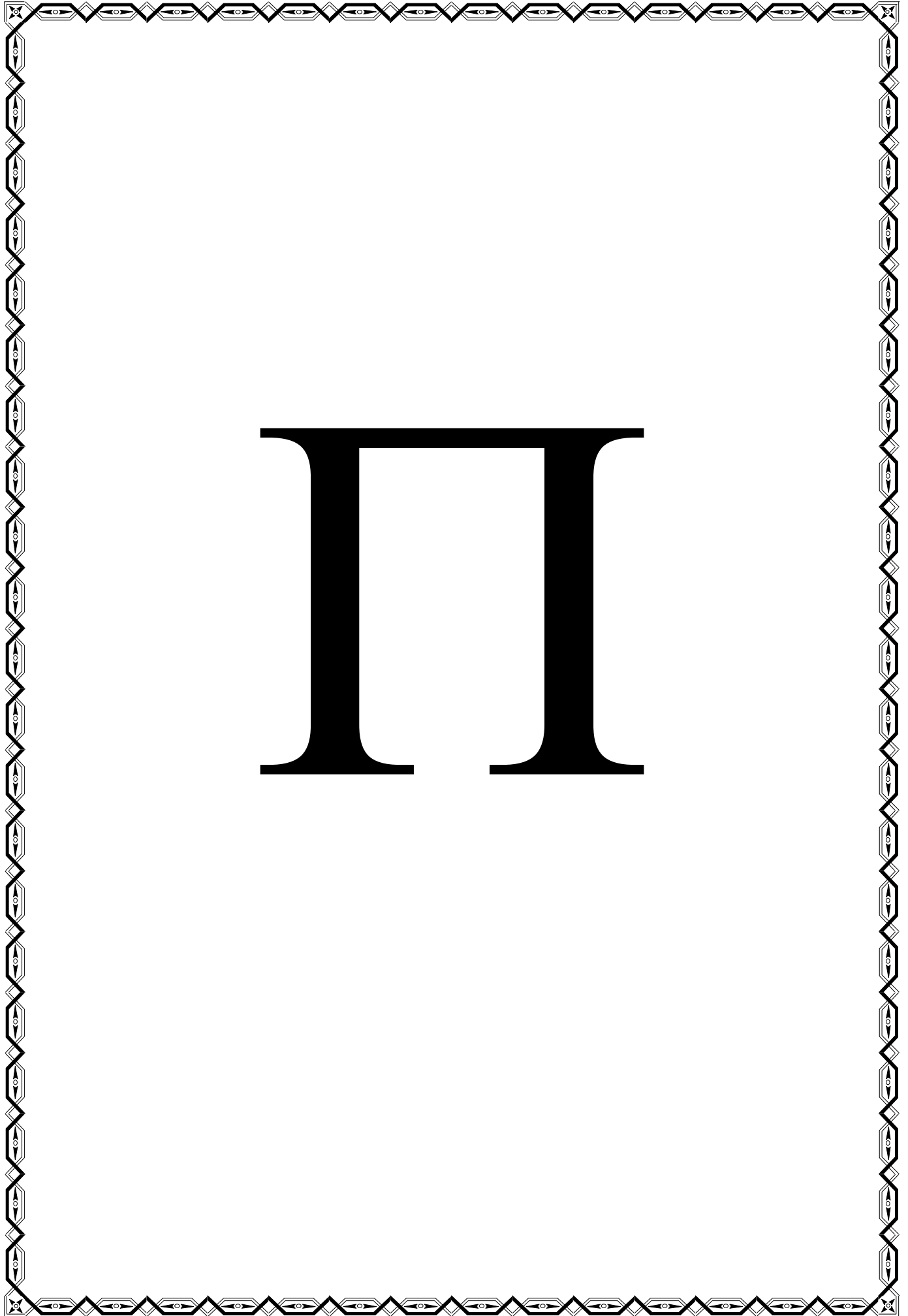
إعداد الطالب:

مهناوي عبد الباقي

لجنة المناقشة

رئيسا	جامعة محمد العربي بن مهدي أم البواقي	د. يوسف غيوة
مشرفا ومقررا	جامعة محمد العربي بن مهدي أم البواقي	أ.د/الأخضر عيكوس
عضوا مناقشا	جامعة تبسة	د. مختار قطش
عضوا مناقشا	جامعة منتوري - قسنطينة	د. إبراهيم قلاتي

السنة الجامعية 1430-1431هـ / 2009-2010م



إلى الوالدين العزيزين

إلى كل أفراد العائلة

إلى زوجتي.

إلى روح عمي الطاهر - رحمه الله - الذي غرس في روح العلم

واستفدت من مكتبته المتنوعة الكثير الكثير.

إلى كل الأصدقاء، وأخص بالذكر الصديق العميم "مراد".

الشكر

أَتَقَدِّمُ إِلَى الْأَسْتَاذِ الْفَاضِلِ الدُّكْتُورِ الْأَخْضَرِ عَيْكُوسَ
بِجَزِيلِ الشُّكْرِ عَلَى مَا قَدَّمَهُ إِلَيَّ مِنْ نَصَائِحٍ وَإِرْشَادَاتٍ
وَأَشْكُرُهُ كَثِيرًا عَلَى أَنَّهُ أَفَادَنِي كَثِيرًا فِي هَذَا الْبَحْثِ.
وَأَشْكُرُ كُلَّ الْأَسَاتِذَةِ الْأَفَاضِلِ الَّذِينَ تَتَلَمَذْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ.

حكمة

القرآن الكريم كان وما يزال مثار عقول الباحثين يحرك همهم ويوقد عزائمهم لما فيه من جمال التعبير ومتانة النظم وقوة الأسلوب ووسائل الدعوة والإقناع.

ولقد رأيت أن أعيش في روضة القرآن، أنتسم عبيره وأقطف من زهره فتوجهت إلى دراسة هذا الموضوع والذي تحت عنوان "بلاغة الخطاب الإقناعي في القرآن الكريم - سورتي البقرة والأنعام أنموذجا".

ويندرج هذا الموضوع في سياق التوجهات التي تسعى إلى الحديث عن ظاهرة الإعجاز والإقناع في القرآن الكريم.

فموضوع الإقناع وإن كان هو فعل الصورة الحجاجية، فإن الخطاب القرآني حقق هذا الفعل بواسطة قوى أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات وما تحققه بدورها من آثار ونتائج مهما كانت صفتها، فإن إبقائها يبقى إقناع الآخر، وليس من باب إحداث الغلبة للطرف على حساب الآخر، ولكن من أجل الحوار والتواصل، فالقرآن خاطب العقل وأقام الحجة، والحجة وسيلة عظيمة من وسائل الإقناع، وأكد الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع دور الحجة في الإقناع وبطرق مختلفة.

وتعود أهمية الحجاج في الدراسات الحديثة إلى العودة القوية للبلاغة الجيدة، حيث ركزت على جانبيين هما البيان والحجاج كوسيلة أساسية من وسائل الإقناع.

وقد وقع اختياري لهذا الموضوع نتيجة مجموعة من العوامل:

أولاً: تأثري بأسلوب القرآن الكريم وجماله ومضامينه.

ثانياً: شغفي بالدراسات القرآنية وتلقي بالقرآن الكريم.

ثالثاً: أن اختصاصي البلاغة العربية وشعرية الخطاب.

كل هذه العوامل وجهتني إلى البحث في الأسلوب البلاغي القرآني، وبعد ذلك فإني أرى أن موضوعي يمكن أن يقدم إضافة ولو يسيرة إلى البحوث التي كتبت قبل هذا البحث. والإشكال الذي أعالجه من خلال هذا الموضوع هو:

ما هو دور النظم القرآنية في الإقناع؟ وما دور الوسائل البيانية والعقلية في الإقناع

في القرآن الكريم؟ وما هي العلاقة بين البلاغة والخطاب الإقناعي؟ وما مدى دور البلاغة في الخطاب الإقناعي القرآني؟ وما هي العلاقة بين كل من البلاغة والخطاب والإقناع في القرآن الكريم؟

وما هو أثر الخطاب الإقناعي على الفكر؟ وما هي الوسائل التي يتحقق الإقناع من خلالها في القرآن الكريم؟ وما علاقة بلاغة الحوار بالإقناع؟

والمنهج المتبع في هذا البحث هو المنهج البياني لكونه الكفيل بإبراز الإقناع ووسائله وأسسه في القرآن الكريم.

والأسلوب القرآني تارة يتوجه إلى إقناع العقل وتارة إلى إقناع القلب وتارة إلى العقل والقلب معا.

فالإقناع المتوجه إلى القلب يحققه الجانب البياني أما الإقناع المتوجه إلى العقل فيحققه الجانب الحجائي، أما الإقناع المتوجه إلى كل من العقل والقلب فيتحقق عن طريق الجانبين. لا سيما وبلاغة الخطاب الإقناعي تقوم على جانبين، جانب بياني وجانب حجائي.

وبناء على المنهج الذي ارتضيت جاءت خطة البحث على الشكل الآتي:

المدخل: تحدثت فيه عن إعجاز القرآن فعرفت الإعجاز وتطرقت إلى ذكر مزايا أسلوب القرآن وانبهار العرب بذلك، كما ذكرت بداية ظهور المؤلفات في الإعجاز القرآني مع ذكر أشهر الكتب في إعجاز القرآن، أضف إلى ذلك أنني تطرقت إلى ذكر وجوه الإعجاز وجمعت بين آراء القدماء والمحدثين، ثم أردفت الحديث عن الإعجاز بالحديث عن المفردة القرآنية، وضربت أمثلة متعلقة ببلاغة الكلمة القرآنية، وبعد ذلك تطرقت إلى الجملة القرآنية، وبعد الحديث عن إعجاز القرآن بصفة عامة تطرقت إلى الخطاب فعرضته ثم تحدثت عن الخطاب القرآني وأنواعه ووجوه المخاطبات في القرآن الكريم. كما ذكرت أنواع الإقناع في الدراسات الحديثة، وبعده تحدثت باختصار عن الإقناع القرآني ثم الإقناع بالحديث الشريف.

وبعد ذلك تحدثت عن البلاغة فعرفت بها ثم تطرقت إلى بلاغة القرآن المعجزة.

الفصل الأول: وعنوانه وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع، وقسمته إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: التشبيه ودوره في الإقناع.

عرفت التشبيه ثم ذكرت أركانه وأقسامه.

وبعد ذلك تطرقت إلى الدراسة التطبيقية فبينت مدى دور التشبيه في الإقناع.

المبحث الثاني: الاستعارة ودورها في الإقناع.

في هذا المبحث عرفت الاستعارة ثم ذكرت أقسامها وبعد ذلك توجهت إلى الدراسة التحليلية فأبرزت أثر الاستعارة على الإقناع.

المبحث الثالث: المجاز ودوره في الإقناع:

عرفت المجاز وبيّنت أقسامه وبعد ذلك وضحت دور المجاز في الإقناع.

المبحث الرابع: الكناية ودورها في الإقناع، تطرقت إلى تعريفها ثم أقسامها وبعد ذلك أبرزت دورها في الإقناع.

الفصل الثاني: وعنوانه: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم، فقسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: الجدل ودوره في الإقناع.

عرفت في هذا المبحث الجدل وذكرت أنواع استدلال الجدل القرآني، ثم أشكاله وبعد ذلك تطرقت إلى الدراسة التطبيقية، فبينت دور بلاغة الجدل في الإقناع.

المبحث الثاني: الحوار ودوره في الإقناع

في هذا المبحث عرفت الحوار ثم تطرقت إلى منهجية الحوار ثم ذكرت أنواع الحوار في القرآن، وبعد ذلك توجهت إلى الدراسة التطبيقية فأوضحت دور بلاغة الحوار في الإقناع القرآني.

المبحث الثالث: الحجاج ودوره في الإقناع

عرفت في هذا المبحث الحجاج ثم ذكرت خصائص النص الحجاجي، ثم سمات النص الحجاجي، وبعد ذلك تطرقت إلى الحجاج في القرآن الكريم، ثم تطرقت إلى الدراسة التطبيقية فأبرزت دور الحجاج في القرآن الكريم.

خاتمة: وتعرضت فيها لأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

المدخل

إعجاز النظم القرآني

المبحث الأول: إعجاز القرآن

المبحث الثاني: الخطاب

المبحث الثالث: الإقناع

المبحث الرابع: البلاغة

المبحث الأول: إعجاز القرآن

قبل التطرق إلى الحديث عن إعجاز القرآن ينبغي أن أقف أولاً عند تعريف إعجاز القرآن.

إن «إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به»⁽¹⁾.

قال الله تعالى: [وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ]⁽²⁾، قال صاحب البرهان «فلو لا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا تكون حجة إلا وهي معجزة»⁽³⁾.

وقال الله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ]⁽⁴⁾.

فأخبر سبحانه وتعالى أن الكتاب آية من آياته، وأنه كاف في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء.

والإعجاز شينان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، واستمرار هذا الضعف.

ولقد كان العرب أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وأهل صناعة اللسان، إلا أن الله عز وجل تحداهم، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان «وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت في الإجابة والتبريز في هذا

(1)- الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج2، ص238.

(2)-سورة التوبة، الآية: 6.

(3)-بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2004، ج2، ص59.

(4)-سورة العنكبوت، الآيتان: 50-51.

الميدان»⁽¹⁾.

فإذا عجز أهل الصناعة فإن غيرهم أشد عجزا وأفحش عيا، ولقد تحداهم بأن يأتوا
يمثله فعجزوا قال الله تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ] ⁽²⁾.

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، قال الله تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] ⁽³⁾، ثم تحداهم
بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا قال الله تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] ⁽⁴⁾.

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا
ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم وظهر أمر الله وهم كارهون. والقدر المعجز
من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه.

والقرآن الكريم سحر العرب وسلب عقولهم ببيانه ونظمه، وروعة معانيه الخالدة،
وكان الإعجاز هو روحه الحقيقية التي تسري في قارئه، فينبعث فيه الإقرار بأنه كتاب
إلهي وأن قوى الإنس والجن تعجز عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

فالقرآن الكريم جديد في معانيه وألفاظه في أعين العرب جميعا وعقولهم. أضف إلى
ذلك أن آيات التحدي ظلت مسجلة في كتاب الله، تفرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء
على اختلاف نحلهم ومذاهبهم في كل زمان ومكان، فما استطاع واحد فيهم مهما كان
عصره وتاريخه أن يسجل إلى جانب هذا التحدي عملا ما يصح أن يقال أنه قد عارض

(1)- الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، دار الفكر، دم، دت، ج2، ص240.

(2)-سورة الطور، الآيتان: 33-34.

(3)-سورة هود، الآيتان: 13-14.

(4)-سورة البقرة، الآيتان: 23-24.

به القرآن⁽¹⁾.

إن المؤلفات في إعجاز القرآن الكريم بدأت تطهر بعد أن أطلق النظام^(*) مقولته الخبيثة ألا وهي القول بالصرفة. قال النظام: «إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله»⁽²⁾.

ولقد تصدى له العلماء وردوا قوله هذا ردا عنيفا، وظهرت المؤلفات في إعجاز القرآن الكريم والبلاغة العربية.

فألف كثيرون في إعجاز القرآن الكريم، وأول كتاب وسم بلفظه إعجاز، ينسب لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 302هـ، واسم كتابه "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه".

«وأشهر الكتب في إعجاز القرآن المتداولة بين أيدي الدارسين التي تخصص لفكرة الإعجاز كتابا خاصا تكاد تعد على الأصابع مثل كتاب "النكت في إعجاز القرآن"، الرماني المتوفى سنة 386هـ، و"بيان إعجاز القرآن"، الخطابي المتوفى سنة 388هـ. و"إعجاز القرآن" للباقلاني المتوفى سنة 404هـ. و"الرسالة الشافية"، و"دلائل الإعجاز"، لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ⁽³⁾.

أما الذين تعرضوا في كتبهم بالحديث عن الإعجاز فكثيرون، يشمل أهل البلاغة

(1) -ينظر: عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ط1، دار الكتاب العالمي، الجزائر، 2006، ص24.

(*) -النظام: هو إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري أبو إسحاق النظام، من أئمة المعجزين، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين وانفرد بأراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت بالنظامية نسبة إليه، عاش في زمان شبابه قوما من الثنوية وقوما من السمنية وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986، مج1، ص43.

(2) -أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990، ص28.

(3) -ينظر: عمر السلمي، الإعجاز الفني في القرآن، ط1، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980، ص

والتفسير وعلم الكلام، ودارس إعجاز القرآن الكريم، يجد نفسه أمام مجموعة كبيرة من الآراء المختلفة، كل رأي في الغالب يتبع عقلية صاحبه، ويعبر عن تفكيره وعقيدته ودرجة معرفته. وما زال ولا يزال العلماء يتحدثون عن الإعجاز ويصنفون فيه المؤلفات، ولقد تعددت أوجه الإعجاز عند العلماء ومن هذه الوجوه⁽¹⁾.

- 1-النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.
- 2-الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.
- 3-الجزالة التي لا يمكن لمخوف أن يأتي مثلها.
- 4-التشريع الدقيق الكامل الذي ييز كل تشريع وضعي.
- 5-الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي.
- 6-الوفاء بكل ما يخبر عنه القرآن من وعد ووعد.
- 7-عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- 8-العلوم والمعارف التي اشتملت عليها العلوم الشرعية والعلوم الكونية.
- 9-وفاءه بحاجات البشر.

فالقرآن الكريم معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز بلا تقييد، ولقد اشتمل على جميع وجوه الإعجاز فهو «معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة»⁽²⁾، فأسلوبه خارج عن نطاق المخلوقين، ولا يستطيع مخلوق أن يأتي بأسلوب مماثل لأسلوب القرآن، ولقد أعجز الفحول وأبهر القروم، ولقد دارت أقاويل العلماء حول النظم القرآني وكلهم عدة وجها من وجوه الإعجاز.

(1)-تقية عبد الفتاح، الميسر في علوم القرآن، ط1، قصر الكتاب، دم، ص173. ولقد تبينيت الوجوه التي ذكرها الأستاذ تقية عبد الفتاح إذ رأيت أنها شاملة وجامعة.

(2)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص110.

قال الباقلاني^(*) متحدثاً عن أسلوب القرآن ومبينا عجز الخلق عن الآتيان بمثله: «أته بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»⁽¹⁾، فنظمه بديع وتأليفه عجيب، حيث هو في أعلى مراتب البلاغة، ولا يرقى إلى الإتيان بمثله إنس ولا جن، فالباقلاني تحدث عن النظم وعده وجها من وجوه الإعجاز وصرفه إلى تسعة وجوه⁽²⁾.

وممن جعلوا النظم وجها من وجوه الإعجاز الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها»⁽³⁾، فهو يقر أن الإعجاز إنما وقع في النظم، ومواقع الألفاظ واتساقها مع بعضها البعض، كما ينبغي أن يكون الإعجاز واقع في اللفظ وذلك عند قوله: «قد سمعنا ما قلتم، فخبرونا عنهم عما ذا عجزوا؟ أعن معان في دقة معانيه وحسنها، وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللفظ؟ أم ما بهرهم منه؟»⁽⁴⁾.

فالجرجاني ممن رأوا الإعجاز واقعا في النظم.

ثم إن الجهات التي اختص بها أسلوب القرآن كانت أسبابا لانقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه. وتلك الأسباب خارجة عن قوى العقول وجماح الطبائع ولا يمكن أن يكون

(*)-الباقلاني: هو الشيخ الإمام الصادق أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عيسى البغدادي البقلاني، مات سنة 448هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء وبمهامشه أحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال كلاهما للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، اعتنى به محمد بن مميادي بن عبد الحليم، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003، ج10، ص653.

(1)-جمال الدين السيوطي الشافعي، الإتيان في علوم القرآن، ويليه كتاب إعجاز القرآن، الإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003، ج2، ص611.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص611.

(3)-الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2000، ص94.

(4)-المصدر نفسه، ص90.

شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة⁽¹⁾.

وهذه الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به فليس لنا بد في صفته من الكلام ثلاثتها جميعا... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية، والآيات الكثيرة وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجاز أبديا⁽²⁾.

وأرى أن مذهب الرافعي في هذه المسألة يخالف ما ذهب إليه الجرجاني في نفي الإعجاز عن اللفظ، فالرافعي يقر بإعجاز الحرف وإعجاز الحرف معناه إعجاز اللفظ، وأرى هذا صوابا، ولا نسلم بنفي إعجاز اللفظ ولكن لا ينحصر الإعجاز في اللفظ.

-فنظم القرآن هو أهم ما يميز أسلوبه وجهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل. ويتميز أسلوب القرآن الكريم بخصائص^(*):

أولها: أنه يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب.

الثانية: إن التفسير القرآني: «يظل جاريا على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعه التعبير، رغم تنقله بها موضوعات مختلفة»⁽³⁾. فروح التركيب في القرآن لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، فيها انفرد نظمه وخرج عما يعهده الناس.

وهذه الروح ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، فكأنما وضع جملة واحدة، فهو متعدد الوجوه «التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصاص، والمواعظ، والحكم، والتعليم، وضرب الأمثال ونحوها،

(1)-ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص149.

(2)-المصدر نفسه، ص149-150.

(*)-لقد تبينت الخصائص التي ذكرها محمود السيد شيخون في كتابه "الإعجاز في نظم القرآن"، ص66-87.

(3)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، دط، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، ص68.

مما يقدر عليه»⁽¹⁾.

فالتركيب الذي جاء به أسلوب القرآن لم يعرف عند العرب من قبل، وبهذا انفرد نظم القرآن وخرج عن المعتاد والمألوف.

الثالثة: صياغة معانيه بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

فالناس يتفاوتون في المدارك والثقافة، وأن الآية القرآنية تعطي معناها بقدر ما يفهم كل صنف، ويستفيد منها المعنى الذي انتهى عنده علمه قال الله تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا]⁽²⁾.

إن الآية تحمل بصياغتها درجات ثلاث للمعنى «فتعطي كلا حسب طاقته وفهمه»⁽³⁾، فالمعنى الذي يفهمه العامي من العرب هو أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وهو معنى تدل عليه الآية.

«والم تأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجا والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه»⁽⁴⁾.

وهو معنى صحيح تدل عليه الآية. ويفهم الباحث المتخصص في علم الفلك من الآية: «إثبات أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء، بما يعكس عليه من ضياء الشمس»⁽⁵⁾، التي شبهت بالسراج وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية الكريمة.

فانظر هداك الله وأيدك بالبصيرة إلى سر النظم القرآني العظيم، وكيف يقنع جميع الأصناف من الناس على اختلاف عقولهم ومداركهم وأفهامهم، ولنأخذ مثال آخر.

(1)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص68.

(2)-سورة الفرقان، الآية: 61.

(3)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص81.

(4)-المصدر نفسه، ص81.

(5)-المصدر نفسه، ص81.

قال الله تعالى: [وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا] (1).

فالعامي يفهم من قوله تعالى: "دحاها"، «معنى الانبساط والامتداد» (2)، ويفهم عالم الفلك «معنى الاستدارة والتكوير» (3). فكلا الفهمين صحيح والآية «تحمل في آن واحد كلا من معنى الاستدارة والانبساط» (4).

والرابعة: ظاهرة التكرار:

فالسلوب القرآني يتميز بظاهرة التكرار، والتكرار نوعان:

1- تكرار بعض الألفاظ أو الجمل والغرض من ذلك، التوكيد ثم ينطوي على نكت بلاغية كالتهويل والتعظيم...

مثل قوله تعالى: [الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ] (5).

2- تكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار، ويأتي لتحقيق غرضين:

أ- إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها.

ب- إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه.

والخامسة «هي تداخل أبحاثه، ومواضيعه في معظم الأحيان» (6).

والحقيقة أن هذه الخاصية في القرآن الكريم، إنما هي مظهر من مظاهر تفرده، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف.

(1)-سورة النازعات، الآيتان: 30-31.

(2)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 81.

(3)-المرجع نفسه، ص 81.

(4)-المرجع نفسه، ص 81.

(5)-سورة الحاقة، الآيات: 1-3.

(6)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 75.

1-المفردة القرآنية

إن المقصود بالمفردة «هو الكلمة الواحدة كما هو معلوم»⁽¹⁾، فالمفردة هي الكلمة و«الكلمة هي اللبنة المستخدمة في البناء اللغوي، ذلك البناء الفكري الذي يعد مظهرًا من مظاهر وعي الإنسان»⁽²⁾، أي أن الكلمة هي الأداة التعبيرية في توصيل المعنى والوسيلة الجمالية في صياغة النتاج الأدبي، فبالكلمة تتكون الجملة وبالجملة يتكون الأسلوب وبالأسلوب يشع المعنى المراد ويحصل الإقناع.

إنّ اللفظ عنصر أساسي في الأسلوب إذ عليه يقوم وبه يستقيم وعن طريقه يحصل الغرض المقصود، ولاختيار الألفاظ ومراعاة فصاحتها الدور الهام في إيصال المعنى وحصول الإقناع، ويكمن ذلك كله في اختيار مواقع الألفاظ واتساقها ببعضها البعض.

ولقد جاء الأسلوب القرآني بدقة رائعة في التعبير والإحكام فيه حتى لا يصح أن يقع لفظ مكان آخر فتضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه.

إن الألفاظ في أسلوب القرآن لها جمال مميز ووقع تعمي وتناسق كامل مع المعنى وائتلاف مع دلالات المعاني المصاحبة، فهي «متماسكة مع أخواتها، متلاصقة مع رصفائها، متحدة في السياق، و متمشية مع المعنى والغرض»⁽³⁾.

فمفرداته متألّفة من ناحية النسق والجرس الصوتي ولا يقتصر التآلف على هذين فقط، بل يشمل التآلف في المعاني والتماسك في البناء والتأثير بالمعاني المتداعية.

إن تماسك ألفاظ القرآن وتأخيها وتآلف معانيها واضح في كل آيات القرآن الكريم «فمعنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر، فلا تتافر في الألفاظ ولا تتافر في المعاني،

(1)-فاضل صالح السمرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دط، دار عمان، عمان، 1998، ص1.

(2)-أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، إشراف وتقديم: نور الدين عتر، ط1، دار المكتبي، دمشق، سوريا، 1994، ص35.

(3)-محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، دط، دم، 1990، ص8.

ومن ثم ينساب الأداء القرآني في النفس كالماء المترقق العذب»⁽¹⁾.

وهذا يرجع إلى دقة التعبير القرآني ومثانة نظمه وعجيب تصرفه، وعليه فإن اللفظ القرآني يشع جمالا وأداء ودلالة.

قال الباقلاني: «وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصصه، وبرونقه وجماله واعتراضه في جنسه ومائه»⁽²⁾.

إن المفردة القرآنية تشعّ قدرا من التأثير الوجداني الواضح في النفوس، وهذا يرجع إلى ائتلاف اللفظة القرآنية مع أصوات الحروف واتساقها معها في الأداء الموسيقي⁽³⁾.

فالمفردة القرآنية تتخذ سماتا بلاغيا معجزا وتتناسق مع الأداء التعبيري الكلي، وتحمل المعنى والدلالة حملا جماليا مؤثرا. ولها بلاغتها الخاصة في إطار الأسلوب.

وهذه الخاصية يتميز بها القرآن وحده، ذلك الكلام الرباني الذي أبهر القروم وأعجز الفحول وأفحم دهاقين الكلام وأساطين البيان. ثم «إن الألفاظ في ضمن الأسلوب البياني الرائع ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته، ويساعد بعضه بعضا في المعاني العامة للأسلوب والعبارات الجامعة، وإن العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضا»⁽⁴⁾.

كل لفظ في القرآن يمهد الطريق إلى معنى اللفظ الثاني، وكل لفظ له معنى قائم بذاته، أضف إلى ذلك الاتساق والائتلاف الكاملين.

«فنحن في قراءة القرآن نواجه بذلك اللحن السماوي المتنوع المتجدد في آن واحد فيبدو الجمال اللغوي ماثلا له وجوه وأثره البين في النفوس»⁽⁵⁾. وعليه فإن الكلمة في

(1)-محمد قطب عبد العال، جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص10.

(2)-الباقلاني، إعجاز القرآن، ترجمة: عماد الدين أحمد حيدر، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1991، ص68.

(3)-ينظر: محمد قطب عبد العال، جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص19.

(4)-محمد أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص104.

(5)-محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن، ص8.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

الجملة بمنزلة الفريدة من حب العقد. وإن سقطت هذه الكلمة من الكلام عزّ على الفصحاء سقوطها⁽¹⁾، فانساق الكلمات في المعنى وجمال وقعها في السمع يجعلنا نلمح صورة المضمون أمام العين، فسبحان قائل القرآن.

قال الراغب: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزيدته، واوسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطيب الثمرة وكالمثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»⁽²⁾. ولا بأس أن نضرب أمثلة تطبيقية متعلقة بالمفردة القرآنية وبلاغتها.

قال الله تعالى: [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ]⁽³⁾.

الكلمة الأولى -آمنة- فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم أو عدو يساورهم، ولعلّ ذلك إشارة إلى مكة أو أن هذه القرية هي كما قال الله تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ]⁽⁴⁾.

ففي هذه الكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم واختصوا بها دون الناس أجمعين.

-الكلمة الثانية-مطمئنة- فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس فهي قد منها الله تعالى القرار والسكون والدعة من غير ضعف.

-الكلمة الثالثة-يأيتها رزقها- فإنه يشير إلى سهولة الحياة.

-الكلمة الرابعة: رغدا- فالرغد⁽⁵⁾ هو الرزق الطيب المذاق المريء غير الوبيء وهو

(1)-ينظر: عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير القرآني، ط1، دار المريخ، الرياض، 1983، ص15.

(2)-الراغب الأصفهاني، المفردات، ضبط: محمد خليل عيناوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1998، ص35.

(3)-سورة النحل، الآية: 112.

(4)-سورة العنكبوت، الآية 67.

(5)-رغد: عيش رغيد؛ أي رغد رفيعه، والرغد سعة العيش، وقوم رغد ونساء رغد. الخليل بن أحمد الفرائدي، كتاب العين،

ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص358.

وهو الواسع الكثير، فهم في رزق يأتيهم سهلا طيبا واسما لا وباء فيه.

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأبي صورة بيانية أروع من هذه الصورة، وتجد الكلمات الأربع متأخية في معانيها متلاقية في ألقانها منسجمة في نغماتها.

وكل كلمة منها تعطي صورة بيانية، فأمنة فيها صورة البلد الذي لا يساوره عدو في وسط موطن فيه يتخطف الناس. ومطمئنة يشير إلى الاطمئنان النفسي الساكن القار كالماء الساكن الذي تبعث به الرياح.

ويأتيها رزقها من كل مكان تشير إلى المكانة التجارية التي يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان، وأن لهم رحلة الشتاء.

-أما الصورة التي حلت محل الأولى في الآية الكريمة فينبغي النظر إلى الكلمات السامية كلمة، كلمة، ثم النظر إلى الصورة التي تتكون من هذه الكلمات التي كانت كل منها صورة قائمة بذاتها.

-الكلمة الأولى-أذاقها الله- في التعبير بأذاق إشارة إلى أن الإسلام مس نفوسهم وبعد أن كانوا في ترف ها هم يذوقون الضر.

-الكلمة الثانية-لباس الجوع والخوف- فيه صورة بيانية رائعة فهي تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يخرجون منه إلا إليه ولا يدورون إلا في دائرته وأن ذلك الريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاكا فالتصوير باللباس أحاط بهم وغشيم⁽¹⁾.

ولننتقل إلى مثال آخر قال الله تعالى: [وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا. قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا]⁽²⁾.

فالكلمات متأخية في نعمها ومعانيها وتصويرها في جملتها للنفس الإنسانية.

-الكلمة الأولى-أنعمنا- فقد أضافها الله تعالى إليه وإنعام الله تعالى فيض وإسباغ

(1)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص105-107.

(2)-سورة الإسراء، الآيتان: 83-84.

يغمر صاحبه. والإنعام يقتضي الشكر والإقبال على الله بالطاعة.

-الكلمة الثانية - أعراض- وهي كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الإقبال عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأصل أعراض في المعنى الحسي أن يولي عرض وجهه بالأى يقبل على الله تعالى ويطلب المزيد من النعم.

-الكلمة الثالثة -نأي بجانيه- الناي هو البعد، وكلمة بجانيه مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير في ضلاله البعيد.

«ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفرا بها وكيف يتدرج الكفر بها، حتى يكون البعد التام عن الله، فتكون الطاعة في جانب ونفس المنعم في جانب آخر، وهو جانب العصيان والضلال البعيد ثم الطغيان من وراء ذلك.

وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها، فإنعام الله تعالى يعطي صورة بيانية للمنعم، وفيض نعمه تعالى، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ثم النأي من بعد ذلك.

يمكن الانتقال من الصورة التي تصورها الكلمات منفردة إذ تكمن في إعطاء صورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد، والكفر برب الناس ملك الناس، والتوجه إلى صورة تلك النفس وقد أصابها الشر ولم تنل النعمة»⁽¹⁾.

هناك كلمتان هما: مسه الشر - وكان يؤوسا

الكلمة الأولى -مسه الشر-: إن المس وهو الإصابة بالشر، وإن التعبير بمس يفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة، والشر كل ما لا يرغب فيه.

والتعبير بالشر هنا، يشمل الضار كقوله تعالى: [وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ]⁽²⁾.

ويشمل نتائج الطغيان والعصيان فيكبه الله تعالى على وجهه ويشمل العقاب الذي

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 109.

(2)-سورة يونس، الآية: 12.

المطلق:.....إيجاز النظم القرآني

ينزل جزاءً لما أرتكب. «فإن النفس التي تطغى بالنعمة تذلل وتهون، وتضعف بسلبها ويصيبها اليأس المطلق إذا نزلت بها النعمة»⁽¹⁾.

الكلمة الثانية - كان يئوسا-: فكلمة «كان دالة على اللزوم والاستمرار ككان في قوله تعالى: [وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] ⁽²⁾، وكلمة يئوسا بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس وعدم افتراقه عنها، فيكون في حال بؤس مستمر ويأس دائم، يكفر إذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه.

فهذه الجمل تصور حال إنسان غير قار ولا ثابت تبطره النعمة، ويؤنسه الاختبار، وكل ذلك في ألفاظ منسجمة في نغماتها، متضافرة في معانيها، تدل على النفس المنحرفة وتصورها ⁽³⁾.

ويختم الله تعالى الآية بقوله: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُتُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا] ⁽⁴⁾.

فالنص القرآني يفيد ما يدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء في ذلك.

«وفي هذا الكلام معان دقيقة تتبعث من صور الكلمات ومرامي العبارات وحسن المقابلات، أن الناس قسمان: قسم شاكلته تلقى النعمة بالإعراض ووراء الإعراض الظلم والطغيان والفساد في الأرض، وقسم صابر ضابط لنفسه لا تبطره النعمة»⁽⁵⁾.

ولنتقل إلى أمثلة أخرى كقوله تعالى: [أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ] ⁽⁶⁾.

هذه الألفاظ كلها في الطبقة العليا من البلاغة، وقال تعالى: [يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 109.

(2)- سورة النساء، الآية: 96.

(3)- ينظر: أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 110.

(4)- الإسراء، الآية: 84.

(5)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 111.

(6)- سورة الصافات، الآية: 177.

تُخْفِي الصُّدُورُ⁽¹⁾.

«فإن لفظة [خائنة] بمفردها سهلة مستعملة، كثيرة الجريان على الألسن، فلما أضيفت إلى العين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع، بحيث لا يستطيع الإتيان بمثلا ولا يكاد يقع ذو فكر سليم، وذهن مستقيم على شبهها»⁽²⁾.

فالكلمات التي تألفت منها الجمل القرآنية تمتاز بجمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل في المعنى، حتى لكأنك تشم منها رائحة المعنى المطلوب.

وتلمح فيها صورة المضمون أمام العين، ولننظر إلى قوله تعالى: [فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ]⁽³⁾، فنرى لفظة [يترقب] ترسم هيئة الرجل الحذر المتلفت في المدينة التي يشع فيها الأمن والأمان⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: [وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ]⁽⁵⁾، فمعنى الكلمتين قوي جدا، بحيث لا توجد كلمة تصور إقبال الظلام وتمددته في الآفاق، المترامية أدل من كلمة [عسعس].

ولا توجد كلمة تصور إنفلات الصبح من مخبأ الليل وسجنه أروع من كلمة [تنفس]⁽⁶⁾. وقال تعالى: [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]⁽⁷⁾.

فالله سبحانه وتعالى قال [بنورهم] ولم يقل بضوئهم حتى يكون الكلام متجانسا

(1) -سورة غافر، الآية: 18-19.

(2) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(3) -سورة القصص، الآية: 18.

(4) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(5) -سورة التكوير، الآيتان: 17-18.

(6) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(7) -سورة البقرة، الآيتان: 17-18.

المحط:إعجاز النظم القرآني»

ومتشاكلا مع قوله [أضاءت] والسبب في ذلك أن لفظ [بنورهم] في الآية أبلغ من لفظ [بضوئهم] في نفي النور عنهم، من حيث إن [الضوء] فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال [ذهب الله بضوئهم]، لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيارة وبقاء ما يسمى نورا لأن الإضاءة هي فرط الإنارة، لقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا]⁽¹⁾، فقد جعل الله تعالى للشمس التي هي أكبر [الضياء] وجعل للقمر [نورا] فكل ضوء نور وليس كل نور ضوء⁽²⁾.

2- الجملة القرآنية

إن الجملة هي «مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي»⁽³⁾، ودراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية، لأنها أساس الجملة ومنها تركيبها، فعلماء البلاغة مقرون أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته، ولإعجاز فيها وجوه كثيرة منها:

التلاؤم والاتساق الكاملان بين الكلمات وبين تلاحق الحركات والسكنات.

فالجملة في القرآن «دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والنطق»⁽⁴⁾، مثال ذلك قوله تعالى: [فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ]⁽⁵⁾.

نجد في الآية الكريمة تناسق الكلمات في كل جملة منها، وتألف الحروف الرخوة مع الشديدة، مع المهموسة والمجهورة.

ثم تألف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها، فالجمل القرآنية حسبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وذلك قدر تقديرا بعلم اللطيف الخبير.

(1)-سورة يونس، الآية: 5.

(2)-ينظر: عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، -بلاغة الكلمة، ص185.

(3)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص86.

(4)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص86.

(5)-سورة القمر، الآيات: 11-13.

المحفل:إعجاز النظم القرآني

ومنها: أن الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل مثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: [خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] (1).

فإنه سبحانه وتعالى جمع بهذا الكلام كل خلق عظيم «لأن في أخذ العفو» صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي «الأمر بالمعروف»، تقوى الله، وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن الحرمات، وفي «الإعراض عن الجاهلين»، الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مهارات السفیه ومنازعة اللجوج (2). أضف إلى ذلك إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس.

فالقارئ يستقبل القرآن بعقله وقلبه وخياله، ولو نظرنا إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحه عن السبيل لوجدنا أنه عبر تعبيراً بلغ أسمى درجات الروعة قال الله تعالى: [إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ] (3).

فهذا التعبير الرائع يجعلنا نتخيل إنسانا التف حول عنقه غل عريض مرتفع إلى الذقن جعل رأسه صاعدا إلى الأعلى لا يتحرك ثم هو يقف في مكان قد سدّ عليه بجران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه وقد غشى الظلام على بصره، فهو لا يملك حراكا نحو أي اتجاه، تلك هي صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل وظل مع ذلك عاكفا على غيه وضلاله.

فالجملة القرآنية ذات تعبير رائع دقيق يستحيل على القدرة البشرية الإتيان بمثل ذلك، كما أن للجملة القرآنية إقناعا تاما للعقل والقلب والوجدان والخيال.

(1) -سورة الأعراف، الآية: 199.

(2) -ينظر: محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 86.

(3) -سورة يس، الآيتان: 8-9.

المبحث الثاني: الخطاب

أ- تعريفه

- لغة: **الخطب**: الشأن أو الأمر صغر أو عظم، **والخطب**: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال. **والخطاب والمخاطبة**: مراجعة الكلام، وقد خاطب بالكلام مخاطبة وخطاب وهما يتخاطبان⁽¹⁾.

(1)- جمال الدين أبي الفضل محمد بن عامر بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد خيضر، راجعه: عبد المنعم خليل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، مادة: خطب، مج1، ص360-361.

المدخل:.....إيجاز النظم القرآني

-اصطلاحاً: الخطاب هو عملية اتصال تتم في إطارين: الإطار اللغوي، فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين، كما يحدث في الحوار أو غيره. وإطار غير اللغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق. والخطاب باعتباره حدثاً كلامياً يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف، ويؤثر هذا الهدف تأثيراً جلياً في استراتيجية المرسل فيملي عليه اختيارات معينة، من بين البدائل التي يتيحها له النظام اللغوي، وقد يؤثر في صورة الحديث وطريقة بنائه وهو يفسر الكثير من المتغيرات الأسلوبية التي ترافق عملية التعبير اللغوي، ويربط بعض علماء اللغة هدف الخطاب بالأثر التي تحدثه وسيلة الاتصال بين المرسل والمتلقي⁽¹⁾.

ب-الخطاب القرآني:

إن القرآن هو كلام الله عز وجل وهو المعجزة العظمى والحجة البالغة، الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا محمد p.

وهو كتاب العربية الأكبر وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها، وبه توحد العرب، وبه صار المسلمون أمة واحدة لا يفرق بينها جنس ولا لون ولا لغة.

ومنه استمد العرب والمسلمون علومهم ومعارفهم «والقرآن هو هداية الخالق لإصلاح الخلق وشريعة السماء لأهل الأرض، وهو التشريع العام .. الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم»⁽²⁾.

أحكمه الله فأتقن إحكامه، وفصله فأحسن تفصيله قال الله تعالى: [كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] ⁽³⁾.

ولا يتطرق إلى ساحته نقض ولا إبطال [وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

(1)-ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2005، ص23.

(2)-محمد بن محمد أبو شبيهة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط1، مكتبة السنة، القاهرة، 1996، ص10.

(3)-سورة هود، الآية: 1.

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ⁽¹⁾.

إن الخطاب القرآني يعد سلطة فنية من حيث تساميه الأدبي، ويعد سلطة روحية، كما «يمتلك مواصفات الطرفية الحية التي تجعل منه مرجعية حدية تتفاعل معها العقول والعواطف مفاعلة تظل تتجدد، بتجدد أسباب الاستيعاب»⁽²⁾.

فالخطاب القرآني يعتمد على إقناع المتلقي بتقديم الحجج والبراهين والأدلة، وخصه «بعناية بعيدة عن روح الاستدراج واغتصاب القناعة، لقد واجهت الآيات روح المتلقي وعقله، وضميره، وخاطبته من نقطة قريبة من مداركه، وحملته إلى عقيدتها التوحيدية، بتوظيف المقول الفكري والشعوري»⁽³⁾.

فالخطاب القرآني يستقبله المتلقي بروحه وعقله وضميره، لا استدراج فيه ولا اغتصاب قناعة، ولا تخاثل في تقديم الحجج ولا تماري في بسطها: والدعوة القرآنية «توظف الحوار الفكري في البرهان على منطقيتها، وتوصل مقولها بأسباب الإقناع»⁽⁴⁾.

والخطاب القرآني رسالة تبليغية لا تختص بأمة بعينها ولا تتحيز بصقع محدد «فهو خطاب مهياً لتوصيل مجاليته العالمية أينما امتدت أقطارها»⁽⁵⁾، فهو كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر ضمير المتلقي برسالة متكاملة «فحدثه القرآن حديثاً جمالية وأدبية أمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض والخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول ومن نجم من بعدهم من الطاعنين»⁽⁶⁾.

ولقد كان أسلوب الإقناع من أهم الأساليب التي يقوم عليها الخطاب القرآني، الذي كان بعيداً عن الإكراه وعن الإرغام، لقد كان خطاباً مقنعاً بالحجة مبيناً لكل شيء داعياً العقل إلى التفكير والتدبر مبيناً له طريق الحق، وطريق الضلال عن طريق الحجة

(1)-سورة فصلت، الآيتان: 41-42.

(2)-سليمان عشاري، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص5.

(3)-المرجع نفسه، ص6.

(4)-المرجع نفسه، ص6.

(5)-سليمان عشاري، الخطاب القرآني، ص7.

(6)-المرجع نفسه، ص7.

المحلل:.....إعجاز النظم القرآني»

والبرهان، اضم إلى ذلك أن «الخطابية القرآنية في مباشرتها الموضوعات لا تتسرع بل تعلق بالمضمون إلى مستواها الفني والفضاءات النثرية»⁽¹⁾.

لقد سبق وأن تطرقت إلى الحديث عن بلاغة القرآن الكريم المتعلقة بخطابه فلا سبيل إلى إعادة الكلام هنا، ولكن أوميء فقط، إلى أن القرآن الكريم في أعلى طبقة من البلاغة «ولقد تجدر الأثر الفني للخطاب القرآني على صعيد التراث بفرادة نموذجه التبانى، وأسقطت الانظمة الخطابية بنفاذ جماليته ولاحقها، وأثّل لها قيمتها البلاغية»⁽²⁾.

ج-أنواع الخطاب القرآني من حيث النزول

أجمع كل من يحفظ عنه العلم أن أنواع الخطاب القرآني من حيث النزول نوعان: الخطاب المكي والخطاب المدني، إلا أنّ العلماء اختلفوا في اصطلاحات المكي والمدني، وذهبوا في ذلك مذاهب وأقوال.

وإننا لنكتفي بعون العزيز الحكيم بالقول المشهور من هذه الأقوال، وهو «أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة»⁽³⁾، وإلى هذا القول ذهب السيوطي⁽⁴⁾ وإليه ذهب أيضا من المتأخرين "محمد عبد العظيم الزرقاني" في كتابه "مناهل العرفان"، ورجح هذا القول حيث قال: «وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول وهو تقسيم صحيح سليم لأته ضابط، حاصر، ومطرّد لا يختلف بخلاف سابقه، ولذلك اعتمده العلماء وأشتهر بينهم»⁽⁵⁾.

ولا يعرف المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك.

1-الخطاب القرآني المكي:

(1)-المرجع نفسه، ص11.

(2)-المرجع نفسه، ص8.

(3)-الزركشي، البرهان، ج2، ص135.

(4)-الإتقان وبهامشه البقلاني إعجاز القرآن، ج1، ص12.

(5)-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص137.

لقد سبق، وأن ذكرنا أن المكي هو ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، وللمكي ضوابط⁽¹⁾ يعرف بها وهي كالآتي:

1- كل سورة فيها لفظ "كلًا" فهي مكية «وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثرها جابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم»⁽²⁾.

2- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.

3- كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدينتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورة البقرة.

5- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى سورة البقرة أيضا.

6- كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية.

7- كل سورة من المفصل فهي مكية.

قال الزرقاني: «توجد فروق أخرى بين المكي والمدني ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي»⁽³⁾.

1- أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب وأتاهم بكل دليل وحاكمهم إلى الحس وضرب لهم أبلغ الأمثال. كما قبح إليهم الجمود على ذلك التقليد الأعمى للأباء والأجداد، وناقشهم في عقائدهم الضالة، وإنكارهم البعث والمسؤولية والجزاء.

2- أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من

(1)-ينظر: المصدر نفسه، ص138.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص138.

(3)-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص142.

المحط،.....إيجاز النظم القرآني

أعلام الرشد، ونوع لهم في الأدلة، وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات، ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته. والإيمان بالبعث والجزاء العادل ودقته، ثم التسليم بالوحي، وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد سواء.

3- أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ولفت أنظارهم إلى ما فيها من أخطار، ونجح في إبعادهم عنها.

4- شرح لهم أصول الأخلاق، فحجب إليهم الإيمان والطاعة وطهارة القلب، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وقذارة القلب.

5- أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأمهم السابقة، ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر.

6- أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه.

فهذه عينة من الضوابط التي يعرف بها الخطاب القرآني المكي.

2- الخطاب القرآني المدني:

لقد سبقت الإشارة إلى أن القرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن كان في مكة، وللمدني ضوابط⁽¹⁾ يعرف بها وهي كالاتي:

1- كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

2- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

3- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت، والتحقق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية، وهي التي ذكر فيها المنافقون.

(1)-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص143.

هناك خواص أخرى للقسم المدني: «فنذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتي»⁽¹⁾.

1-التحدث عن دقائق التشريع، وتفاصيل الأحكام، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات والمعاملات.

2-دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، وبيان جناياتهم على الحق، وتحريفهم لكتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ.

3-سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره، وذلك لأنَّ أهل المدينة لم يكونوا يظاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان، فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيرا من البسط والإسهاب، لأن دستور البلاغة لا يقوم إلى على رعاية مقتضيات الأحوال، وخطاب الأغبياء بغير ما يخاطب به الأذكياء: [وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ]⁽²⁾.

هناك شبهات أثرت حول هذا الموضوع، ولا يمكن التطرق إلى ذلك، لأنَّ موضوعنا لا يستدعي ذلك، والذي يمكن أن أتطرق إليه هو الموازنة بين الخطاب المكي والخطاب المدني. إذ كلاهما خطاب قرآني يخاطب العقل، ولكن هناك فروق بين الخطابين، لأن هناك علاقة بين الخطاب ومقام المخاطب^(*).

د-موازنة بين الخطاب المكي والمدني

إن الخطاب القرآني المكي خاطب عقولا كانت على الشرك والوثنية وهذه العقول تشبثت بماهي عليه، فدخل عليها الخطاب القرآني من كل باب وأتاها بكل دليل وحاكمها إلى الحس وضرب لها أبلغ الأمثال.

فهذه العقول أرادت أن تبقى على ما هي عليه، وأبت الدخول في دين الحق رغم

(1)-المصدر نفسه، ص143.

(2)-سورة فاطر، الآية: 14.

(*)-ملاحظة: ضوابط المكي والمدني وخواص كل منهما مأخوذ من كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ج1، ص138-144.

المحط:.....إيجاز النظم القرآني

علمها بذلك، وهي مصرّة على الشرك والوثنية، واحتجت بما كان عليه الآباء قال الله تعالى: [بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ] (1).

وكبر عناد هذه العقول، فسفّه القرآن أحلامهم وأحلام آبائهم، وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد: [أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] (2)، فحاكمهم إلى العقل وأقنعهم بأن آباءهم كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

أضف إلى ذلك أنه ناقش هذه العقول في عقائدها الضالة التي هم بها مستمسكون ثم قادهم قيادة رائدة حكيمة إلى الإيمان، كما بيّن لهم عاداتهم القبيحة، وما فيها من أخطار ثم شرح لهم أصول الأخلاق، ثم ضرب لهم أبلغ الأمثال والمواعظ وأنفع العبر، وذلك عن طريق قصصه من أنباء الرسل والأمم السابقة، كما سلك معهم سبيل الإيجاز لأنهم أرباب البلاغة والبيان.

فهناك علاقة جد وطيدة بين الخطاب والمخاطب إذ أن الخطاب يراعي تمام المراعاة عقل المخاطب وبيئته والظروف المحيطة به.

أما الخطاب المدني فخاطب عقولاً مؤمنة، دخلت في دين الله ومن ثم عنى الخطاب القرآني المدني بالتحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين، لأنّه يوجد فارق بين مخاطبة عقل كافر وعقل مؤمن، فالعقل الكافر يخاطب بالأساليب التي تمكنه من الإيمان، أما المؤمن فيخاطب بما يحتاجه من تشريع وأحكام إلى غير ذلك.

كذلك تحدث الخطاب القرآني المدني عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ودعاهم إلى الإسلام.

وجملة الأمر أن الفارق بين الخطابين يرجع إلى أحوال المخاطبين، لا سيما ودستور البلاغة لا يقوم إلا على مراعاة مقتضيات الأحوال.

(1) -سورة الزخرف، الآية: 22.

(2) -سورة البقرة، الآية: 170.

المحلل:.....إعجاز النظم القرآني

والذي أخلص إليه من خلال هذه الموازنة هو أن الفرق بين الخطاب المكي والخطاب المدني يؤوب إلى شيء واحد ألا وهو مراعاة أحوال المخاطبين، فالخطاب المكي يخاطب عقولا كافرة أما الخطاب المدني فقد خاطب عقولا مؤمنة والله أعلى أعلم. والخلاصة أن القرآن كله قام على مراعاة حال المخاطبين، فتارة يشدد وتارة يلين، تبعا لما يقتضيه حالهم، سواء منهم مكيمهم ومدنيهم⁽¹⁾.

هـ-وجوه المخاطبة والخطاب في القرآن

يذكر السيوطي قولاً لابن الجوزي مفاده أن الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً «وقال غيره^(*) على أكثر من ثلاثين وجهاً»⁽²⁾، وقال صاحب البرهان: «يأتي على نحو من أربعين وجهاً»^(*)⁽³⁾.

الأول: خطاب العام المراد به العموم: قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]⁽⁴⁾.

الثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ]⁽⁵⁾.

الثالث: خطاب الخاص والمراد به العموم: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ]⁽⁶⁾.

الرابع: خطاب العام والمراد الخاص: كقوله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ

(1)-ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص149.

(*)-أي غير ابن الجوزي.

(2)-السيوطي، الإتقان وبهامشه البقلاني إعجاز القرآن، ج2، ص343.

(*)-لقد تبينيت الوجوه التي ذكرها الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، ج2، ص137-157.

(3)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص137.

(4)-سورة المجادلة، الآية: 7.

(5)-سورة المائدة، الآية: 67.

(6)-سورة الطلاق، الآية: 1.

المحطه:إعجاز النظم القرآني»

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا [(1).

«وعومومه يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين جميعا، والمراد بعضهم» (2).

الخامس: خطاب الجنس: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (3).

فالمراد جنس الناس لا كل فرد.

السادس: خطاب النوع: قال الله تعالى: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي] (4).

المراد ببني إسرائيل "بنو يعقوب".

السابع: خطاب العين: قال تعالى: [يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] (5).

«ولم يقع في القرآن النداء ب"يا محمد" بل "يا أيها النبي"، و"يا أيها الرسول" تعظيما له وتبجيلا، وتخصيصا بذلك عن سواه» (6).

الثامن: خطاب المدح: قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] (7).

التاسع: خطاب الذم: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ] (8).

العاشر: خطاب الكرامة: قال الله تعالى: [يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] (9).

الحادي عشر: خطاب الإهانة:

(1) -سورة آل عمران، الآية: 173.

(2) -الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص139.

(3) -سورة البقرة، الآية: 21.

(4) -سورة البقرة، الآية: 40.

(5) -سورة البقرة، الآية: 35.

(6) -الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص143.

(7) -سورة البقرة، الآية: 104.

(8) -سورة التحريم، الآية: 7.

(9) -سورة البقرة، الآية: 35.

قال الله تعالى: [فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ] (1).

-الثاني عشر: خطاب التهكم: والتهكم هو «الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من تهكم البئر " إذا تهدمت» (2).

قال الله تعالى: [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (3).

-الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد: وهو أن يخاطب الجمع بلفظ الواحد.

قال الله تعالى: [إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي] (4).

-الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع: وهو أن يوجه الخطاب للواحد ولكن

يكون اللفظ للجمع كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ] (5). «فهو خطاب للنبي p وحده إذا لا نبي معه ولا بعده» (6).

-الخامس عشر: خطاب الواحد والجمع بلفظ الاثنين: وهو أن يخاطب الواحد بلفظ

الاثنين وكذا الجمع بلفظ الاثنين.

قال الله تعالى: [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ] (7).

والمراد مالك خازن النار.

-السادس عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد: قال الله تعالى: [فَمَنْ رَبُّكُمَا

(1)-سورة الحجر، الآيتان: 34-35.

(2)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص145.

(3)-سورة الدخان، الآية: 49.

(4)-سورة الحجر، الآية: 68.

(5)-سورة المؤمنون، الآية: 51-54.

(6)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص147.

(7)-سورة ق، الآية: 24.

يَا مُوسَى [1].

-السابع عشر: خطاب الجمع بعد الواحد: وهو أن يخاطب الجمع بعد خطاب الواحد كقوله تعالى: [وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا...]. [2].

-الثامن عشر: خطاب عين والمراد غيره: وهو أن يخاطب عين ويراد به غيره، كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ] [3].

فالخطاب للنبي p والمراد المؤمنون، لأن النبي p كان نقياً «وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين» [4]، وقد يأتي عكس هذا الخطاب أي يخاطب الغير والمراد به العين كقوله تعالى: [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ] [5].

-التاسع عشر: خطاب الاعتبار: قال الله تعالى: [فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ] [6].

-العشرون: خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره: قال تعالى: [فَالِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ] [للخطاب للنبي p].

-الحادي والعشرون: خطاب التلويح: ويسميه أهل المعاني الالتفات، كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ] [7].

-الثاني والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل: قال الله تعالى: [فَقَالَ لَهَا

(1)-سورة طه، الآية: 49.

(2)-سورة يونس، الآية: 61.

(3)-سورة الأحزاب، الآية: 1.

(4)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص151.

(5)-سورة الأنبياء، الآية: 10.

(6)-سورة الأعراف، الآية: 79.

(7)-سورة الطلاق، الآية: 1.

وَلِلْأَرْضِ إِنِّيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ⁽¹⁾.

-الثالث والعشرون: خطاب التهيج: قال الله تعالى: [وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]⁽²⁾.

-الرابع والعشرون: خطاب الإغصاب: قال الله تعالى: [إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ]⁽³⁾.

-الخامس والعشرون: خطاب التشجيع والتحريض: وهو الحث على الاتصاف بالصفات الجميلة كقوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُيَانًا مَرْضُوصًا]⁽⁴⁾.

-السادس والعشرون: خطاب التنفير: قال تعالى: [وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ]⁽⁵⁾.
في الآية الكريمة تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان ميتا وعليه يكمن تنفير المخاطب عن الغيبة.

-السابع والعشرون: خطاب التحنن والاستعطاف: قال الله تعالى: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ]⁽⁶⁾.

-الثامن والعشرون: خطاب التحبيب: قال الله تعالى: [يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ]⁽⁷⁾.

(1)-سورة فصلت، الآية: 11.

(2)-سورة المائدة، الآية: 23.

(3)-سورة الممتحنة، الآية: 9.

(4)-سورة الصف، الآية: 4.

(5)-سورة الحجرات، الآية: 12.

(6)-سورة الزمر، الآية: 53.

(7)-سورة مريم، الآية: 42.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

التاسع والعشرون: خطاب التعجيز: قال الله تعالى: [فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ] (1).

-الثلاثون: التحسير والتلهف: قال الله تعالى: [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ] (2).

الحادي والثلاثون: التكذيب: قال تعالى: [قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] (3).

-الثاني والثلاثون: خطاب التشريف: «وهو كل ما في القرآن العزيز مخاطبة بقل، كالقلاقل» (4)، والقلاقل هي سورة الإخلاص والمعوذتين وهي التي تبدأ بقل وكذلك سورة الكافرين.

وكقوله: [قُلْ آمَنَّا] (5)، وهو تشريف منه سبحانه لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة» (6).

-الثالث والثلاثون: خطاب المعدوم: ويصح ذلك تبعاً لموجود كقوله تعالى: [يَا بَنِي آدَمَ] (7). فإنه خطاب لأهل ذلك الزمان، ولكل من بعدهم، وهو على نحو ما يجري من الوصايا في خطاب الإنسان لولده وولد ولده ما تتاسلوا، بتقوى الله وإتيان طاعته» (8).

(1)-سورة البقرة، الآية: 23.

(2)-سورة آل عمران، الآية: 119.

(3)-سورة آل عمران، الآية: 93.

(4)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص156.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 84.

(6)-الزركشي، البرهان، ج2، ص157.

(7)-سورة الأعراف، الآية: 26.

(8)-الزركشي، البرهان، ج2، ص157.

المبحث الثالث: الإقناع

أ- تعريفه

- لغة: قنع بنفسه قنعا وقناعة؛ رضي، ورجل قانع من قوم قُنع، والمقنع بفتح الميم العدل من الشهود، وقنع بالفتح يقنع قنوعا ذلّ للسؤال، وقيل سأل، [وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ]⁽¹⁾، وقيل القانع السائل، وقيل المتعفف، وكل يصلح، والرجل قانع وقنيع.

والإقناع أن يقع البعير رأسه إلى الحوض للشرب وهو مده ورأسه.

والإقناع أن تضع الناقة عثونها في الماء وترفع من رأسها قليلا إلى الماء لتجذبه اجتذابا⁽²⁾.

- اصطلاحا: إن التعريف والمفهوم العلمي للإقناع فهو «عمليات فكرية وشكلية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر وإخضاعه لفكرة ما»⁽³⁾.

إن الإقناع يعتبر رضا، وهذا الرضا يحصل عن طريق تلك العمليات الفكرية والشكلية التي تؤثر على المخاطب، وبالتالي يخضع لفكرة ما، والعلاقة الدلالية التي تربط بين المدلول اللغوي والاصطلاحي هي علاقة تكامل وانسجام، فالإقناع بالمعنى اللغوي

(1)-سورة الحج، الآية: 36.

(2)-ابن منظور، لسان العرب، مادة: قنع، مج8، ص297-299.

(3)-عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ط3، دار العاصمة، السعودية، ص18.

المحط:.....إعجاز النظم القرآني

هو الرضا بصفة عامة، وبالمعنى الاصطلاحي هو الخضوع لفكرة ما، والخضوع لهذه الفكرة لا يحصل إلا بعد الرضا بها.

فالإقناع هو قبول الفكرة عن طريق المحاجة والمحاورة، لا عن طريق الفرض والإلزام، ومن أهم أساليبه البلاغة والبيان، فالإقناع هو عملية اتصال. وينبغي تجميل الأسلوب، لأن ذلك «يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب»⁽¹⁾.

ب- الأسس التي يقوم عليها الإقناع

إن للإقناع أسسا يقوم عليها، منها: يسر الدين في مضمونه ووضوحه في لفظه ومعناه، ومنها الثراء والتنوع والتطور، ومنها المنطق السليم والاستناد إلى البرهان الصحيح، ومنها الكلمة الطيبة والأسلوب الحسن، وأخيرا التدرج المرحلي أثناء القيام بعملية الإقناع⁽²⁾.

ج- عناصر العملية الإقناعية

إن حدوث العملية الإقناعية يقوم على عدة عناصر، أعني أن العملية الإقناعية لا تتحقق إلا إذا توفرت جملة من العناصر، ويمكن حصر هذه العناصر فيما يلي:

أولاً: المصدر: وهو الطرف الأساسي الذي يبدأ عملية الإقناع بنقل الرسالة إلى الطرف الآخر.

وللمصدر قواعد في نجاح عملية الإقناع منها: الثقة وتحصل بإظهار الاهتمام بمصالح المستقبلين، واختيار الوقت المناسب لتقديم الرسالة.

ومن قواعد المصدر أيضا، المصادقية ثم «مستوى المعرفة والدراية بما يدعو إليه

(1)-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص97.

(2)-ينظر: خالد حسين حمدان، الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، دراسة وصفية تحليلية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ-2005م، ص4-6.

وبما يحاول الإقناع والتأثير به»⁽¹⁾.

ثم إدراك العوامل النفسية للمستقبل، وأن يكون المصدر مقتنعا بما يدعو إليه ولو بعض الشيء.

ثانيا: الرسالة: هي لبّ الحديث الذي يراد الإقناع به، وهي كذلك الموضوع أو فحوى القضية، وهي الشيء المهم والأساسي في عملية الإقناع ولها قواعد، يجب الالتزام بها مثل الوضوح، إذ ينبغي أن تبتعد الرسالة عن الغموض والألغاز.

ومن قواعدها أيضا الشرح واحتواؤها على الجانب الإيحائي، ثم احتواؤها على الأدلة والبراهين والحجج القوية، وبعض الأمثلة التي تقرب الحقائق إلى ذهن المستقبل، وكذلك ضرب الأمثال. أضف إلى ذلك الابتعاد عن المواجهة بالمجادلة، وترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا.

ثالثا: المستقبل: «وهو الطرف الآخر والمتلقي للرسالة والمتأثر بعمليات الإقناع فيها»⁽²⁾، ولنجاح عملية الإقناع ينبغي أن تراعى للمستقبل القواعد التي بفضلها تتحقق العملية الإقناعية، كالفروق الفردية بين المستقبلين وكالثقافة والتعليم والوضع النفسي والانفتاح الذهني وسعة الخيال وأخيرا البيئة والمجتمع.

رابعا: الهدف: «هو الذي لأجله قامت عملية الإقناع وتحركت فعاليتها ومن الضروري أن يكون هناك هدف يستحق القيام بالإقناع لأجله»⁽³⁾.

فالهدف هو الذي من أجله وقع الخطاب، لأن المخاطب يسعى إلى تحقيق أهداف من خلال خطابه.

خامسا: الوسيلة: وهي تلك الوسائل التي يستخدمها المخاطب لتحقيق إقناع المخاطب.

(1)- عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ص 27.

(2)- عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ص 93.

(3)- المرجع نفسه، ص 37.

قسمت الدراسات الإقناع إلى ثلاثة أنواع: «نوعين رئيسيين والنوع الثالث يعتمد على سمات تميل إلى أحد النوعين السابقين»⁽¹⁾، وهي:

1- الإقناع المشترك: هذا الإقناع متبادل بين الطرفين، إذ يحدث ويقع بينهما معا، وينبغي أن ينطلق الاثنان من قاعدة واحدة، ويعتمدان على العقل والمنطق، وألا يسيطر أحدهما على الموقف بأساليبه الإقناعية، ويجب أن يشعر الطرفان بحاجتهما إلى بعضهما، كما يجب الابتعاد عن الأسلوب القهري.

2- الإقناع النزالي: وهو الإقناع الذي يكون بين طرفين متساويين ومتعادلين من حيث القوة في عملية الإقناع، ولكن يشعر أحدهما أنه ينبغي أن يسيطر على الموقف، ويفرض نفسه على الآخر، ويستمر النزال حتى يصل أحدهما إلى إقناع الآخر.

3- الإقناع الشمولي: هذا القسم من الإقناع يقوم على عدد من الافتراضات «وتجمع أساليبه بين أساليب النوعين السابقين»⁽²⁾.

د- الإقناع القرآني:

إن القرآن الكريم اعتبر العقل القوة القادرة والصالحة للحكم على الأشياء، والميزان الذي توزن به القضايا وفسادها. ومن ثم فهو منهج المسلم في الحياة، وجعله الله سبحانه وتعالى في صيغته اللغوية خطابا منطقيًا من حيث هو معان متلقاة في لغة يفهمها البشر هي اللغة العربية.

إن موضوع الإقناع هو فعل الصورة الحجاجية، والخطاب القرآني حقق هذا الفعل بواسطة أفعال الكلام المنجزة.

ولقد تفنن القرآن الكريم في أساليب الإقناع واشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة والحجج «فالقرآن في خطابه للناس لا ينحصر في مخاطبة العقول بالبرهان المنطقي أو استعمال الدليل الجدلي، بل إنه يخاطب الوجدان، كذلك والتأثير على العاطفة

(1)-ينظر: المرجع نفسه، ص41.

(2)- عبد الله بن محمد العوشن، كيف تفنن الآخرين، ص44.

المحط:.....إعجاز النظم القرآني

وإيقاظ الفطرة من سباتها، وبوقظ الروح من منامها لأنه من تنزيل العليم الخبير»⁽¹⁾، ولقد زواج بين الترغيب والترهيب والنعيم والعذاب، وضرب الأمثال وسرد القصص بأسلوب رائع وأخاذ، كما عرض الأدلة المنطقية والبراهين العقلية.

هـ-الإقناع بالحديث الشريف

إن السنة الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، ولقد كان رسول الله ﷺ أفصح العرب، وكلامه ذو بلاغة رفيعة «هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها»⁽²⁾.

كيف لا، وهي يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، وقد كان رسول الله ﷺ أبلغ الناس، ولقد تميز كلامه بالإقناع التام، لأن ألفاظه «إن خرجت في الموعظة قُلت: أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت الحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع ويشد فينزو بالدماء وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء»⁽³⁾.

فلقد تميزت ألفاظ رسول الله ﷺ بالفصاحة، وتميز كلامه بالتصوير الفني، حيث تخرج الألفاظ في صورة محسوسة، ولقد استخدم جميع أنواع الأدلة والبراهين التي من خلالها يحصل الإقناع، أضف إلى ذلك أن كلامه تميز بالإيجاز إذ قلة الألفاظ مع كثرة المعاني، «هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف... استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي، ورغب في الهجين السوقي»⁽⁴⁾.

ولقد جمع رسول الله ﷺ بين المهابة والحلاوة وحسن الإقناع، وكان لكلامه أثر

(1)-المرجع نفسه، ص177.

(2)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص194.

(3)-المصدر نفسه، ص192.

(4)-الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، دط، دت، دار الجيل، بيروت،

ج2، ص16-18.

عظيم في النفوس، كما تميز كلام رسول الله ﷺ بالحوار، ولناخذ نموذجا من الإقناع النبوي، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفثيه [وفي رواية كنفثه] فمرّ بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما ن صنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»⁽¹⁾.

المبحث الرابع: البلاغة

أ-تعريفها:

-لغة: جاء في القاموس المحيط «بلغ المكان بلوغا وصل إليه أو شارف عليه وشيء بالغ جيد، وقد بلغ مبلغا وجارية بالغ وبالغة مدركه والبلاغ كسحاب الكفاية والاسم من الإبلاغ والتبليغ وهما الإيصال من بالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد ولم يقصر»⁽²⁾.

-اصطلاحا: البلاغة وصف للكلام والمتكلم فقط، وهي تلك الوسيلة التي يستخدمها المتكلم بغية الوصول إلى غرضه، وقال ابن رشيق «سئل بعض البلغاء ما البلاغة؟ فقال قليل يفهم وكثير لا يسأم وقال آخر البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى... وسئل آخر فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة، وقيل لأحدهم ما البلاغة؟ فقال إصابة المعنى وحسن الإيجاز... وقيل لبعضهم ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة، وقال آخر: البلاغة أن تفهم المخاطب بقدر فهمه من غير تعب عليك... وقيل البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام»⁽³⁾. وذهب الرماني^(*) إلى

(1)-مختصر صحيح مسلم عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص624.

(2)-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص797.

(3)-ابن رشيق، العمدة، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج1، ص242-245.

(*)-الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني اللغوي المتكلم، توفي سنة 384هـ، وقيل سنة 382هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، دت، م3، ص299.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

تقسيم البلاغة إلى ثلاثة طبقات منها: ما هو في أعلى طبقة، فهو معجز وهو بلاغة القرآن، ومنها في الوسائط وهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأعلى طبقات البلاغة، للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم⁽¹⁾.

سبق أن ذكرت في البداية أن البلاغة وصف للكلام والمتكلم فبلاغة الكلام هي «مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال هو الاعتبار المناسب أما بلاغة المتكلم فهي «ملكة يقدر بها على تأليف كلام بليغ»⁽²⁾.
وللبلاغة طرفان: أعلى إليه تنتهي، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه وأسفل منه تبتدئ.

ب- بلاغة القرآن المعجزة

إن نبوة سيدنا محمد μ معجزتها القرآن الكريم، والمعجزة «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية»⁽³⁾. فالأمر الخارق للعادة هو الذي لم يعرف من قبل.

وقيل أن المعجزة هي «ما يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة، أو هي تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدق المرسل إليه»⁽⁴⁾.

فلفرط ذكاء هذه الأمة وكمال أفهامها أيدت بالمعجزة العقلية، وكذلك لكون هذه الشريعة باقية على صفحات الدهر خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها نوار البصائر⁽⁵⁾.
قال عليه الصلاة والسلام «ما من الأنبياء من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم

(1)-ينظر: الرماني والخطابي وعبد القاهر، تح وتعليق: محمد خلف الله، محمد زغول سلام، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط4، دار المعرفة، دت، ص75-76.

(2)-ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ص14.

(3)-ينظر: السيوطي، إتقان في علوم القرآن، ج1، ص464.

(4)-فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط6، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ص20.

(5)-ينظر: السيوطي، إتقان في علوم القرآن، ج1، ص464.

القيامة»⁽¹⁾.

فمعجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، فقد جاء القرآن ببلاغة عظيمة لم تعرفها العرب.

فالقرآن الكريم عجيب النظم والتأليف ولم يستطع ناظم أو ناثر أن يأتي بمثل القرآن إنسا كان أوجنا قال تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]⁽²⁾.

«إن القرآن في أعلى درجات البيان من حيث لفظة ومن حيث نعماته، ومن حيث مغازيه، ومن حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته حتى أن كل عبارة تلقي في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية كاملة في روعتها ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تتبثق منها منفردة، وبتأخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة، وحقائق بيينة، وشرائع منظمة العلاقات والسلوك الإنساني القويم الهادي إلى الصراط المستقيم»⁽³⁾.

قال الله تعالى: [قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]⁽⁴⁾. وقال: [يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ]⁽⁵⁾.

ثبت أنه تحداهم إليه ولم يأتوا بمثله «وفي هذا أمران أحدهما التحدي إليه، والآخر

(1)-المنذري: مختصر صحيح مسلم، ص19.

(2)-سورة البقرة، الآية: 23-24.

(3)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص64.

(4)-سورة الإسراء، الآية: 88.

(5)-سورة الطور، الآية: 33-34.

أنه لم يأتوا له يمثل»⁽¹⁾.

إن انبهار العرب ببلاغة القرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله حجة عليهم في صدق نبوة الرسول ρ وفي كون القرآن كلام العلي القدير قال الباقلاني: «فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه»⁽²⁾.

ويرى الخطابي أن عمود بلاغة القرآن «هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي أبدل مكانه غيره جاء فيه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني بحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب»⁽³⁾. ومجمل القول فإن بلاغة القرآن معجزة يعجز الخلق عن الإتيان بمثها، ولها أثر عظيم على النفس.

والقرآن الكريم معجزة بيانية لسائر الناس ولا يستطيع أحد أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية.

ج-النظم:

تعريف لغة: «النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، والمنظوم والجماعة من الجراد، وثلاثة كواكب من الجوزاء والثريا والدبران، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ونظمه ألفه. وجمعه في سلك، فاننظم وتنظّم وانتظمه بالرمح: اختله. والنظام كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ككتب، وملاك الأمر: أنظمة وأناظيم ونظم، والسيرة والهدي والعادة ونظاما السمكة والضب»⁽⁴⁾.

فالنظم هو التأليف الذي يضم مجموعة من العناصر اللغوية المتحدة في العملية

(1)-السيوطي، الإتيان وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، ج2، ص602.

(2)-السيوطي، الإتيان وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، ج2، ص606.

(3)-الرماني والخطابي والجرجاني، ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، ص29.

(4)-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1172.

المصطلح:.....إيجاز النظم القرآني

اللغوية ليكون الكلام حسنا، كحسن الاختيار لأصوات الكلمة، وتعليق الكلمة في ذاتها، وتعليقها بما يجاورها وليس ضم الكلمات كيفما جاء.

ومراعاة الموقع النحوي الأصيل حسب ما تقضيه بيئة العربي، ومراعاة المعنى المباشر السطحي (غير المنزاج) والمعنى غير المباشر (المنزاج)⁽¹⁾.

لما كان النظم هو التأليف وضم شيء إلى آخر، أطلق هذا المصطلح على الكلام الذي ألفاظه مرتبة في النطق، وتحمل معان مرتبة في الذهن، فتزيد المخاطب إلهاما وإقناعا.

إذا نظرنا إلى أقوال أساطين البيان ودهاقين الكلام في معنى البلاغة، وجدنا تعاريفهم تدور كلها حول فكرة النظم.

وأنهم يرون أن البلاغة هي النظم على اختلاف تعاريفهم وأقوالهم.

فنظم الكلام يعني ترتيب الألفاظ بحسب المعاني، ولقد تحدث فيه علماء كثيرون.

د- منابع فكرة النظم:

لم يظهر مصطلح النظم في العصر الجاهلي بحكم أن العرب كانوا سليقيين وفصحاء وكانت اللغة العالية هي السائدة، وكان النظم عندهم يظهر في تميز الشاعر عن الآخر.

فقالوا: «أمرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابعة إذا رهب وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب»⁽²⁾.

ولما نزل القرآن جاء بنظم عجيب وتأليف بديع، كلام عربي وبلسان عربي مبين إلا أن نظمه لم يظهر من قبل ولن يظهر من بعد، فألفت الانتباه وأبهر الفحول وأعجز

(1)- ينظر: صالح بالعيد، نظرية النظم، دط، دار هممه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص93.

(2)- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص23.

القروم.

«عندما تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه وعجزوا عن ذلك ضاع صوابهم وضربوا أخماسا في أسداس من حيرتهم لأنهم لم يستطيعوا مجازة القرآن الكريم في بلاغته وهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة وسادة الكلام. ووصفوا القرآن الكريم تارة بأنه شعر وتارة أخرى بأنه سحر»⁽¹⁾.

والحق أن القرآن الكريم ليس شعرا، وليس سحرا فقد أقسم الله تعالى للعرب في محكم كتابه قائلا لهم: [فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ]⁽²⁾.

لقد ثبت العجز ولم يستطع عربي أن ينظم كلاما كنظم القرآن، ووقع التحدي للنقلين.

فبعد أن ثبت هذا وذاك جاء إبراهيم النظام بمقولة خبيثة، ألا وهي القول بالصرفة، والتي مفادها أن القرآن معجز بالصرفة فما إن قال النظام هذه المقولة إذ شمر العلماء عن سواعدهم، وراحوا يبحثون في قضية إعجاز القرآن.

ولقد تحدث عن النظم علماء كثيرون، وهذا بعد البحث في إعجاز القرآن الكريم، ونشأ الحديث عن النظم في جوّ من الخلافات والخصومات حول قضية اللفظ والمعنى.

(1) -حسن إسماعيل عبد الرزاق، النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، ط1، دار الطباعة المحمدية، مصر، ص60.

(2) -سورة الحاقة، الآيات: 38-42.

المدخل

إعجاز النظم القرآني

المبحث الأول: إعجاز القرآن

المبحث الثاني: الخطاب

المبحث الثالث: الإقناع

المبحث الرابع: البلاغة

المبحث الأول: إعجاز القرآن

قبل التطرق إلى الحديث عن إعجاز القرآن ينبغي أن أقف أولاً عند تعريف إعجاز القرآن.

إن «إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به. فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به. والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به»⁽¹⁾.

قال الله تعالى: [وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ]⁽²⁾، قال صاحب البرهان «فلو لا أن سماعه إياه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا تكون حجة إلا وهي معجزة»⁽³⁾.

وقال الله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ]⁽⁴⁾.

فأخبر سبحانه وتعالى أن الكتاب آية من آياته، وأنه كاف في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء.

والإعجاز شيطان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة، واستمرار هذا الضعف.

ولقد كان العرب أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وأهل صناعة اللسان، إلا أن الله عز وجل تحداهم، فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء، وأخرس ألسنة فحول البيان «وذلك في عصر كانت القوى فيه قد توافرت في الإجابة والتبريز في هذا

(1)- الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج2، ص238.

(2)-سورة التوبة، الآية: 6.

(3)-بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2004، ج2، ص59.

(4)-سورة العنكبوت، الآيتان: 50-51.

الميدان»⁽¹⁾.

فإذا عجز أهل الصناعة فإن غيرهم أشد عجزا وأفحش عيا، ولقد تحداهم بأن يأتوا يمثله فعجزوا قال الله تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ] ⁽²⁾.

ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا، قال الله تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ] ⁽³⁾، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا قال الله تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] ⁽⁴⁾.

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر فلم يفعلوا ولن يفعلوا، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم وظهر أمر الله وهم كارهون. والقدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه.

والقرآن الكريم سحر العرب وسلب عقولهم ببيانه ونظمه، وروعة معانيه الخالدة، وكان الإعجاز هو روحه الحقيقية التي تسري في قارئه، فينبعث فيه الإقرار بأنه كتاب إلهي وأن قوى الإنس والجن تعجز عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

فالقرآن الكريم جديد في معانيه وألفاظه في أعين العرب جميعا وعقولهم. أضف إلى ذلك أن آيات التحدي ظلت مسجلة في كتاب الله، تفرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم في كل زمان ومكان، فما استطاع واحد فيهم مهما كان عصره وتاريخه أن يسجل إلى جانب هذا التحدي عملا ما يصح أن يقال أنه قد عارض

(1)- الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، دار الفكر، دم، دت، ج2، ص240.

(2)-سورة الطور، الآيتان: 33-34.

(3)-سورة هود، الآيتان: 13-14.

(4)-سورة البقرة، الآيتان: 23-24.

به القرآن⁽¹⁾.

إن المؤلفات في إعجاز القرآن الكريم بدأت تطهر بعد أن أطلق النظام^(*) مقولته الخبيثة ألا وهي القول بالصرفة. قال النظام: «إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله»⁽²⁾.

ولقد تصدى له العلماء وردوا قوله هذا ردا عنيفا، وظهرت المؤلفات في إعجاز القرآن الكريم والبلاغة العربية.

فألف كثيرون في إعجاز القرآن الكريم، وأول كتاب وسم بلفظه إعجاز، ينسب لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة 302هـ، واسم كتابه "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه".

«وأشهر الكتب في إعجاز القرآن المتداولة بين أيدي الدارسين التي تخصص لفكرة الإعجاز كتابا خاصا تكاد تعد على الأصابع مثل كتاب "النكت في إعجاز القرآن"، الرماني المتوفى سنة 386هـ، و"بيان إعجاز القرآن"، الخطابي المتوفى سنة 388هـ. و"إعجاز القرآن" للباقلاني المتوفى سنة 404هـ. و"الرسالة الشافية"، و"دلائل الإعجاز"، لعبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ⁽³⁾.

أما الذين تعرضوا في كتبهم بالحديث عن الإعجاز فكثيرون، يشمل أهل البلاغة

(1)-ينظر: عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ط1، دار الكتاب العالمي، الجزائر، 2006، ص24.
(*)-النظام: هو إبراهيم بن سيار بن هانيء البصري أبو إسحاق النظام، من أئمة المعجزين، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين وانفرد بأراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت بالنظامية نسبة إليه، عاش في زمان شبابه قوما من الثنوية وقوما من السمنية وخالط ملاحدة الفلاسفة وأخذ عن الجميع. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986، مج1، ص43.

(2)-أحمد جمال العمري، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني، نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري، دط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1990، ص28.

(3)-ينظر: عمر السلامي، الإعجاز الفني في القرآن، ط1، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980، ص

والتفسير وعلم الكلام، ودارس إعجاز القرآن الكريم، يجد نفسه أمام مجموعة كبيرة من الآراء المختلفة، كل رأي في الغالب يتبع عقلية صاحبه، ويعبر عن تفكيره وعقيدته ودرجة معرفته. وما زال ولا يزال العلماء يتحدثون عن الإعجاز ويصنفون فيه المؤلفات، ولقد تعددت أوجه الإعجاز عند العلماء ومن هذه الوجوه⁽¹⁾.

- 1-النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب.
- 2-الأسلوب العجيب المخالف لجميع الأساليب العربية.
- 3-الجزالة التي لا يمكن لمخوف أن يأتي مثلها.
- 4-التشريع الدقيق الكامل الذي ييز كل تشريع وضعي.
- 5-الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي.
- 6-الوفاء بكل ما يخبر عنه القرآن من وعد ووعد.
- 7-عدم التعارض مع العلوم الكونية المقطوع بصحتها.
- 8-العلوم والمعارف التي اشتملت عليها العلوم الشرعية والعلوم الكونية.
- 9-وفاءه بحاجات البشر.

فالقرآن الكريم معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز بلا تقييد، ولقد اشتمل على جميع وجوه الإعجاز فهو «معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفي الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة»⁽²⁾، فأسلوبه خارج عن نطاق المخلوقين، ولا يستطيع مخلوق أن يأتي بأسلوب مماثل لأسلوب القرآن، ولقد أعجز الفحول وأبهر القروم، ولقد دارت أقاويل العلماء حول النظم القرآني وكلهم عدة وجها من وجوه الإعجاز.

(1)-تقية عبد الفتاح، الميسر في علوم القرآن، ط1، قصر الكتاب، دم، ص173. ولقد تبينيت الوجوه التي ذكرها الأستاذ تقية عبد الفتاح إذ رأيت أنها شاملة وجامعة.

(2)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ص110.

قال الباقلاني^(*) متحدثاً عن أسلوب القرآن ومبينا عجز الخلق عن الآتيان بمثله: «أته بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه»⁽¹⁾، فنظمه بديع وتأليفه عجيب، حيث هو في أعلى مراتب البلاغة، ولا يرقى إلى الإتيان بمثله إنس ولا جن، فالباقلاني تحدث عن النظم وعده وجها من وجوه الإعجاز وصرفه إلى تسعة وجوه⁽²⁾.

وممن جعلوا النظم وجها من وجوه الإعجاز الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول: «أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم في مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها»⁽³⁾، فهو يقر أن الإعجاز إنما وقع في النظم، ومواقع الألفاظ واتساقها مع بعضها البعض، كما ينبغي أن يكون الإعجاز واقع في اللفظ وذلك عند قوله: «قد سمعنا ما قلتم، فخبرونا عنهم عما ذا عجزوا؟ أعن معان في دقة معانيه وحسنها، وصحتها في العقول؟ أم عن ألفاظ مثل ألفاظه؟ فإن قلتم عن الألفاظ، فماذا أعجزهم من اللفظ؟ أم ما بهرهم منه؟»⁽⁴⁾.

فالجرجاني ممن رأوا الإعجاز واقعا في النظم.

ثم إن الجهات التي اختص بها أسلوب القرآن كانت أسبابا لانقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه. وتلك الأسباب خارجة عن قوى العقول وجماح الطبائع ولا يمكن أن يكون

(*)-الباقلاني: هو الشيخ الإمام الصادق أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عيسى البغدادي البقلاني، مات سنة 448هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء وبمهامشه أحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال كلاهما للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، اعتنى به محمد بن مميادي بن عبد الحليم، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003، ج10، ص653.

(1)-جمال الدين السيوطي الشافعي، الإتيان في علوم القرآن، ويليه كتاب إعجاز القرآن، الإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003، ج2، ص611.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص611.

(3)-الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2000، ص94.

(4)-المصدر نفسه، ص90.

شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة⁽¹⁾.

وهذه الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به فليس لنا بد في صفته من الكلام ثلاثتها جميعا... فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية، والآيات الكثيرة وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجاز أبديا⁽²⁾.

وأرى أن مذهب الرافعي في هذه المسألة يخالف ما ذهب إليه الجرجاني في نفي الإعجاز عن اللفظ، فالرافعي يقر بإعجاز الحرف وإعجاز الحرف معناه إعجاز اللفظ، وأرى هذا صوابا، ولا نسلم بنفي إعجاز اللفظ ولكن لا ينحصر الإعجاز في اللفظ.

-فنظم القرآن هو أهم ما يميز أسلوبه وجهات النظم ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل. ويتميز أسلوب القرآن الكريم بخصائص^(*):

أولها: أنه يجري عن نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب.

الثانية: إن التفسير القرآني: «يظل جاريا على نسق واحد من السمو في جمال اللفظ، وعمق المعنى ودقة التركيب ورقة الصياغة وروعه التعبير، رغم تنقله بها موضوعات مختلفة»⁽³⁾. فروح التركيب في القرآن لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، فيها انفرد نظمه وخرج عما يعهده الناس.

وهذه الروح ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، فكأنما وضع جملة واحدة، فهو متعدد الوجوه «التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصاص، والمواعظ، والحكم، والتعليم، وضرب الأمثال ونحوها،

(1)-ينظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص149.

(2)-المصدر نفسه، ص149-150.

(*)-لقد تبينت الخصائص التي ذكرها محمود السيد شيخون في كتابه "الإعجاز في نظم القرآن"، ص66-87.

(3)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، دط، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، ص68.

مما يقدر عليه»⁽¹⁾.

فالتركيب الذي جاء به أسلوب القرآن لم يعرف عند العرب من قبل، وبهذا انفرد نظم القرآن وخرج عن المعتاد والمألوف.

الثالثة: صياغة معانيه بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وعلى تباعد أزمنتهم وبلدانهم ومع تطور علومهم واكتشافاتهم.

فالناس يتفاوتون في المدارك والثقافة، وأن الآية القرآنية تعطي معناها بقدر ما يفهم كل صنف، ويستفيد منها المعنى الذي انتهى عنده علمه قال الله تعالى: [تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا]⁽²⁾.

إن الآية تحمل بصياغتها درجات ثلاث للمعنى «فتعطي كلا حسب طاقته وفهمه»⁽³⁾، فالمعنى الذي يفهمه العامي من العرب هو أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وهو معنى تدل عليه الآية.

«والم تأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجا والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه»⁽⁴⁾.

وهو معنى صحيح تدل عليه الآية. ويفهم الباحث المتخصص في علم الفلك من الآية: «إثبات أن القمر جرم مظلم، وإنما يضيء، بما يعكس عليه من ضياء الشمس»⁽⁵⁾، التي شبهت بالسراج وهذا المعنى صحيح تدل عليه الآية الكريمة.

فانظر هداك الله وأيدك بالبصيرة إلى سر النظم القرآني العظيم، وكيف يقنع جميع الأصناف من الناس على اختلاف عقولهم ومداركهم وأفهامهم، ولنأخذ مثال آخر.

(1)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص68.

(2)-سورة الفرقان، الآية: 61.

(3)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص81.

(4)-المصدر نفسه، ص81.

(5)-المصدر نفسه، ص81.

قال الله تعالى: [وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا] (1).

فالعالمي يفهم من قوله تعالى: "دحاها"، «معنى الانبساط والامتداد» (2)، ويفهم عالم الفلك «معنى الاستدارة والتكوير» (3). فكلا الفهمين صحيح والآية «تحمل في آن واحد كلا من معنى الاستدارة والانبساط» (4).

والرابعة: ظاهرة التكرار:

فأسلوب القرآني يتميز بظاهرة التكرار، والتكرار نوعان:

1- تكرار بعض الألفاظ أو الجمل والغرض من ذلك، التوكيد ثم ينطوي على نكت بلاغية كالتهويل والتعظيم...

مثل قوله تعالى: [الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ] (5).

2- تكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار، ويأتي لتحقيق غرضين:

أ- إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها.

ب- إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلى إعجازه.

والخامسة «هي تداخل أبحاثه، ومواضيعه في معظم الأحيان» (6).

والحقيقة أن هذه الخاصية في القرآن الكريم، إنما هي مظهر من مظاهر تفرده، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف.

(1)-سورة النازعات، الآيتان: 30-31.

(2)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 81.

(3)-المرجع نفسه، ص 81.

(4)-المرجع نفسه، ص 81.

(5)-سورة الحاقة، الآيات: 1-3.

(6)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 75.

1-المفردة القرآنية

إن المقصود بالمفردة «هو الكلمة الواحدة كما هو معلوم»⁽¹⁾، فالمفردة هي الكلمة و«الكلمة هي اللبنة المستخدمة في البناء اللغوي، ذلك البناء الفكري الذي يعد مظهرًا من مظاهر وعي الإنسان»⁽²⁾، أي أن الكلمة هي الأداة التعبيرية في توصيل المعنى والوسيلة الجمالية في صياغة النتاج الأدبي، فبالكلمة تتكون الجملة وبالجملة يتكون الأسلوب وبالأسلوب يشع المعنى المراد ويحصل الإقناع.

إنّ اللفظ عنصر أساسي في الأسلوب إذ عليه يقوم وبه يستقيم وعن طريقه يحصل الغرض المقصود، ولاختيار الألفاظ ومراعاة فصاحتها الدور الهام في إيصال المعنى وحصول الإقناع، ويكمن ذلك كله في اختيار مواقع الألفاظ واتساقها ببعضها البعض.

ولقد جاء الأسلوب القرآني بدقة رائعة في التعبير والإحكام فيه حتى لا يصح أن يقع لفظ مكان آخر فتضل المعاني بين الاحتمالات وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه.

إن الألفاظ في أسلوب القرآن لها جمال مميز ووقع تعمي وتناسق كامل مع المعنى وائتلاف مع دلالات المعاني المصاحبة، فهي «متماسكة مع أخواتها، متلاصقة مع رصفائها، متحدة في السياق، و متمشية مع المعنى والغرض»⁽³⁾.

فمفرداته متألّفة من ناحية النسق والجرس الصوتي ولا يقتصر التآلف على هذين فقط، بل يشمل التآلف في المعاني والتماسك في البناء والتأثير بالمعاني المتداعية.

إن تماسك ألفاظ القرآن وتآخيتها وتآلف معانيها واضح في كل آيات القرآن الكريم «فمعنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر، فلا تتافر في الألفاظ ولا تتافر في المعاني،

(1)-فاضل صالح السمرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دط، دار عمان، عمان، 1998، ص1.

(2)-أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، إشراف وتقديم: نور الدين عتر، ط1، دار المكتبي، دمشق، سوريا، 1994، ص35.

(3)-محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، دط، دم، 1990، ص8.

ومن ثم ينساب الأداء القرآني في النفس كالماء المترقق العذب»⁽¹⁾.

وهذا يرجع إلى دقة التعبير القرآني ومثانة نظمه وعجيب تصرفه، وعليه فإن اللفظ القرآني يشع جمالا وأداء ودلالة.

قال الباقلاني: «وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها تضاعيف كلام كثير، وهي غرة جميعه وواسطة عقده، والمنادي على نفسه بتميزه، وتخصسه، وبرونقه وجماله واعتراضه في جنسه ومائه»⁽²⁾.

إن المفردة القرآنية تشعّ قدرا من التأثير الوجداني الواضح في النفوس، وهذا يرجع إلى ائتلاف اللفظة القرآنية مع أصوات الحروف واتساقها معها في الأداء الموسيقي⁽³⁾.

فالمفردة القرآنية تتخذ سماتا بلاغيا معجزا وتتناسق مع الأداء التعبيري الكلي، وتحمل المعنى والدلالة حملا جماليا مؤثرا. ولها بلاغتها الخاصة في إطار الأسلوب.

وهذه الخاصية يتميز بها القرآن وحده، ذلك الكلام الرباني الذي أبهر القروم وأعجز الفحول وأفحم دهاقين الكلام وأساطين البيان. ثم «إن الألفاظ في ضمن الأسلوب البياني الرائع ونعتقد مؤمنين أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته، ويساعد بعضه بعضا في المعاني العامة للأسلوب والعبارات الجامعة، وإن العبارات مجتمعة يساعد بعضها بعضا»⁽⁴⁾.

كل لفظ في القرآن يمهد الطريق إلى معنى اللفظ الثاني، وكل لفظ له معنى قائم بذاته، أضف إلى ذلك الاتساق والائتلاف الكاملين.

«فنحن في قراءة القرآن نواجه بذلك اللحن السماوي المتنوع المتجدد في آن واحد فيبدو الجمال اللغوي ماثلا له وجوه وأثره البين في النفوس»⁽⁵⁾. وعليه فإن الكلمة في

(1)-محمد قطب عبد العال، جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص10.

(2)-الباقلاني، إعجاز القرآن، ترجمة: عماد الدين أحمد حيدر، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1991، ص68.

(3)-ينظر: محمد قطب عبد العال، جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص19.

(4)-محمد أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص104.

(5)-محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن، ص8.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

الجملة بمنزلة الفريدة من حب العقد. وإن سقطت هذه الكلمة من الكلام عزّ على الفصحاء سقوطها⁽¹⁾، فانساق الكلمات في المعنى وجمال وقعها في السمع يجعلنا نلمح صورة المضمون أمام العين، فسبحان قائل القرآن.

قال الراغب: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزيدته، واوسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالفشور والنوى بالإضافة إلى أطيب الثمرة وكالمثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»⁽²⁾. ولا بأس أن نضرب أمثلة تطبيقية متعلقة بالمفردة القرآنية وبلاغتها.

قال الله تعالى: [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ]⁽³⁾.

الكلمة الأولى -آمنة- فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم أو عدو يساورهم، ولعلّ ذلك إشارة إلى مكة أو أن هذه القرية هي كما قال الله تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ]⁽⁴⁾.

ففي هذه الكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم واختصوا بها دون الناس أجمعين.

-الكلمة الثانية-مطمئنة- فمعنى الاطمئنان يتصل بالنفس فهي قد منها الله تعالى القرار والسكون والدعة من غير ضعف.

-الكلمة الثالثة-يأيتها رزقها- فإنه يشير إلى سهولة الحياة.

-الكلمة الرابعة: رغدا- فالرغد⁽⁵⁾ هو الرزق الطيب المذاق المريء غير الوبيء وهو

(1)-ينظر: عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير القرآني، ط1، دار المريخ، الرياض، 1983، ص15.

(2)-الراغب الأصفهاني، المفردات، ضبط: محمد خليل عيناوي، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1998، ص35.

(3)-سورة النحل، الآية: 112.

(4)-سورة العنكبوت، الآية 67.

(5)-رغد: عيش رغيد؛ أي رغد رفيعه، والرغد سعة العيش، وقوم رغد ونساء رغد. الخليل بن أحمد الفرائدي، كتاب العين،

ط2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص358.

وهو الواسع الكثير، فهم في رزق يأتيهم سهلا طيبا واسما لا وباء فيه.

ولكنهم كفروا بهذه الأنعم كلها فأبي صورة بيانية أروع من هذه الصورة، وتجد الكلمات الأربع متأخية في معانيها متلاقية في ألقانها منسجمة في نغماتها.

وكل كلمة منها تعطي صورة بيانية، فأمنة فيها صورة البلد الذي لا يساوره عدو في وسط موطن فيه يتخطف الناس. ومطمئنة يشير إلى الاطمئنان النفسي الساكن القار كالماء الساكن الذي تبعث به الرياح.

ويأتيها رزقها من كل مكان تشير إلى المكانة التجارية التي يأتيها الخير من كل بلد قاص ودان، وأن لهم رحلة الشتاء.

-أما الصورة التي حلت محل الأولى في الآية الكريمة فينبغي النظر إلى الكلمات السامية كلمة، كلمة، ثم النظر إلى الصورة التي تتكون من هذه الكلمات التي كانت كل منها صورة قائمة بذاتها.

-الكلمة الأولى-أذاقها الله- في التعبير بأذاق إشارة إلى أن الإسلام مس نفوسهم وبعد أن كانوا في ترف ها هم يذوقون الضر.

-الكلمة الثانية-لباس الجوع والخوف- فيه صورة بيانية رائعة فهي تصور الجوع والخوف كأنه لباس لبسهم وأحاط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يخرجون منه إلا إليه ولا يدورون إلا في دائرته وأن ذلك الريب يفيد الإحاطة الشاملة الكاملة التي لا يستطيعون منها فكاكا فالتصوير باللباس أحاط بهم وغشيم⁽¹⁾.

ولننتقل إلى مثال آخر قال الله تعالى: [وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا. قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا]⁽²⁾.

فالكلمات متأخية في نعمها ومعانيها وتصويرها في جملتها للنفس الإنسانية.

-الكلمة الأولى-أنعمنا- فقد أضافها الله تعالى إليه وإنعام الله تعالى فيض وإسباغ

(1)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص105-107.

(2)-سورة الإسراء، الآيتان: 83-84.

يغمر صاحبه. والإنعام يقتضي الشكر والإقبال على الله بالطاعة.

-الكلمة الثانية - أعراض- وهي كناية عن البعد عن الله تعالى وعدم الإقبال عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأصل أعراض في المعنى الحسي أن يولي عرض وجهه بالألّا يقبل على الله تعالى ويطلب المزيد من النعم.

-الكلمة الثالثة -نأي بجانيه- الناي هو البعد، وكلمة بجانيه مؤداها اتخاذ جانب آخر غير جانب الله تعالى فيسير في ضلاله البعيد.

«ومن مجموع هذه الكلمات يتبين كيف كان أثر النعمة كفرا بها وكيف يتدرج الكفر بها، حتى يكون البعد التام عن الله، فتكون الطاعة في جانب ونفس المنعم في جانب آخر، وهو جانب العصيان والضلال البعيد ثم الطغيان من وراء ذلك.

وكل كلمة صورة بيانية في ذاتها، فإنعام الله تعالى يعطي صورة بيانية للمنعم، وفيض نعمه تعالى، والإعراض بتلقيها بجانب الوجه صورة حسية ثم النأي من بعد ذلك.

يمكن الانتقال من الصورة التي تصورها الكلمات منفردة إذ تكمن في إعطاء صورة كاملة لنفس كفرت بأنعم الله وبطرت معيشتها واتخذتها سبيلا لظلم العباد، والكفر برب الناس ملك الناس، والتوجه إلى صورة تلك النفس وقد أصابها الشر ولم تنل النعمة»⁽¹⁾.

هناك كلمتان هما: مسه الشر - وكان يؤوسا

الكلمة الأولى -مسه الشر-: إن المس وهو الإصابة بالشر، وإن التعبير بمس يفيد أن الإصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة، والشر كل ما لا يرغب فيه.

والتعبير بالشر هنا، يشمل الضار كقوله تعالى: [وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ]⁽²⁾.

ويشمل نتائج الطغيان والعصيان فيكبه الله تعالى على وجهه ويشمل العقاب الذي

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص109.

(2)-سورة يونس، الآية: 12.

المطلق:.....إيجاز النظم القرآني

ينزل جزاءً لما أرتكب. «فإن النفس التي تطغى بالنعمة تذلل وتهون، وتضعف بسلبها ويصيبها اليأس المطلق إذا نزلت بها النعمة»⁽¹⁾.

الكلمة الثانية - كان يئوسا-: فكلمة «كان دالة على اللزوم والاستمرار ككان في قوله تعالى: [وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا] ⁽²⁾، وكلمة يئوسا بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس وعدم افتراقه عنها، فيكون في حال بؤس مستمر ويأس دائم، يكفر إذا أنعم الله عليه ويصاب بالطغيان، ويكفر إذا اختبره الله تعالى بالشر يصيبه.

فهذه الجمل تصور حال إنسان غير قار ولا ثابت تبطره النعمة، ويؤنسه الاختبار، وكل ذلك في ألفاظ منسجمة في نغماتها، متضافرة في معانيها، تدل على النفس المنحرفة وتصورها ⁽³⁾.

ويختم الله تعالى الآية بقوله: [قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُتُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا] ⁽⁴⁾.

فالنص القرآني يفيد ما يدل على أن الناس جميعا ليسوا سواء في ذلك.

«وفي هذا الكلام معان دقيقة تتبعث من صور الكلمات ومرامي العبارات وحسن المقابلات، أن الناس قسمان: قسم شاكلته تلقى النعمة بالإعراض ووراء الإعراض الظلم والطغيان والفساد في الأرض، وقسم صابر ضابط لنفسه لا تبطره النعمة»⁽⁵⁾.

ولنتقل إلى أمثلة أخرى كقوله تعالى: [أَفَبِعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ] ⁽⁶⁾.

هذه الألفاظ كلها في الطبقة العليا من البلاغة، وقال تعالى: [يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 109.

(2)- سورة النساء، الآية: 96.

(3)- ينظر: أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 110.

(4)- الإسراء، الآية: 84.

(5)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 111.

(6)- سورة الصافات، الآية: 177.

تُخْفِي الصُّدُورُ⁽¹⁾.

«فإن لفظة [خائنة] بمفردها سهلة مستعملة، كثيرة الجريان على الألسن، فلما أضيفت إلى العين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع، بحيث لا يستطيع الإتيان بمثلا ولا يكاد يقع ذو فكر سليم، وذهن مستقيم على شبهها»⁽²⁾.

فالكلمات التي تألفت منها الجمل القرآنية تمتاز بجمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل في المعنى، حتى لكأنك تشم منها رائحة المعنى المطلوب.

وتلمح فيها صورة المضمون أمام العين، ولننظر إلى قوله تعالى: [فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ]⁽³⁾، فنرى لفظة [يترقب] ترسم هيئة الرجل الحذر المتلفت في المدينة التي يشع فيها الأمان والأمان⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: [وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ]⁽⁵⁾، فمعنى الكلمتين قوي جدا، بحيث لا توجد كلمة تصور إقبال الظلام وتمددته في الآفاق، المترامية أدل من كلمة [عسعس].

ولا توجد كلمة تصور إنفلات الصبح من مخبأ الليل وسجنه أروع من كلمة [تنفس]⁽⁶⁾. وقال تعالى: [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]⁽⁷⁾.

فالله سبحانه وتعالى قال [بنورهم] ولم يقل بضوئهم حتى يكون الكلام متجانسا

(1) -سورة غافر، الآية: 18-19.

(2) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(3) -سورة القصص، الآية: 18.

(4) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(5) -سورة التكوير، الآيتان: 17-18.

(6) -عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، صفاء الكلمة، ص12.

(7) -سورة البقرة، الآيتان: 17-18.

المحط:.....إعجاز النظم القرآني

ومتشاكلا مع قوله [أضاءت] والسبب في ذلك أن لفظ [بنورهم] في الآية أبلغ من لفظ [بضوئهم] في نفي النور عنهم، من حيث إن [الضوء] فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال [ذهب الله بضوئهم]، لكان المعنى يعطي ذهاب تلك الزيارة وبقاء ما يسمى نورا لأن الإضاءة هي فرط الإنارة، لقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا]⁽¹⁾، فقد جعل الله تعالى للشمس التي هي أكبر [الضياء] وجعل للقمر [نورا] فكل ضوء نور وليس كل نور ضوء⁽²⁾.

2- الجملة القرآنية

إن الجملة هي «مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي»⁽³⁾، ودراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية، لأنها أساس الجملة ومنها تركيبها، فعلماء البلاغة مقرون أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته، ولإعجاز فيها وجوه كثيرة منها:

التلاؤم والاتساق الكاملان بين الكلمات وبين تلاحق الحركات والسكنات.

فالجملة في القرآن «دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتألفها السمع والصوت والنطق»⁽⁴⁾، مثال ذلك قوله تعالى: [فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ]⁽⁵⁾.

نجد في الآية الكريمة تناسق الكلمات في كل جملة منها، وتألف الحروف الرخوة مع الشديدة، مع المهموسة والمجهورة.

ثم تألف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها، فالجمل القرآنية حسبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وذلك قدر تقديرا بعلم اللطيف الخبير.

(1)-سورة يونس، الآية: 5.

(2)-ينظر: عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير في القرآن، -بلاغة الكلمة، ص185.

(3)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص86.

(4)-محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص86.

(5)-سورة القمر، الآيات: 11-13.

ومنها: أن الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل مثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: [خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] (1).

فإنه سبحانه وتعالى جمع بهذا الكلام كل خلق عظيم «لأن في أخذ العفو» صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي "الأمر بالمعروف"، تقوى الله، وصلة الرحم وصون اللسان عن الكذب وغض الطرف عن الحرمات، وفي «الإعراض عن الجاهلين»، الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مهارات السفیه ومنازعة اللجوج (2). أضف إلى ذلك إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس.

فالقارئ يستقبل القرآن بعقله وقلبه وخياله، ولو نظرنا إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة المتكبر وعنفوانه واستعلائه على الحق وجنوحه عن السبيل لوجدنا أنه عبر تعبيراً بلغ أسمى درجات الروعة قال الله تعالى: [إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ] (3).

فهذا التعبير الرائع يجعلنا نتخيل إنسانا التف حول عنقه غل عريض مرتفع إلى الذقن جعل رأسه صاعدا إلى الأعلى لا يتحرك ثم هو يقف في مكان قد سدّ عليه بجران غليظة مرتفعة من أمامه وخلفه وقد غشى الظلام على بصره، فهو لا يملك حراكا نحو أي اتجاه، تلك هي صورة من لم ينفع معه المنطق ودلائل الفكر والعقل وظل مع ذلك عاكفا على غيه وضلاله.

فالجملة القرآنية ذات تعبير رائع دقيق يستحيل على القدرة البشرية الإتيان بمثل ذلك، كما أن للجملة القرآنية إقناعا تاما للعقل والقلب والوجدان والخيال.

(1) -سورة الأعراف، الآية: 199.

(2) -ينظر: محمود السيد شيخون، الإعجاز في نظم القرآن، ص 86.

(3) -سورة يس، الآيتان: 8-9.

المبحث الثاني: الخطاب

أ- تعريفه

- لغة: **الخطب**: الشأن أو الأمر صغر أو عظم، **والخطب**: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال. **والخطاب والمخاطبة**: مراجعة الكلام، وقد خاطب بالكلام مخاطبة وخطاب وهما يتخاطبان⁽¹⁾.

(1)- جمال الدين أبي الفضل محمد بن عامر بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عامر أحمد خيضر، راجعه: عبد المنعم خليل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، مادة: خطب، مج1، ص360-361.

المدخل:.....إعجاز النظم القرآني

-اصطلاحاً: الخطاب هو عملية اتصال تتم في إطارين: الإطار اللغوي، فقد يكون متوالية من الجمل المكتوبة أو المنطوقة، ينتجها مرسل واحد أو عدة متخاطبين، كما يحدث في الحوار أو غيره. وإطار غير اللغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق. والخطاب باعتباره حدثاً كلامياً يتألف من عدة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف، ويؤثر هذا الهدف تأثيراً جلياً في استراتيجية المرسل فيملي عليه اختيارات معينة، من بين البدائل التي يتيحها له النظام اللغوي، وقد يؤثر في صورة الحديث وطريقة بنائه وهو يفسر الكثير من المتغيرات الأسلوبية التي ترافق عملية التعبير اللغوي، ويربط بعض علماء اللغة هدف الخطاب بالأثر التي تحدثه وسيلة الاتصال بين المرسل والمتلقي⁽¹⁾.

ب-الخطاب القرآني:

إن القرآن هو كلام الله عز وجل وهو المعجزة العظمى والحجة البالغة، الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا محمد p.

وهو كتاب العربية الأكبر وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها، وبه توحد العرب، وبه صار المسلمون أمة واحدة لا يفرق بينها جنس ولا لون ولا لغة.

ومنه استمد العرب والمسلمون علومهم ومعارفهم «والقرآن هو هداية الخالق لإصلاح الخلق وشريعة السماء لأهل الأرض، وهو التشريع العام .. الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم»⁽²⁾.

أحكمه الله فأتقن إحكامه، وفصله فأحسن تفصيله قال الله تعالى: [كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] ⁽³⁾.

ولا يتطرق إلى ساحته نقض ولا إبطال [وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

(1)-ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2005، ص23.

(2)-محمد بن محمد أبو شبيهة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط1، مكتبة السنة، القاهرة، 1996، ص10.

(3)-سورة هود، الآية: 1.

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ⁽¹⁾.

إن الخطاب القرآني يعد سلطة فنية من حيث تساميه الأدبي، ويعد سلطة روحية، كما «يمتلك مواصفات الطرفية الحية التي تجعل منه مرجعية حدية تتفاعل معها العقول والعواطف مفاعلة تظل تتجدد، بتجدد أسباب الاستيعاب»⁽²⁾.

فالخطاب القرآني يعتمد على إقناع المتلقي بتقديم الحجج والبراهين والأدلة، وخصه «بغناية بعيدة عن روح الاستدراج واغتصاب القناعة، لقد واجهت الآيات روح المتلقي وعقله، وضميره، وخاطبته من نقطة قريبة من مداركه، وحملته إلى عقيدتها التوحيدية، بتوظيف المقول الفكري والشعوري»⁽³⁾.

فالخطاب القرآني يستقبله المتلقي بروحه وعقله وضميره، لا استدراج فيه ولا اغتصاب قناعة، ولا تخاثل في تقديم الحجج ولا تماري في بسطها: والدعوة القرآنية «توظف الحوار الفكري في البرهان على منطقيتها، وتوصل مقولها بأسباب الإقناع»⁽⁴⁾.

والخطاب القرآني رسالة تبليغية لا تختص بأمة بعينها ولا تتحيز بصقع محدد «فهو خطاب مهياً لتوصيل مجاليته العالمية أينما امتدت أقطارها»⁽⁵⁾، فهو كينونة قد تمثل على أنها المصدر العلوي عينه الذي يباشر ضمير المتلقي برسالة متكاملة «فحدثه القرآن حديثاً جمالية وأدبية أمكنها ليس فقط أن تتجاوز موقف الرفض والخصومة الذي وقفه منها المكذبون زمن النزول ومن نجم من بعدهم من الطاعنين»⁽⁶⁾.

ولقد كان أسلوب الإقناع من أهم الأساليب التي يقوم عليها الخطاب القرآني، الذي كان بعيداً عن الإكراه وعن الإرغام، لقد كان خطاباً مقنعاً بالحجة مبيناً لكل شيء داعياً العقل إلى التفكير والتدبر مبيناً له طريق الحق، وطريق الضلال عن طريق الحجة

(1)-سورة فصلت، الآيتان: 41-42.

(2)-سليمان عشاري، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص5.

(3)-المرجع نفسه، ص6.

(4)-المرجع نفسه، ص6.

(5)-سليمان عشاري، الخطاب القرآني، ص7.

(6)-المرجع نفسه، ص7.

المحلل:.....إعجاز النظم القرآني

والبرهان، اضم إلى ذلك أن «الخطابية القرآنية في مباشرتها الموضوعات لا تتسرع بل تعلق بالمضمون إلى مستواها الفني والفضاءات النثرية»⁽¹⁾.

لقد سبق وأن تطرقت إلى الحديث عن بلاغة القرآن الكريم المتعلقة بخطابه فلا سبيل إلى إعادة الكلام هنا، ولكن أوميء فقط، إلى أن القرآن الكريم في أعلى طبقة من البلاغة «ولقد تجدر الأثر الفني للخطاب القرآني على صعيد التراث بفرادة نموذجه التبانى، وأسقطت الانظمة الخطابية بنفاذ جماليته ولاحقها، وأثّل لها قيمتها البلاغية»⁽²⁾.

ج-أنواع الخطاب القرآني من حيث النزول

أجمع كل من يحفظ عنه العلم أن أنواع الخطاب القرآني من حيث النزول نوعان: الخطاب المكي والخطاب المدني، إلا أنّ العلماء اختلفوا في اصطلاحات المكي والمدني، وذهبوا في ذلك مذاهب وأقوال.

وإننا لنكتفي بعون العزيز الحكيم بالقول المشهور من هذه الأقوال، وهو «أن المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة»⁽³⁾، وإلى هذا القول ذهب السيوطي⁽⁴⁾ وإليه ذهب أيضا من المتأخرين "محمد عبد العظيم الزرقاني" في كتابه "مناهل العرفان"، ورجح هذا القول حيث قال: «وهذا التقسيم كما ترى لوحظ فيه زمن النزول وهو تقسيم صحيح سليم لأته ضابط، حاصر، ومطرّد لا يختلف بخلاف سابقه، ولذلك اعتمده العلماء وأشتهر بينهم»⁽⁵⁾.

ولا يعرف المكي والمدني إلا بما ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك.

1-الخطاب القرآني المكي:

(1)-المرجع نفسه، ص11.

(2)-المرجع نفسه، ص8.

(3)-الزركشي، البرهان، ج2، ص135.

(4)-الإتقان وبهامشه البقلاني إعجاز القرآن، ج1، ص12.

(5)-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص137.

لقد سبق، وأن ذكرنا أن المكي هو ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة، وللمكي ضوابط⁽¹⁾ يعرف بها وهي كالآتي:

1- كل سورة فيها لفظ "كلًا" فهي مكية «وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة، وأكثرها جابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول، وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم»⁽²⁾.

2- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.

3- كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فإنهما مدينتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف.

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى سورة البقرة.

5- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى سورة البقرة أيضا.

6- كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية.

7- كل سورة من المفصل فهي مكية.

قال الزرقاني: «توجد فروق أخرى بين المكي والمدني ونذكر من خواص القسم المكي أنه قد كثر فيه ما يأتي»⁽³⁾.

1- أنه حمل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية، ودخل عليهم من كل باب وأتاهم بكل دليل وحاكمهم إلى الحس وضرب لهم أبلغ الأمثال. كما قبح إليهم الجمود على ذلك التقليد الأعمى للأباء والأجداد، وناقشهم في عقائدهم الضالة، وإنكارهم البعث والمسؤولية والجزاء.

2- أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من

(1)- ينظر: المصدر نفسه، ص138.

(2)- ينظر: المصدر نفسه، ص138.

(3)- الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص142.

المحط،.....إيجاز النظم القرآني

أعلام الرشد، ونوع لهم في الأدلة، وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليات والمشاهدات، ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة، إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته. والإيمان بالبعث والجزاء العادل ودقته، ثم التسليم بالوحي، وبكل ما جاء به الوحي من هدي الله في الإلهيات والنبوات والسمعيات في العقائد سواء.

3- أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة ولفت أنظارهم إلى ما فيها من أخطار، ونجح في إبعادهم عنها.

4- شرح لهم أصول الأخلاق، فحجب إليهم الإيمان والطاعة وطهارة القلب، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وقذارة القلب.

5- أنه قص عليهم من أنباء الرسل وأمهم السابقة، ما فيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر.

6- أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه.

فهذه عينة من الضوابط التي يعرف بها الخطاب القرآني المكي.

2-الخطاب القرآني المدني:

لقد سبقت الإشارة إلى أن القرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة وإن كان في مكة، وللمدني ضوابط⁽¹⁾ يعرف بها وهي كالاتي:

1- كل سورة فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

2- كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكام الجهاد فهي مدنية.

3- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت، والتحقق أن سورة العنكبوت مكية ما عدا الإحدى عشرة الأولى منها، فإنها مدنية، وهي التي ذكر فيها المنافقون.

(1)-الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص143.

هناك خواص أخرى للقسم المدني: «فنذكر منها أنه قد كثر فيه ما يأتي»⁽¹⁾.

1-التحدث عن دقائق التشريع، وتفاصيل الأحكام، وأنواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات والمعاملات.

2-دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الإسلام، ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة، وبيان جناياتهم على الحق، وتحريفهم لكتب الله ومحاكمتهم إلى العقل والتاريخ.

3-سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره، وذلك لأنَّ أهل المدينة لم يكونوا يضاؤون أهل مكة في الذكاء والألمعية وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان، فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيرا من البسط والإسهاب، لأن دستور البلاغة لا يقوم إلى على رعاية مقتضيات الأحوال، وخطاب الأغبياء بغير ما يخاطب به الأذكياء: [وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ]⁽²⁾.

هناك شبهات أثرت حول هذا الموضوع، ولا يمكن التطرق إلى ذلك، لأنَّ موضوعنا لا يستدعي ذلك، والذي يمكن أن أتطرق إليه هو الموازنة بين الخطاب المكي والخطاب المدني. إذ كلاهما خطاب قرآني يخاطب العقل، ولكن هناك فروق بين الخطابين، لأن هناك علاقة بين الخطاب ومقام المخاطب^(*).

د-موازنة بين الخطاب المكي والمدني

إن الخطاب القرآني المكي خاطب عقولا كانت على الشرك والوثنية وهذه العقول تشبثت بماهي عليه، فدخل عليها الخطاب القرآني من كل باب وأتاها بكل دليل وحاكمها إلى الحس وضرب لها أبلغ الأمثال.

فهذه العقول أرادت أن تبقى على ما هي عليه، وأبت الدخول في دين الحق رغم

(1)-المصدر نفسه، ص143.

(2)-سورة فاطر، الآية: 14.

(*)-ملاحظة: ضوابط المكي والمدني وخواص كل منهما مأخوذ من كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ج1، ص138-144.

المحط:.....إيجاز النظم القرآني

علمها بذلك، وهي مصرّة على الشرك والوثنية، واحتجت بما كان عليه الآباء قال الله تعالى: [بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ] (1)،.

وكبر عناد هذه العقول، فسفّه القرآن أحلامهم وأحلام آبائهم، وقبح إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد: [أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] (2)، فحاكمهم إلى العقل وأقنعهم بأن آباءهم كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

أضف إلى ذلك أنه ناقش هذه العقول في عقائدها الضالة التي هم بها مستمسكون ثم قادهم قيادة رائدة حكيمة إلى الإيمان، كما بيّن لهم عاداتهم القبيحة، وما فيها من أخطار ثم شرح لهم أصول الأخلاق، ثم ضرب لهم أبلغ الأمثال والمواعظ وأنفع العبر، وذلك عن طريق قصصه من أنباء الرسل والأمم السابقة، كما سلك معهم سبيل الإيجاز لأنهم أرباب البلاغة والبيان.

فهناك علاقة جد وطيدة بين الخطاب والمخاطب إذ أن الخطاب يراعي تمام المراعاة عقل المخاطب وبيئته والظروف المحيطة به.

أما الخطاب المدني فخاطب عقولاً مؤمنة، دخلت في دين الله ومن ثم عنى الخطاب القرآني المدني بالتحدث عن دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وأنواع القوانين، لأنه يوجد فارق بين مخاطبة عقل كافر وعقل مؤمن، فالعقل الكافر يخاطب بالأساليب التي تمكنه من الإيمان، أما المؤمن فيخاطب بما يحتاجه من تشريع وأحكام إلى غير ذلك.

كذلك تحدث الخطاب القرآني المدني عن أهل الكتاب من يهود ونصارى ودعاهم إلى الإسلام.

وجملة الأمر أن الفارق بين الخطابين يرجع إلى أحوال المخاطبين، لا سيما ودستور البلاغة لا يقوم إلا على مراعاة مقتضيات الأحوال.

(1) -سورة الزخرف، الآية: 22.

(2) -سورة البقرة، الآية: 170.

المحلل:.....إعجاز النظم القرآني

والذي أخلص إليه من خلال هذه الموازنة هو أن الفرق بين الخطاب المكي والخطاب المدني يؤوب إلى شيء واحد ألا وهو مراعاة أحوال المخاطبين، فالخطاب المكي يخاطب عقولا كافرة أما الخطاب المدني فقد خاطب عقولا مؤمنة والله أعلى أعلم. والخلاصة أن القرآن كله قام على مراعاة حال المخاطبين، فتارة يشدد وتارة يلين، تبعا لما يقتضيه حالهم، سواء منهم مكيمهم ومدنيهم⁽¹⁾.

هـ-وجوه المخاطبة والخطاب في القرآن

يذكر السيوطي قولاً لابن الجوزي مفاده أن الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهاً «وقال غيره^(*) على أكثر من ثلاثين وجهاً»⁽²⁾، وقال صاحب البرهان: «يأتي على نحو من أربعين وجهاً»^(*)⁽³⁾.

الأول: خطاب العام المراد به العموم: قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]⁽⁴⁾.

الثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ]⁽⁵⁾.

الثالث: خطاب الخاص والمراد به العموم: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ]⁽⁶⁾.

الرابع: خطاب العام والمراد الخصوص: كقوله تعالى: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ

(1)-ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، ص149.

(*)-أي غير ابن الجوزي.

(2)-السيوطي، الإتقان وبهامشه البقلاني إعجاز القرآن، ج2، ص343.

(*)-لقد تبينيت الوجوه التي ذكرها الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، ج2، ص137-157.

(3)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص137.

(4)-سورة المجادلة، الآية: 7.

(5)-سورة المائدة، الآية: 67.

(6)-سورة الطلاق، الآية: 1.

المحطه:إعجاز النظم القرآني»

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا [(1).

«وعومومه يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين جميعا، والمراد بعضهم» (2).

الخامس: خطاب الجنس: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (3).

فالمراد جنس الناس لا كل فرد.

السادس: خطاب النوع: قال الله تعالى: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ادْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي] (4).

المراد ببني إسرائيل "بنو يعقوب".

السابع: خطاب العين: قال تعالى: [يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] (5).

«ولم يقع في القرآن النداء ب"يا محمد" بل "يا أيها النبي"، و"يا أيها الرسول" تعظيما له وتبجيلا، وتخصيصا بذلك عن سواه» (6).

الثامن: خطاب المدح: قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] (7).

التاسع: خطاب الذم: قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ] (8).

العاشر: خطاب الكرامة: قال الله تعالى: [يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ] (9).

الحادي عشر: خطاب الإهانة:

(1) -سورة آل عمران، الآية: 173.

(2) -الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص139.

(3) -سورة البقرة، الآية: 21.

(4) -سورة البقرة، الآية: 40.

(5) -سورة البقرة، الآية: 35.

(6) -الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص143.

(7) -سورة البقرة، الآية: 104.

(8) -سورة التحريم، الآية: 7.

(9) -سورة البقرة، الآية: 35.

قال الله تعالى: [فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ] (1).

-الثاني عشر: خطاب التهكم: والتهكم هو «الاستهزاء بالمخاطب، مأخوذ من تهكم البئر " إذا تهدمت» (2).

قال الله تعالى: [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] (3).

-الثالث عشر: خطاب الجمع بلفظ الواحد: وهو أن يخاطب الجمع بلفظ الواحد.

قال الله تعالى: [إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي] (4).

-الرابع عشر: خطاب الواحد بلفظ الجمع: وهو أن يوجه الخطاب للواحد ولكن

يكون اللفظ للجمع كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. فَذَرَهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ] (5). «فهو خطاب للنبي ρ وحده إذا لا نبي معه ولا بعده» (6).

-الخامس عشر: خطاب الواحد والجمع بلفظ الاثنين: وهو أن يخاطب الواحد بلفظ

الاثنين وكذا الجمع بلفظ الاثنين.

قال الله تعالى: [أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ] (7).

والمراد مالك خازن النار.

-السادس عشر: خطاب الاثنين بلفظ الواحد: قال الله تعالى: [فَمَنْ رُبُّكُمَْا

(1)-سورة الحجر، الآيتان: 34-35.

(2)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص145.

(3)-سورة الدخان، الآية: 49.

(4)-سورة الحجر، الآية: 68.

(5)-سورة المؤمنون، الآية: 51-54.

(6)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص147.

(7)-سورة ق، الآية: 24.

يَا مُوسَى [1].

-السابع عشر: خطاب الجمع بعد الواحد: وهو أن يخاطب الجمع بعد خطاب الواحد كقوله تعالى: [وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا...]. [2].

-الثامن عشر: خطاب عين والمراد غيره: وهو أن يخاطب عين ويراد به غيره، كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ] [3].

فالخطاب للنبي p والمراد المؤمنون، لأن النبي p كان نقياً «وحاشاه من طاعة الكافرين والمنافقين» [4]، وقد يأتي عكس هذا الخطاب أي يخاطب الغير والمراد به العين كقوله تعالى: [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ] [5].

-التاسع عشر: خطاب الاعتبار: قال الله تعالى: [فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ] [6].

-العشرون: خطاب الشخص ثم العدول إلى غيره: قال تعالى: [فَالِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ] [للخطاب للنبي p].

-الحادي والعشرون: خطاب التلوين: ويسميه أهل المعاني الالتفات، كقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ] [7].

-الثاني والعشرون: خطاب الجمادات خطاب من يعقل: قال الله تعالى: [فَقَالَ لَهَا

(1)-سورة طه، الآية: 49.

(2)-سورة يونس، الآية: 61.

(3)-سورة الأحزاب، الآية: 1.

(4)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص151.

(5)-سورة الأنبياء، الآية: 10.

(6)-سورة الأعراف، الآية: 79.

(7)-سورة الطلاق، الآية: 1.

وَلِلْأَرْضِ إِنِّيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ⁽¹⁾.

-الثالث والعشرون: خطاب التهيج: قال الله تعالى: [وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]⁽²⁾.

-الرابع والعشرون: خطاب الإغصاب: قال الله تعالى: [إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ]⁽³⁾.

-الخامس والعشرون: خطاب التشجيع والتحريض: وهو الحث على الاتصاف بالصفات الجميلة كقوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيَانًا مَرْضُوصًا]⁽⁴⁾.

-السادس والعشرون: خطاب التنفير: قال تعالى: [وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ]⁽⁵⁾.
في الآية الكريمة تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان ميتا وعليه يكمن تنفير المخاطب عن الغيبة.

-السابع والعشرون: خطاب التحنن والاستعطاف: قال الله تعالى: [قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ]⁽⁶⁾.

-الثامن والعشرون: خطاب التحبيب: قال الله تعالى: [يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ]⁽⁷⁾.

(1)-سورة فصلت، الآية: 11.

(2)-سورة المائدة، الآية: 23.

(3)-سورة الممتحنة، الآية: 9.

(4)-سورة الصف، الآية: 4.

(5)-سورة الحجرات، الآية: 12.

(6)-سورة الزمر، الآية: 53.

(7)-سورة مريم، الآية: 42.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

التاسع والعشرون: خطاب التعجيز: قال الله تعالى: [فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ] (1).

-الثلاثون: التحسير والتلهف: قال الله تعالى: [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ] (2).

الحادي والثلاثون: التكذيب: قال تعالى: [قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] (3).

-الثاني والثلاثون: خطاب التشريف: «وهو كل ما في القرآن العزيز مخاطبة بقل، كالقلاقل» (4)، والقلاقل هي سورة الإخلاص والمعوذتين وهي التي تبدأ بقل وكذلك سورة الكافرين.

وكقوله: [قُلْ آمَنَّا] (5)، وهو تشريف منه سبحانه لهذه الأمة بأن يخاطبها بغير واسطة لتفوز بشرف المخاطبة» (6).

-الثالث والثلاثون: خطاب المعدوم: ويصح ذلك تبعاً لموجود كقوله تعالى: [يَا بَنِي آدَمَ] (7). فإنه خطاب لأهل ذلك الزمان، ولكل من بعدهم، وهو على نحو ما يجري من الوصايا في خطاب الإنسان لولده وولد ولده ما تتاسلوا، بتقوى الله وإتيان طاعته» (8).

(1)-سورة البقرة، الآية: 23.

(2)-سورة آل عمران، الآية: 119.

(3)-سورة آل عمران، الآية: 93.

(4)-الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص156.

(5)-سورة آل عمران، الآية: 84.

(6)-الزركشي، البرهان، ج2، ص157.

(7)-سورة الأعراف، الآية: 26.

(8)-الزركشي، البرهان، ج2، ص157.

المبحث الثالث: الإقناع

أ- تعريفه

- لغة: قنع بنفسه قنعا وقناعة؛ رضي، ورجل قانع من قوم قُنع، والمقنع بفتح الميم العدل من الشهود، وقنع بالفتح يقنع قنوعا ذلّ للسؤال، وقيل سأل، [وَأَطَعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ]⁽¹⁾، وقيل القانع السائل، وقيل المتعفف، وكل يصلح، والرجل قانع وقنيع.

والإقناع أن يقع البعير رأسه إلى الحوض للشرب وهو مده ورأسه.

والإقناع أن تضع الناقة عثونها في الماء وترفع من رأسها قليلا إلى الماء لتجذبه اجتذابا⁽²⁾.

- اصطلاحا: إن التعريف والمفهوم العلمي للإقناع فهو «عمليات فكرية وشكلية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر وإخضاعه لفكرة ما»⁽³⁾.

إن الإقناع يعتبر رضا، وهذا الرضا يحصل عن طريق تلك العمليات الفكرية والشكلية التي تؤثر على المخاطب، وبالتالي يخضع لفكرة ما، والعلاقة الدلالية التي تربط بين المدلول اللغوي والاصطلاحي هي علاقة تكامل وانسجام، فالإقناع بالمعنى اللغوي

(1)-سورة الحج، الآية: 36.

(2)-ابن منظور، لسان العرب، مادة: قنع، مج8، ص297-299.

(3)-عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ط3، دار العاصمة، السعودية، ص18.

المحطة:.....إيجاز النظم القرآني

هو الرضا بصفة عامة، وبالمعنى الاصطلاحي هو الخضوع لفكرة ما، والخضوع لهذه الفكرة لا يحصل إلا بعد الرضا بها.

فالإقناع هو قبول الفكرة عن طريق المحاجة والمحاورة، لا عن طريق الفرض والإلزام، ومن أهم أساليبه البلاغة والبيان، فالإقناع هو عملية اتصال. وينبغي تجميل الأسلوب، لأن ذلك «يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب»⁽¹⁾.

ب- الأسس التي يقوم عليها الإقناع

إن للإقناع أسسا يقوم عليها، منها: يسر الدين في مضمونه ووضوحه في لفظه ومعناه، ومنها الثراء والتنوع والتطور، ومنها المنطق السليم والاستناد إلى البرهان الصحيح، ومنها الكلمة الطيبة والأسلوب الحسن، وأخيرا التدرج المرحلي أثناء القيام بعملية الإقناع⁽²⁾.

ج- عناصر العملية الإقناعية

إن حدوث العملية الإقناعية يقوم على عدة عناصر، أعني أن العملية الإقناعية لا تتحقق إلا إذا توفرت جملة من العناصر، ويمكن حصر هذه العناصر فيما يلي:

أولاً: المصدر: وهو الطرف الأساسي الذي يبدأ عملية الإقناع بنقل الرسالة إلى الطرف الآخر.

وللمصدر قواعد في نجاح عملية الإقناع منها: الثقة وتحصل بإظهار الاهتمام بمصالح المستقبلين، واختيار الوقت المناسب لتقديم الرسالة.

ومن قواعد المصدر أيضا، المصادقية ثم «مستوى المعرفة والدراية بما يدعو إليه

(1)-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص97.

(2)-ينظر: خالد حسين حمدان، الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، دراسة وصفية تحليلية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ-2005م، ص4-6.

وبما يحاول الإقناع والتأثير به»⁽¹⁾.

ثم إدراك العوامل النفسية للمستقبل، وأن يكون المصدر مقتنعا بما يدعو إليه ولو بعض الشيء.

ثانيا: الرسالة: هي لبّ الحديث الذي يراد الإقناع به، وهي كذلك الموضوع أو فحوى القضية، وهي الشيء المهم والأساسي في عملية الإقناع ولها قواعد، يجب الالتزام بها مثل الوضوح، إذ ينبغي أن تبتعد الرسالة عن الغموض والألغاز.

ومن قواعدها أيضا الشرح واحتواؤها على الجانب الإيحائي، ثم احتواؤها على الأدلة والبراهين والحجج القوية، وبعض الأمثلة التي تقرب الحقائق إلى ذهن المستقبل، وكذلك ضرب الأمثال. أضف إلى ذلك الابتعاد عن المواجهة بالمجادلة، وترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا.

ثالثا: المستقبل: «وهو الطرف الآخر والمنتلقي للرسالة والمتأثر بعمليات الإقناع فيها»⁽²⁾، ولنجاح عملية الإقناع ينبغي أن تراعى للمستقبل القواعد التي بفضلها تتحقق العملية الإقناعية، كالفروق الفردية بين المستقبلين وكالثقافة والتعليم والوضع النفسي والانفتاح الذهني وسعة الخيال وأخيرا البيئة والمجتمع.

رابعا: الهدف: «هو الذي لأجله قامت عملية الإقناع وتحركت فعاليتها ومن الضروري أن يكون هناك هدف يستحق القيام بالإقناع لأجله»⁽³⁾.

فالهدف هو الذي من أجله وقع الخطاب، لأن المخاطب يسعى إلى تحقيق أهداف من خلال خطابه.

خامسا: الوسيلة: وهي تلك الوسائل التي يستخدمها المخاطب لتحقيق إقناع المخاطب.

(1)- عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ص 27.

(2)- عبد الله بن محمد العوش، كيف تقنع الآخرين، ص 93.

(3)- المرجع نفسه، ص 37.

قسمت الدراسات الإقناع إلى ثلاثة أنواع: «نوعين رئيسيين والنوع الثالث يعتمد على سمات تميل إلى أحد النوعين السابقين»⁽¹⁾، وهي:

1- الإقناع المشترك: هذا الإقناع متبادل بين الطرفين، إذ يحدث ويقع بينهما معا، وينبغي أن ينطلق الاثنان من قاعدة واحدة، ويعتمدان على العقل والمنطق، وألا يسيطر أحدهما على الموقف بأساليبه الإقناعية، ويجب أن يشعر الطرفان بحاجتهما إلى بعضهما، كما يجب الابتعاد عن الأسلوب القهري.

2- الإقناع النزالي: وهو الإقناع الذي يكون بين طرفين متساويين ومتعادلين من حيث القوة في عملية الإقناع، ولكن يشعر أحدهما أنه ينبغي أن يسيطر على الموقف، ويفرض نفسه على الآخر، ويستمر النزال حتى يصل أحدهما إلى إقناع الآخر.

3- الإقناع الشمولي: هذا القسم من الإقناع يقوم على عدد من الافتراضات «وتجمع أساليبه بين أساليب النوعين السابقين»⁽²⁾.

د- الإقناع القرآني:

إن القرآن الكريم اعتبر العقل القوة القادرة والصالحة للحكم على الأشياء، والميزان الذي توزن به القضايا وفسادها. ومن ثم فهو منهج المسلم في الحياة، وجعله الله سبحانه وتعالى في صيغته اللغوية خطابا منطقيًا من حيث هو معان متلقاة في لغة يفهمها البشر هي اللغة العربية.

إن موضوع الإقناع هو فعل الصورة الحجاجية، والخطاب القرآني حقق هذا الفعل بواسطة أفعال الكلام المنجزة.

ولقد تفنن القرآن الكريم في أساليب الإقناع واشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة والحجج «فالقرآن في خطابه للناس لا ينحصر في مخاطبة العقول بالبرهان المنطقي أو استعمال الدليل الجدلي، بل إنه يخاطب الوجدان، كذلك والتأثير على العاطفة

(1)-ينظر: المرجع نفسه، ص41.

(2)- عبد الله بن محمد العوشن، كيف تفنن الآخرين، ص44.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

وإيقاظ الفطرة من سباتها، ويوقظ الروح من منامها لأنه من تنزيل العليم الخبير»⁽¹⁾، ولقد زواج بين الترغيب والترهيب والنعيم والعذاب، وضرب الأمثال وسرد القصص بأسلوب رائع وأخاذ، كما عرض الأدلة المنطقية والبراهين العقلية.

هـ-الإقناع بالحديث الشريف

إن السنة الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، ولقد كان رسول الله ﷺ أفصح العرب، وكلامه ذو بلاغة رفيعة «هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها»⁽²⁾.

كيف لا، وهي يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، وقد كان رسول الله ﷺ أبلغ الناس، ولقد تميز كلامه بالإقناع التام، لأن ألفاظه «إن خرجت في الموعظة قُلت: أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت الحكمة قلت صورة بشرية من الروح في منزع يلين فينفر بالدموع ويشتد فينزو بالدماء وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء»⁽³⁾.

فلقد تميزت ألفاظ رسول الله ﷺ بالفصاحة، وتميز كلامه بالتصوير الفني، حيث تخرج الألفاظ في صورة محسوسة، ولقد استخدم جميع أنواع الأدلة والبراهين التي من خلالها يحصل الإقناع، أضف إلى ذلك أن كلامه تميز بالإيجاز إذ قلة الألفاظ مع كثرة المعاني، «هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف... استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي، ورغب في الهجين السوقي»⁽⁴⁾.

ولقد جمع رسول الله ﷺ بين المهابة والحلاوة وحسن الإقناع، وكان لكلامه أثر

(1)-المرجع نفسه، ص177.

(2)-مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص194.

(3)-المصدر نفسه، ص192.

(4)-الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، دط، دت، دار الجيل، بيروت،

ج2، ص16-18.

عظيم في النفوس، كما تميز كلام رسول الله ﷺ بالحوار، ولناخذ نموذجا من الإقناع النبوي، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفثيه [وفي رواية كنفته] فمرّ بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم»، فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما ن صنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم» قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»⁽¹⁾.

المبحث الرابع: البلاغة

أ-تعريفها:

-لغة: جاء في القاموس المحيط «بلغ المكان بلوغا وصل إليه أو شارف عليه وشيء بالغ جيد، وقد بلغ مبلغا وجارية بالغ وبالغة مدركه والبلاغ كسحاب الكفاية والاسم من الإبلاغ والتبليغ وهما الإيصال من بالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد ولم يقصر»⁽²⁾.

-اصطلاحا: البلاغة وصف للكلام والمتكلم فقط، وهي تلك الوسيلة التي يستخدمها المتكلم بغية الوصول إلى غرضه، وقال ابن رشيق «سئل بعض البلغاء ما البلاغة؟ فقال قليل يفهم وكثير لا يسأم وقال آخر البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى... وسئل آخر فقال: معان كثيرة في ألفاظ قليلة، وقيل لأحدهم ما البلاغة؟ فقال إصابة المعنى وحسن الإيجاز... وقيل لبعضهم ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إيفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة، وقال آخر: البلاغة أن تفهم المخاطب بقدر فهمه من غير تعب عليك... وقيل البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام»⁽³⁾. وذهب الرماني^(*) إلى

(1)-مختصر صحيح مسلم عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص624.

(2)-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ص797.

(3)-ابن رشيق، العمدة، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج1، ص242-245.

(*)-الرماني: هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني اللغوي المتكلم، توفي سنة 384هـ، وقيل سنة 382هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، دت، م3، ص299.

المحطه:.....إعجاز النظم القرآني

تقسيم البلاغة إلى ثلاثة طبقات منها: ما هو في أعلى طبقة، فهو معجز وهو بلاغة القرآن، ومنها في الوسائط وهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وأعلى طبقات البلاغة، للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم⁽¹⁾.

سبق أن ذكرت في البداية أن البلاغة وصف للكلام والمتكلم فبلاغة الكلام هي «مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال هو الاعتبار المناسب أما بلاغة المتكلم فهي «ملكة يقدر بها على تأليف كلام بليغ»⁽²⁾.
وللبلاغة طرفان: أعلى إليه تنتهي، وهو حد الإعجاز وما يقرب منه وأسفل منه تبتدئ.

ب- بلاغة القرآن المعجزة

إن نبوة سيدنا محمد μ معجزتها القرآن الكريم، والمعجزة «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة وهي إما حسية وإما عقلية»⁽³⁾. فالأمر الخارق للعادة هو الذي لم يعرف من قبل.

وقيل أن المعجزة هي «ما يدل على تصديق الله تعالى للمدعي في دعواه الرسالة، أو هي تأييد الله مدعي النبوة بما يؤيد دعواه ليصدق المرسل إليه»⁽⁴⁾.

فلفرط ذكاء هذه الأمة وكمال أفهامها أيدت بالمعجزة العقلية، وكذلك لكون هذه الشريعة باقية على صفحات الدهر خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها نوار البصائر⁽⁵⁾.
قال عليه الصلاة والسلام «ما من الأنبياء من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم

(1)-ينظر: الرماني والخطابي وعبد القاهر، تح وتعليق: محمد خلف الله، محمد زغول سلام، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط4، دار المعرفة، دت، ص75-76.

(2)-ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: غريد الشيخ محمد، إيمان الشيخ محمد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، ص14.

(3)-ينظر: السيوطي، إتقان في علوم القرآن، ج1، ص464.

(4)-فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط6، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ص20.

(5)-ينظر: السيوطي، إتقان في علوم القرآن، ج1، ص464.

القيامة»⁽¹⁾.

فمعجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، فقد جاء القرآن ببلاغة عظيمة لم تعرفها العرب.

فالقرآن الكريم عجيب النظم والتأليف ولم يستطع ناظم أو ناثر أن يأتي بمثل القرآن إنسا كان أوجنا قال تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]⁽²⁾.

«إن القرآن في أعلى درجات البيان من حيث لفظة ومن حيث نعماته، ومن حيث مغازيه، ومن حيث الصور البيانية التي تكون في ألفاظه وعباراته حتى أن كل عبارة تلقي في الفكر والخيال بصورة بيانية كاملة في روعتها ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية كاملة في روعتها ودقة تصويرها، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية تتبثق منها منفردة، وبتأخيها مع أخواتها في العبارة تتكون صورة بيانية أخرى، فوق أن الرنين الموسيقي تنفعل به الأسماع إلى القلوب في معان محكمة، وحقائق بيينة، وشرائع منظمة العلاقات والسلوك الإنساني القويم الهادي إلى الصراط المستقيم»⁽³⁾.

قال الله تعالى: [قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]⁽⁴⁾. وقال: [يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ]⁽⁵⁾.

ثبت أنه تحداهم إليه ولم يأتوا بمثله «وفي هذا أمران أحدهما التحدي إليه، والآخر

(1)-المنذري: مختصر صحيح مسلم، ص19.

(2)-سورة البقرة، الآية: 23-24.

(3)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص64.

(4)-سورة الإسراء، الآية: 88.

(5)-سورة الطور، الآية: 33-34.

أنه لم يأتوا له يمثل»⁽¹⁾.

إن انبهار العرب ببلاغة القرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله حجة عليهم في صدق نبوة الرسول ﷺ وفي كون القرآن كلام العلي القدير قال الباقلاني: «فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه»⁽²⁾.

ويرى الخطابي أن عمود بلاغة القرآن «هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي أبدل مكانه غيره جاء فيه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني بحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب»⁽³⁾. ومجمل القول فإن بلاغة القرآن معجزة يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها، ولها أثر عظيم على النفس.

والقرآن الكريم معجزة بيانية لسائر الناس ولا يستطيع أحد أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية.

ج-النظم:

تعريف لغة: «النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، والمنظوم والجماعة من الجراد، وثلاثة كواكب من الجوزاء والثريا والدبران، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ونظمه ألفه. وجمعه في سلك، فاننظم وتنظّم وانتظمه بالرمح: اختله. والنظام كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ككتب، وملاك الأمر: أنظمة وأناظيم ونظم، والسيرة والهدي والعادة ونظاما السمكة والضب»⁽⁴⁾.

فالنظم هو التأليف الذي يضم مجموعة من العناصر اللغوية المتحدة في العملية

(1)-السيوطي، الإتيان وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، ج2، ص602.

(2)-السيوطي، الإتيان وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، ج2، ص606.

(3)-الرماني والخطابي والجرجاني، ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن، ص29.

(4)-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص1172.

المصطلح:.....إيجاز النظم القرآني

اللغوية ليكون الكلام حسنا، كحسن الاختيار لأصوات الكلمة، وتعليق الكلمة في ذاتها، وتعليقها بما يجاورها وليس ضم الكلمات كيفما جاء.

ومراعاة الموقع النحوي الأصيل حسب ما تقضيه بيئة العربي، ومراعاة المعنى المباشر السطحي (غير المنزاج) والمعنى غير المباشر (المنزاج)⁽¹⁾.

لما كان النظم هو التأليف وضم شيء إلى آخر، أطلق هذا المصطلح على الكلام الذي ألفاظه مرتبة في النطق، وتحمل معان مرتبة في الذهن، فتزيد المخاطب إفهاما وإقناعا.

إذا نظرنا إلى أقوال أساطين البيان ودهاقين الكلام في معنى البلاغة، وجدنا تعاريفهم تدور كلها حول فكرة النظم.

وأنهم يرون أن البلاغة هي النظم على اختلاف تعاريفهم وأقوالهم.

فنظم الكلام يعني ترتيب الألفاظ بحسب المعاني، ولقد تحدث فيه علماء كثيرون.

د-منابع فكرة النظم:

لم يظهر مصطلح النظم في العصر الجاهلي بحكم أن العرب كانوا سليقيين وفصحاء وكانت اللغة العالية هي السائدة، وكان النظم عندهم يظهر في تميز الشاعر عن الآخر.

فقالوا: «أمرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابعة إذا رهب وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب»⁽²⁾.

ولما نزل القرآن جاء بنظم عجيب وتأليف بديع، كلام عربي وبلسان عربي مبين إلا أن نظمه لم يظهر من قبل ولن يظهر من بعد، فألفت الانتباه وأبهر الفحول وأعجز

(1)-ينظر: صالح بالعيد، نظرية النظم، دط، دار هممه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص93.

(2)-أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد الجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1986، ص23.

القروم.

«عندما تحدى القرآن الكريم العرب أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه وعجزوا عن ذلك ضاع صوابهم وضربوا أخماسا في أسداس من حيرتهم لأنهم لم يستطيعوا مجازة القرآن الكريم في بلاغته وهم أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة وسادة الكلام. ووصفوا القرآن الكريم تارة بأنه شعر وتارة أخرى بأنه سحر»⁽¹⁾.

والحق أن القرآن الكريم ليس شعرا، وليس سحرا فقد أقسم الله تعالى للعرب في محكم كتابه قائلا لهم: [فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ]⁽²⁾.

لقد ثبت العجز ولم يستطع عربي أن ينظم كلاما كنظم القرآن، ووقع التحدي للنقلين.

فبعد أن ثبت هذا وذاك جاء إبراهيم النظام بمقولة خبيثة، ألا وهي القول بالصرفة، والتي مفادها أن القرآن معجز بالصرفة فما إن قال النظام هذه المقولة إذ شمر العلماء عن سواعدهم، وراحوا يبحثون في قضية إعجاز القرآن.

ولقد تحدث عن النظم علماء كثيرون، وهذا بعد البحث في إعجاز القرآن الكريم، ونشأ الحديث عن النظم في جوّ من الخلافات والخصومات حول قضية اللفظ والمعنى.

(1) -حسن إسماعيل عبد الرزاق، النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، ط1، دار الطباعة المحمدية، مصر، ص60.

(2) -سورة الحاقة، الآيات: 38-42.

الفصل الأول:

وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

مقدمة

- المبحث الأول: التشبيه في سورتى البقرة والأنعام ودوره في الإقناع
- المبحث الثاني: الاستعارة في سورتى البقرة والأنعام ودورها في الإقناع
- المبحث الثالث: المجاز في سورتى البقرة والأنعام ودوره في الإقناع
- المبحث الرابع: الكناية في سورتى البقرة والأنعام ودورها في الإقناع

مقدمة

إن الأسلوب البياني من الأساليب التي تعد وسيلة من وسائل الإقناع. ووسائل التصوير البياني على أوجه عدة منها التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، وكل واحدة تعد وسيلة من وسائل التصوير البياني، ولما كان التصوير البياني يقوم على التشخيص والتقريب والإيضاح عدّ أسلوباً من أساليب الإقناع، أضف إلى ذلك أن الأسلوب البياني قد يؤدي المعنى الواحد بأساليب مختلفة، وهذا له أثر فعال على إقناع المتلقين، ولقد حفل القرآن الكريم بالتصوير البياني «والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية»⁽¹⁾، فالمعاني في التصوير القرآني تصبح شاخصة متحركة، وهذا بغية إقناع المخاطبين، إذ يحصل الإقناع عن طريق الوجدان.

تعريف البيان:

البيّن في كلام العرب جاء على وجهين، يكون البيّن الفرقة ويكون الوصل، بان يبين بينا وبينونة وهو من الأضداد، والمباينة المفارقة، وتباين القوم تهاجروا، وتباين الرجلان بان كل واحد منهم عن صاحبه، وكذلك في الشركة إذا انفصلا. بانّت المرأة من زوجها؛ أي انفصلت عنه ووقع عليها طلاقه.

والبيان: ما بيّن به الشيء من الدلالة وغيرها، وبيان الشيء بيانا؛ اتضح، فهو بيّن والجمع أبييناء، مثل هين وأهين وكذلك أبان الشيء فهو مبين، وأبنته أناح أي أوضحته، واستبان الشيء ظهر، واستبنته أنا عرفته، وتبيّن الشيء ظهر، والتبيين: الإيضاح، والتبيين أيضا الوضوح، والبيان: الفصاحة واللسن، وكلام بيّن فصيح، والبيان الإفصاح مع ذكاء.

(1) -سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط10، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص36.

البيان: إظهار المقصود بأبلغ فضل وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسان، وأصله الكشف والظهور⁽¹⁾.

تعريفه اصطلاحاً: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصله، كأننا ما كان ذلك البيان... فبأي اسم بلغت الإفهام وأوضح عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»⁽²⁾.

إن البيان هو الكشف عن المعاني وإفهامها لدى المخاطب، حيث تصل مفهومة وواضحة ومجردة عن السنائر والحجب، فهو إيصال وإيضاح وإزالة إبهام.

المبحث الأول: التشبيه ودوره في الإقناع

أ- تعريفه:

لغة: الشبه والتشبه والتشبيه: المثل والجمع أشباه، وأشبه الشيء ماثله وفي المثل من أشبه أباه فما ظلم، والمشبهات من الأمور المشكلات والمشابهات المتماثلات وشبه فلان بكذا، والتشبيه: التمثيل⁽³⁾.

اصطلاحاً: لقد تعددت تعاريف العلماء للتشبيه منها "هو إلحاق شيء بآخر، بينهما صفة مشتركة، أو هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى ما من المعاني"⁽⁴⁾.

والمقصود بالمشاركة هو ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية نحو رأيت أسداً في الحمام ولا على وجه الاستعارة بالكناية نحو "أنشبت المنية أظفارها" ولا على وجه التجريد نحو لقيت يزيد أسداً، "فإن في هذه الثلاثة دلالة على مشاركة أمر لآخر في

(1)-ابن منظور، لسان العرب، مادة بَيَّن، ج13، ص62-69.

(2)-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

(3)-ابن منظور، لسان العرب، مادة: الشبه، ج13، ص503.

(4) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002، ص135.

معنى، مع أن شيئاً منها لا يسمى تشبيهاً في الاصطلاح⁽¹⁾.

والمراد بقوله: " لا يسمى تشبيهاً في الاصطلاح" أي أنه لا يطلق عليه مصطلح التشبيه المتعارف عليه عند علماء البيان، وإنما جاز إطلاقه عليه بالمعنى اللغوي، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا لا يسمى تشبيهاً في الاصطلاح؟.

لا يسمى تشبيهاً في الاصطلاح لأن أحد طرفيه محذوف والتشبيه يجب أن يذكر طرفاه.

ومن تعاريف التشبيه أيضاً هو: «عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم»⁽²⁾.

أي أن هناك مشابهة بين المشبه والمشبه به وقصد اشتراكهما في صفة أو أكثر، وعليه يمكن القول: إن التشبيه هو إسناد أمر لأمر في معنى مشترك بأداة وبغرض معين. وللتشبيه مزايا منها، إخراج الخفي إلى الجلي وإدناء البعيد من القريب، كما أن له روعة وجمالاً وموقفاً حسناً في البلاغة وله شرف عظيم، «فاعلم أنه اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة أمره في فن البلاغة وأن تعقيب المعاني به، يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذمًا أو افتخارا أو غير ذلك»⁽³⁾. وأضف إلى ذلك أنه عامل من عوامل الإقناع إذ يساعد على إقناع السامع وذلك بتقريب المعاني وتجسيدها.

كما أن له فائدة عظيمة تكمن في " إيضاح المعنى المقصود مع الإيجاز والاختصار"⁽⁴⁾، وكذلك إخراج النفس مما لم تألفه إلى ما تألفه (ما) وما يحصل لها

(1) - التفقازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح ومعه حاشية العلامة السيد الشريف الجرجاني، تحقيق: أحمد عزو، عنابة، ط1، 2004م، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، ص 519.

(2) - السيد أحمد هاشمي سليمان الصالح، جواهر البلاغة، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2005م، ص 225.

(3) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 147.

(4) - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1986، ص 253.

بالانتقال مما تعلمه إلى ما هي به وأركان التشبيه أربعة⁽¹⁾.

1-المشبه: هو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره.

2-المشبه به: هو الأمر الذي يلحق به المشبه.

هذان الركنان يسميان طرفي التشبيه:

3-وجه الشبه: هو الوصف المشترك بين الطرفين، ويكون في المشبه به أقوى منه

في المشبه، وقد يذكر وجه الشبه في الكلام، وقد يحذف.

4-أداة التشبيه: هي اللفظ الذي يدل على التشبيه، ويربط المشبه بالمشبه به، وقد

تذكر الأداة في التشبيه وقد تحذف.

ب-تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين:

ينقسم التشبيه^(*) باعتبار طرفيه إلى: حسي وعقلي ومختلف.

1-تشبيه المحسوس بالمحسوس: وهو أن يكونا الطرفان حسيين مدركين بإحدى

الحواس الخمس الظاهرة يقول امرؤ القيس^(**) (2):

قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَعِرْفَانٍ وَرَسْمٍ عَفَّتْ آيَاتُهُ مِنْذُ أَرْمَانَ
أَنْتَ حَجَجٌ^(***) بَعْدِي عَلَيْهَا فَأَصْبَحْتَ كَخَطِ زَيْوَرٍ فِي مَصَاحِفِ رُهْبَانَ.

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 225.

(*) - بالنسبة لتقسيمات التشبيه فقد تبينيت تقسيمات المراغي، في كتابه علوم الباطنة، ص 272-288. والسيد هاشمي

في كتابه جواهر البلاغة، ص 227-253. والخطيب القزويني في كتابه الإيضاح، ص 151-185.

(**) - هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يعرف بالملك الضليل لاضراب أمره طول حياته، وذي القروح لما أصابه في مرض موته، مات في أنقرة. الزركلي، الأعلام، مج2، ص 11-12.

(2) - ديوان امرئ القيس، شرح الدكتور عمر فاروق الطباع، شركة دط، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، دت، ص 145.

(***) - حجج: جمع حجة، وهي السنة. الفيروز آبادي، قاموس المحيط، ص 209.

وقال في قصيدة أخرى⁽¹⁾:

لَمَنْ طَلَّ أَبْصَرَتْهُ فَشَجَانِي كَخَطِ زُبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانٍ

إن كلا من الأطلال وخط زبور حسيان إذ شبه المحسوس بالمحسوس، فكل من المشبه والمشبه به حسيان يدركان بالعين التي هي إحدى الحواس الخمس. وكذلك كتشبيه الخد بالورد، والفيل بالجبل والمرأة بالشمس ونحو ذلك وهذا النوع من التشبيه يسمى عند الجرجاني ما "لا يحتاج فيه إلى تأويل"⁽²⁾. فطرفا التشبيه الحسيان يدركان هما أو مادتهما بإحدى الحواس الخمس.

2- تشبيه المعقول بالمعقول: ويكون طرفا التشبيه في هذا النوع مدركين بالعقل لا بالحس أي لا يدركان هما أو مادتهما بإحدى الحواس الخمس، وذلك كتشبيه العلم بالحياة أو الضلال عن الحق بالعمى أو الجهل بالموت.

3- تشبيه المحسوس بالمعقول: وهو أن يكون المشبه محسوسا والمشبه به معقولا مثل طيبب السوء كالموت، وكقول عنتره^(*):

أَنَا الْمَوْتُ إِلَّا أَنِّي غَيْرُ صَابِرٍ عَلَى أَنْفُسِ الْأَبْطَالِ وَالْمَوْتُ يَصْبِرُ⁽³⁾.

فالمشبه به حسي أما المشبه فعقلي.

وهناك من علماء البيان من لم يجوز تشبيه المحسوس بالمعقول و«قيل إن تشبيه المحسوس بالمعقول غير جائز، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها»⁽⁴⁾.

(1)-ديوان امرئ القيس، ص 147.

(2)- الإمام عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الإسكندراني، ط2، دار الكتاب العربي، 1998، ص 74.

(*)- هو عنتره بن شداد وقيل ابن عمرو بن شداد وقيل عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية بن فراد أحد فرسان العرب المشهورين وشاعر جاهلي من أصحاب المعلقات. الزكلي، الأعلام، مج5، ص91.

(3)-ديوان عنتره، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص66.

(4)- التفتازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح، ص520.

وهذا مذهب الخطيب القزويني في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة" و"تلخيص المفتاح" وذهب أكثر علماء البلاغة والبيان إلى عكس ذلك، وعمدوا إلى تجويز هذا النوع من التشبيه منهم المراغي وأحمد هاشمي وغيرهما.

4- تشبيه المعقول بالمحسوس: وهو أن يكون المشبه عقليا والمشبه به حسيا، نحو العلم كالنور.

والعقلي هو ما عدا الحسي، فيشمل المحقق ذهنيا كالرأي والخلق والحظ والأمل والعلم والذكاء والشجاع، ويشمل أيضا الوهمي والوجداني⁽¹⁾.

ج- تقسيم طرفي التشبيه باعتبار تعددهما:

عند تعدد الطرفين ينتج تشبيهان أو أكثر وينقسم طرفا التشبيه باعتبار تعددهما أو تعدد أحدهما " إلى أربعة أقسام ملفوف ومفروق وتسوية وجمع"⁽²⁾.

1- التشبيه الملفوف: وهو جمع كل طرف منهما مع مثله، كجمع المشبه مع المشبه، والمشبه به مع المشبه به، بحيث يؤولي بالمشبهات معا على طريق العطف، أو غيره، ثم يؤولي بالمشبهات بها⁽³⁾، كقول امرئ القيس⁽⁴⁾:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَىٰ وَكُرْهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي.

فالشاعر شبه الرطب من قلوب الطير بالعناب، وشبه اليايس العتيق منها بالحشف البالي: وفضيلة هذا الضرب من التشبيه اختصار اللفظ، وحسن الترتيب.

2- والتشبيه المفروق: وهو أن يؤولي بمشبه ومشبه به، ثم بآخر وآخر ويسمى

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص228.

(2) - المرجع نفسه، ص230.

(3) - ينظر: المرجع نفسه، ص 230.

(4) - أحمد مصطفى المراغي، ص26.

تشبيها مفروقا كقول ابن سكرة^(*):

الخدُ وُردٌ والصدغُ غاليَةٌ والرِيقُ خَمْرٌ والثَغْرُ كالدُّرِ⁽¹⁾.

3- تشبيه التسوية: تشبيه التسوية هو: أن يتعدد المشبه دون المشبه به⁽²⁾.

كقول الشاعر⁽³⁾:

صدغُ الحبيبِ وحالي كلالهُمَا كَالليالي
وثغْرُهُ في صَفَاءِ وأدْمَعِي كَالآلي.

فقد شبه في البيت الأول صدغ الحبيب وهو الشعر البادي من الرأس فيما بين الأذن والعين، وحاله بالليالي، وشبه في البيت الثاني ثغر الحبيب وهو مقدم أسنانه ودموعه بالآلي في القدر والصفاء والإشراق⁽⁴⁾.

4- تشبيه الجمع: والمقصود بتشبيه الجمع هو: أن يتعدد المشبه به دون

المشبه⁽⁵⁾، كقول البحرني^(**):

بَاتَ نَدِيمًا لِي حَتَّى الصَّبَاحِ أُعِيدَ مُجْدُولَ مَكَانِ الوِشَاحِ
كَأَنَّمَا يَضْحَكُ عَن لَوْلُؤُ مُنْضَمِّ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقَاحِ⁽⁶⁾.

«سمي بتشبيه الجمع، للجمع فيه بين ثلاثة مشتبهات»⁽⁷⁾ وتشبيه التسوية سمي

^(*)- ابن سكرة، هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي، من ذرية المنصور، شاعر وقته ببغداد، مات سنة 385هـ في ربيع الأخير. (الذهبي، سير أعلام النبلاء ج10، ص292).

⁽¹⁾- لم أعثر على ديوانه.

⁽²⁾- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص230.

⁽³⁾- لم أقف على اسم الشاعر، ولم أعثر على ديوانه.

⁽⁴⁾- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص261.

⁽⁵⁾- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص231.

^(**)- البحرني: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شمال بن جابر بن سلمة بن مسهد بن الحارث بن

بحتر الطائي، الشاعر المشهور، توفي سنة 199هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج6، ص21-30.

⁽⁶⁾- ديوان البحرني، دط، دار صادر، بيروت، مج2، ص279.

⁽⁷⁾- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص231.

بذلك «تسوية فيه بين المشبهات»⁽¹⁾.

د- تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه:

سبق وأن ذكرت أقسام التشبيه التي هي المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه، وذكرت أقسام التشبيه باعتبار طرفيه (المشبه والمشبه به).

وسأتطرق إلى أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه، و«وجه الشبه هو الوصف الخاص الذي يقصد اشتراك الطرفين فيه»⁽²⁾.

مثل الوفاء في نحو زيد كالسموأل، والبخل في نحو عمرو كمدار، ونحو أخلاقه كالعنبر، والوصف الخاص قد يكون حقيقة أو تخيلاً. ولا سبيل إلى التطرق إلى أقسام وجه الشبه وإنما يمكن الاكتفاء بتقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه، وينقسم التشبيه باعتبار الوجه إلى :

1- تشبيه التمثيل: «وهو ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا من متعدد حسيا كان أو غير حسي»⁽³⁾ مثال ذلك قول الحق تبارك وتعالى: [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.....]⁽⁴⁾.

إن تشبيه حال المنافقين بحال الموصوف بصلة الموصول في الآية، في أمر حقيقي منتزع من متعدد، وهو الطمع في حصول مطلوب، لمباشرة أسبابه القريبة، مع تعقب الحرمان والخيبة، لانقلاب الأسباب⁽⁵⁾.

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 230.

(2) - المرجع نفسه، ص 237.

(3) - المرجع نفسه، ص 238.

(4) - سورة البقرة، الآية 17.

(5) - ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 183.

2- تشبيه غير التمثيل:

التشبيه غير التمثيل: «هو ما لم يكن وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد»⁽¹⁾
مثل زيد كالسيف في المضاء، وخدها كالورد في الحمرة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما هو الفرق بين التشبيه والتمثيل؟ هناك فرق بين التشبيه والتمثيل وهو أن «التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً»⁽²⁾.

إن التشبيه أشمل وأعم من التمثيل، فالتمثيل يندرج ضمن التشبيه، أما التشبيه فلا يندرج ضمن التمثيل، ويمكن القول أن التمثيل جزء من التشبيه. و«للتمثيل موقعان»⁽³⁾.
أما الأول فيفتتح به الكلام فيكون قياساً موضحاً وبرهاناً مصاحباً وهو كثير جداً في القرآن الكريم نحو [مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ...] ⁽⁴⁾

والثاني ما يجيء بعد تمام المعاني لإيضاحها وتقريرها فيشبه البرهان الذي تثبت به الدعوى كقول أبي العتاهية^(*):

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسَلِكِ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ⁽⁵⁾

3-المفصل: "وهو ما ذكر فيه وجه الشبه أو ملزومه" أي ما يذكر فيه وجه الشبه أو ما يستلزمه مثل طبع فريد كالنسيم رقة ويده كالبحر جوداً وكلامه كالذر حسناً وألفاظه

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص238.

(2) - الإمام عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 78.

(3) - المراغي، علوم البلاغة، ص269.

(4) -سورة البقرة: الآية:261.

(*)-أبي العتاهية: هو أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم، ابن سويد بن كيسان العنزي، مولاهم الكوفي، نزيل بغداد، لقب بالعتاهية لاضطراب فيه، توفي سنة 211هـ وقيل 213هـ. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7، ص90).

(5) -ديوان أبي العتاهية، دط، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص230.

كالعسل حلوة⁽¹⁾.

4-المجمل: «وهو ما لا يذكر فيه وجه الشبه، ولا ما يستلزمه»⁽²⁾.

معناه: التشبيه الذي افتقر إلى وجه الشبه أو أحد مستلزماته مثل: النحو في الكلام كالمح في الطعام، فليس هناك وجه الشبه أو ما يستلزمه، والمراد بهذا القول هو ضرورة النحو في الكلام كضرورة الملح في الطعام، وليس المراد أن قليل النحو كاف كقليل الملح في الطعام، إذ لا يجوز العبث باللغة العربية كنصب فاعل أو رفع حال وغيرهما.

ذهب الخطيب⁽³⁾ في الإيضاح إلى تقسيم المجمل إلى ما هو ظاهر يفهمه كل أحد مثل زيد كالأسد وإلى ما هو خفي لا يدركه إلا من له ذهن يرتفع به عن طبقة العامة، مثل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها.

ومنه أيضا ما لم يذكر فيه وصف المشبه، ولا وصف المشبه به ومنه ما ذكر فيه وصف المشبه به وحده.

5-قريب مبتدل: «وهو ما كان ظاهر الوجه ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به، من غير احتياج إلى شدة نظر وتأمل، لظهور وجهه بادئ الرأي»⁽⁴⁾. وهو التشبيه الذي يظهر فيه كل من المشبه والمشبه به دون تأمل أي يظهر كل منهما ظهورا واضحا وكذلك الحال بالنسبة لوجه الشبه مثل تشبيه الخد بالورد في الحمرة، وأما سبب ظهوره فأحد أمرين إما:

-لكونه أمرا جمليا لا تفصيل فيه:

-وأما لكونه قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبه به الذهن⁽⁵⁾.

(1)-ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص239.

(2)- المرجع نفسه، ص239.

(3)-ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 173-174.

(4)- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص239.

(5)-ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص272-273.

6- بعيد غريب: وهو ما احتاج في الانتقال من المشبه به إلى فكر وتدقيق نظر، لخباء وجه بادئ الرأي⁽¹⁾. وهو التشبيه الذي يحتاج إلى فكر وتمعن وتدقيق نظر في الانتقال من المشبه إلى المشبه به وذلك لخباء وجهه بادئ الرأي.

وسبب خفاء الوجه أحد أمرين إما:

لكونه كثير التفصيل مثل: والشمس كالمرآة في كف الأشل أو ندور حضور المشبه به في الذهن⁽²⁾.

هـ- تقسيم التشبيه باعتبار أدواته.

ينقسم التشبيه باعتبار أدواته إلى:

1- التشبيه المرسل: وهو ما ذكرت أدواته⁽³⁾ كقوله تعالى: [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا....]⁽⁴⁾ وقوله عز وجل: [سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ....]⁽⁵⁾.

2- التشبيه المؤكد: وهو ما حذف منه الأداة⁽⁶⁾ كقوله تعالى: [وَهِيَ تَمُرٌّ مَرَّ السَّحَابِ....]⁽⁷⁾.

3- التشبيه البليغ: هو ما ذكر فيه الطرفان فقط وحذف منه الوجه والأداة⁽⁸⁾.

فالتشبيه البليغ هو التشبيه الذي يكون فيه وجه الشبه قليل الظهور، يحتاج في إدراكه إلى أعمال الفكر، وذلك أعمل في النفس لأن الشيء المدرك بعد طول اشتياق

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 240.

(2) - ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 273.

(3) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 184.

(4) - سورة البقرة، الآية: 17.

(5) - سورة الحديد، الآية 21.

(6) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 183.

(7) - سورة النمل، الآية 88.

(8) - احمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 277.

يكون كسبه ألقى وأعمق وأدق وأدعى إلى تأثر النفس واهتزازها، وسبب هذه التسمية أن ذكر الطرفين فقط يوهم اتحادهما وعدم تفاضلها، فيعلو المشبه إلى مستوى المشبه به، وهذه المبالغة في قوة التشبيه⁽¹⁾.

ومثال التشبيه البليغ قول امرئ القيس:

يَغْطُ غَطِيْطَ الْبَكْرِ خِنَافُهُ لِيَقْتُنِّي وَالْمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالٍ⁽²⁾.

و-تشبيه على غير طرقة الأصلية.

1-التشبيه الضمني: وهو التشبيه الذي يفهم من معنى الكلام وسياق الحديث أي تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة⁽³⁾. فيفهم كل منهما من المعنى.

مثال ذلك قول أبي فراس^(*):

سَيَذْكُرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدْهُمُ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ⁽⁴⁾.

فانظر إلى التشبيه وكم هو دقيق، فالشاعر شبه غيابه عن قومه بغياب البدر في الليلة الظلماء، فحاجة قومه إليه كحاجة الليلة الظلماء إلى البدر.

2-التشبيه المقلوب: قد يعكس التشبيه، فيجعل المشبه مشبها به وبالعكس. فتعود فائدته إلى المشبه به، لادعاء أن المشبه أتم وأظهر من المشبه به في وجه الشبه ويسمى

(1)-ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص246.

(2)-ديوان امرئ القيس، ص124.

البيت من قصيدة مطلعها:

ألا عم صباحا أيها الظل البالي وهل يعمت من كان في العصر الخالي.

(3)- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص249.

(*)-أبو فراس: هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني، ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة، ابني حمدان، كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما ومجدا وبلاغة وبراعة، قتل سنة 357هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص58-61.

(4)-ديوان أبي فراس الحمداني، شرح: عباس عبد الستار، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003، ص67.

ذلك بالتشبيه المقلوب أو المعكوس⁽¹⁾.

هذا النوع من التشبيه معكوس فيكون المشبه مشبها به، والمشبه به مشبها، فوجه الشبه يرجع إلى المشبه به كقول البحتري في وصف بركة المتوكل:

كَأَنَّهَا حِينَ لُجَّتْ فِي تَدْفُقِهَا يَدُ الْخَلِيفَةِ لَمَّا سَالَ وَادِيهَا⁽²⁾.

وكقوله تعالى حكاية عن الكفار [إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا....]⁽³⁾ في مقام أن الربا مثل البيع عكسوا ذلك لإيهام أن الربا عندهم أحل من البيع، لأن الغرض الربح وهو أثبت وجودا في الربا منه في البيع، فيكون أحق بالحل عندهم⁽⁴⁾، فهذا التشبيه مظهر من مظاهر الإفتتان والإبداع.

ز- أدوات التشبيه:

إن أدوات التشبيه عبارة عن ألفاظ تدل على المماثلة كالكاف، وكان، ومثل، وشبه وغيرها، وأيضا مما يؤدي معاني التشبيه كيحكي، وبضاهي، وبضارع، ويمائل، ويساوي وكذا أسماء فاعلها.

وأدوات التشبيه بعضها اسم وبعضها فعل وبعضها حرف وهي إما ملفوظة وإما ملحوظة.

وقد يغني عن أداة التشبيه فعل يدل على حال التشبيه، فإن لليقين أفاد قرب المشابهة، لما فيه من الدلالة على تيقن الإتحاد وتحققه، وإن كان للشك أفاد بعدها لما فيه من الإشعار بعدم التحقق⁽⁵⁾.

ح- دور التشبيه في الإقناع:

(1)- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 249، 250.

(2)- ديوان البحتري، مج 1، ص 36.

(3)- سورة البقرة، الآية 275.

(4)- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 250.

(5)- ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 243-244.

إن للتشبيه دورا فعالا في إقناع المخاطبين ويتمثل هذا الدور في تقريب المعاني إلى الأذهان بغية حصول الإفهام والتوصيل فالمخاطب بحاجة إلى البيان والإيضاح مع الإيجاز والاختصار وهذا هو الغرض من التشبيه، إذ أن للتشبيه مساهمة كبيرة في الإقناع وذلك برجوع الغرض منه إلى المشبه، وهذا الرجوع إما:

1- لبيان حال المشبه: وذلك حينما يكون مبهما، فيفيده التشبيه الوصف ويوضحه المشبه به، أي لما يكون غير معروف الصفة، قبل التشبيه.

2- أو بيان إمكان حاله: وذلك حين يسند إليه أمر مستغرب لا تزول غرابته إلا بذكر شبيه له ليثبت في ذهن السامع ويحصل إقناعه.

3- أو بيان مقدار حال المشبه في القوة والضعف، وذلك بيان مقدار نصيب المشبه من الصفة التي هو بها معروف معرفة إجمالية قبل التشبه، كقول الأعشى ميمون:

كَأَنَّ مَشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرَّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثَ وَلَا عَجَلٍ⁽¹⁾.

وكتشبيه الماء بالتلج في شدة البرودة، وكقول عنتره:

فِيهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلْوِيَّةً سُودًا كَخَافِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ⁽²⁾.

إن لبيان مقدار حال المشبه زيادة في إقناع المخاطب إذ يوضح صفة المشبه في القوة والضعف ويعطيه الصورة الكاملة كي يتجلى المعنى ويظهر.

4- أو تقرير حال المشبه في نفس السامع وتمكينه في ذهنه بإبرازها فيما هي أظهر وأقوى «ويكثر في تشبيه الأمور المعنوية بأخرى تدرك بالحس»⁽³⁾، وهذا ما يزيد معنى إيضاحا وإقناعا للمخاطب مثل هل عمر الصبا إلا أصيل أو سحر؟

5- أو بيان إمكان وجود المشبه: وذلك لما يكون غريبا، فالمشبه به يزيل غرابته،

(1) - أحمد أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، ت: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 2002، ص 202.

(2) - ديوان عنتره، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص 119.

(3) - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 279.

وإزالة الغرابة واللبس وهذا سبيل من سبل إقناع المخاطبين، وطريق من طرق توضح المعاني وإثبات الصفات في النفوس.

6- أو مدح المشبه وتحسين حاله: بغية الترغيب فيه أو التعظيم له، وذلك بتصويره بصورة «تهيج في النفس قوى الاستحسان، بأن يعمد المتكلم إلى ذكر مشبه به معجب قد استقر في النفس حسنه وحبه، فيصور المشبه بصورته»⁽¹⁾ وذلك بغية تقريب المعاني وثبوتها في النفس كي يحصل إقناع المخاطبين.

7- «استطرافه وجعله مستحدثا بديعا إما لإبرازه في صورة ما يمتنع عادة، وإما لندور حضور المشبه به في النفس عند حضور المشبه»⁽²⁾.

فهذا أو ذاك كله دال على المعنى مقرب له ومصوره في الذهن حتى يقع في النفس ويكون الشغف به أجدر.

8- أو تشويه المشبه وتقبيحه، وذلك بغية التنفير والتحقير حيث يصور بصورة تمجها النفس ويشمئز منها الطبع وهذا مما يزيد في إقناع المخاطبين بالتنفير والبعد عما هو بشع وقبيح.

وللتشبيه أثر عظيم في النفس وذلك عن طريق الإيضاح، قال صاحب الصناعتين: «التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ولم يستغن أحد عنه»⁽³⁾ فالمتكلمون اعتمدوا على التشبيه في إقناعهم خصومهم، إذ أن له دورا هاما في الإقناع وذلك لأن «للخيال نصيبا كبيرا فيه، فهو يفتن حتى لا يقف عند غاية، وأنه يعمل عمل السحر في إيضاح المعاني وجلاتها، فهو ينتقل بالنفس من الشيء الذي تجهله، إلى شيء قديم الصحبة، طويل المعرفة»⁽⁴⁾، لذلك كان له النصيب الأوفر والحظ الأتم في الإقناع.

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 248.

(2) - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 280.

(3) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 243.

(4) - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 285.

دراسة نماذج تطبيقية من التشبيه في سورتي البقرة والأنعام ودوره في

الإقناع

النموذج الأول:

قال تعالى: [خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ....] (1) (*).

(1) -سورة البقرة الآية:7.

إن هؤلاء الضالين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، لأنهم أعرضوا وتركوا الاهتداء بدلائل الله «فأشبه حالهم حال من منع عن الشيء وصد عنه وكذلك هذا في عيونهم حتى كأنها مسدودة لا تبصر شيئا وكأن بأذانهم وقرا حتى لا يخلص إليها الذكر»⁽¹⁾.

فالآية الكريمة تضمنت تشبيها يكمن في تشبيه «هيئة وهمية متخيلة في قلوبهم أي إدراكهم من التصميم على الكفر وإمساكهم عن التأمل في الأدلة...بهية الختم»⁽²⁾. وتشبيه هيئة متخيلة في أبصارهم بهية الغشاوة، فهذا التشبيه يقرب للأذهان أن من أعرض عن ذكر الله وتولى كافرا فإن هذا مصيره، وهذه حالته، قلب مختوم عليه لا ينفذ إليه هدى، وأذن لا تسمع حقا وعين لا تبصر شيئا، فالختم جاري على القلوب والأسماع وذلك لأن [وَعَلَى سَمْعِهِمْ] معطوف على [قُلُوبِهِمْ] والغشاوة تناسب الأبصار وكل من القلوب والأسماع شبه بالوعاء الذي يتخيل فيه معنى الغلق والسد، «والمراد من القلوب هنا الأبواب والعقول»⁽³⁾. فهذا التشبيه الذي جاءت به الآية الكريمة وسيلة رائعة في إقناع المخاطب الذي يتخيل صورة لهؤلاء الكفرة وهم في أقبح صورة، فماذا بقي للذي خُتم على قلبه وسمعته وجُعل على بصره غشاوة، وأيضا التشبيه شخص المعنى وجعله في صورة محسة متخيلة توحى بالخوف الشديد للذين ساورا على درب الكفر والعياذ بالله، فالأسماع لا تسمع آيات الله المنزلة سماع تأمل وتدبر، والأذهان لا تدرك آيات الله المبصرة في الآفاق، ومن ثم فكيف يرجى تغيير حالهم ودخول الإيمان في قلوبهم؟.

(*)- إن الآية الكريمة تضمنت استعارة وتشبيه ومجاز مرسل ينظر (التحرير والتنوير، مج1، ج1، ص254-255).

(1)- الإمام الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، طهران، ط2، د.س، ج2، ص50.

(2)- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، د.ط، د.س، م1، ج1، ص255.

(3)- ينظر: المصدر نفسه، ص255.

=تتبيه: إننا نذهب مذهب السلف الصالح في مسألة خلق أفعال العباد ولا نلتفت إلى ما ذهب إليه الطوائف الكلامية التي حادت عن الطريق. ولا يمكن أن أتطرق في هذا البحث إلى المسائل الكلامية وذكر الخلافات لأن الموضوع لا يستدعي ذلك.

النموذج الثاني:

قال تعالى: [مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ....] (1)

لما ذكر المولى عز وجل حقيقة صفتهم وحقيقة كفرهم عقبها بضرب المثل الذي يؤثر في القلوب، والغرض منه تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على الماهية ويصبح الحس مطابقا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح، ولقد جاء بالمثل زيادة في الكشف وتنميما للبيان، قال صاحب الكشاف (*): «ولضرب العرب الأمثال واستحضار

(1) -سورة البقرة، الآية:17.

(*) -هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري، الإمام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة، كان إمام عصره، توفي ليلة عرفة سنة 532هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م5، ص168-173.

العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق»⁽¹⁾.

ولقد شبه الله سبحانه وتعالى حالهم بهيئة محسوسة وهذه طريقة تشبيه التمثيل، إذ شبه حالهم العجيبة الشأن بحال الذي استوقد نارا، وهذا التشبيه له أثر عظيم على المعنى لأن النفس تميل إلى المحسوس ومن ثم شبه المعقول بالمحسوس، تبيانا للمعنى وتوضيحا له وكشفا لحالة هؤلاء الكفار، فقد شُبِّهوا بالذي استوقد نارا فلما أضاءت له وكسب نورا ذهب الله بهذا النور وتركهم في ظلام دامس لا يبصرون شيئا، فإن قلت ما وجه التشبيه في الآية الكريمة، ولماذا شُبِّهوا هذا التشبيه؟.

إن الآية نزلت في المنافقين⁽²⁾ الذي دخلوا الإسلام فاكتسبوا نورا ثم عادوا إلى الكفر، فصاروا في الظلمات لا يبصرون ولا هم يذكرّون لأنهم أبطلوا ذلك النور بكفرهم بعدما أضاء لهم.

والتشبيه الذي تضمنته الآية الكريمة له وقع عظيم في القلب ودور هام في إقناع العقل، إذ عن طريق الخيال جُسدت المعاني وبدت الحالة التي يكون عليها المنافق وانظر إلى حالة المستوقد نارا حينما أضاءت له ثم إلى حالته وقد انطمس عنه ذلك النور. فانتقال الفاعل في استوقد من حالة الإضاءة إلى حالة الظلمات توحى بحسرتة الشديدة وألمه الموجه ثم تركه في الظلمات أعمى مما يوحي بباشعة حاله وتعاسته، وقول الحق: [وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ....]، توحى بانسداد الطرق والمنافذ وذلك عقابا لهم في الدنيا قبل الآخرة فهذا جزاء من كفر وأعرض عن الإسلام، وتكمن فائدة هذا التشبيه في تفضيع حالة المشبه.

وقوله تعالى: [صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ....]⁽³⁾، فالآية الكريمة تصف المنافقين

(1) - الزمخشري، الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص 195.

(2) - ينظر: محمد محمد تامر، أسباب النزول للإمام السيوطي، دار التقوى، دط، دت، ص 14.

(3) - سورة البقرة: الآية 18.

بالصم والبكم والعمي، فمن اتصف بهذه الصفات انعدم منه الفهم والإفهام وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب، وليس الغرض من الآية الكريمة «نفي الإدراكات عن حواسهم جملة»⁽¹⁾. وإنما الغرض هو إعراضهم وشدة تمسكهم بعنادهم وعدم سماعهم القرآن، وعدم نطقهم الحق، وعدم النظر إلى ما يظهره الرسول ρ من الأدلة والآيات، فلما كانوا هكذا وصّفوا بهذه الصفات، وشبّهوا بالصم والبكم والعمي، فالآية الكريمة تضمنت تشبيها «والمحققون على تسميته تشبيها بليغا»⁽²⁾.

وهذا التشبيه زاد المعنى بيانا ووضوحا ويكمن ذلك البيان والوضوح في إعراض هؤلاء المنافقين، وأن من أعرض عن القرآن فهو بمثابة الأصم والأبكم والأعمى، وهذه الصفات توحى بانعدام سماعهم وانعدام نطقهم وانعدام رؤيتهم^(*) وتدل في الوقت نفسه على شدة كفرهم وإعراضهم الذي بلغ منتهاه.

ولو نظرنا إلى هذه الألفاظ التي جاء بها القرآن [صُمَّ بكم عُمِي] لوجدناها أشد وصفا للذي ابتغى غير الإسلام ديناً، ثم تُختم الآية الكريمة بقول الحق [فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ]. معلوم أن الفاصلة القرآنية تتم معنى ما قبلها فلما كانوا بمثابة الصم والبكم والعمي جاءت الفاصلة متممة للمعنى ومؤكدة عدم رجوعهم إلى الحق، وهذا من بلاغة القرآن الكريم وقوله تعالى [فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ] فيه وجوه: أحدها أنهم لا يرجعون عن التمسك بالنفاق الذي من أجله وصفوا بهذه الصفات وثانيها: أنهم لا يعودون إلى الهدى وثالثها: أنهم بمنزلة المتجبرين الذين بقوا خامدين في مكانهم لا يبرحون⁽³⁾.

قلت كل هذه الوجوه لا تخلو من أن تكون بيانا في إعراض المنافقين وتمسكهم الشديد بكفرهم ولذلك وصفوا بالصم والبكم والعمي لما في هذه الصفات من إقناع بعدم

(1) - القرطبي، تفسير القرطبي، تح: سالم مصطفى البدر، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 2000، م1، ج1، ص150.

(2) - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، ص204.

(*) - ليس المراد بانعدام السمع والنطق والرؤية وانعداماً حقيقياً وإنما كما ذكرنا في الصفحة السابقة.

(3) - ينظر: الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج2، ص76.

رجوعهم إلى الحق والصواب .

النموذج الثالث:

قال تعالى: [أَوْكُصِّبِ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ. يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ....] (1).

هذا مثل ثاني لضرب آخر من المنافقين لأنهم «قسمان، بعضهم يشبهون أصحاب النار وبعضهم يشبهون أصحاب المطر» (2) (*)، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون

(1) - سورة البقرة الآيتان: 19-20.

(2) - الإمام الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج2، ص 78.

(*) - اختلف علماء التفسير في المثل الذي تضمنته الآيتان 19-20 وهل المراد به المنافقين الذين مثلوا بالمستوقد نارا أو يراد به ضرب آخر من المنافقين، فقيل المراد به المنافقين الذين مثلوا بالمستوقد نارا وقول الحق «أو كصيب» معناه

أخرى، فهم في حالة شك وكفر وتردد.

ولقد تضمنت الآيتان الكريمتان تشبيهات رائعة تزيد قوة في الإقناع. وتجسد المعنى تجسيدا لحالة المنافقين، ولقد شبهت الآيات «المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين وصفهم إذ كانوا لا يرون طريقا ولا يهتدون سبيلا»⁽¹⁾.

فقوله تعالى: «أو كصيب» فهو تشبيهه^(*) لدين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر والصيب لا يقال: «إلا للمطر الجود^(**)»⁽²⁾.

جاء في سنن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها أن النبي μ كان إذ رأى ناشئا في أفق السماء ترك العمل وإن كان في صلاة ثم يقول «اللهم إني أعوذ بك من شرها» فإن مطر قال: اللهم صيبا نافعا⁽³⁾ فهذا يدل على أن الصيب أجود المطر.

ولقد جاءت كلمة صيب بالتكثير للدلالة على أنه نوع من المطر شديد هائل.

ثم إن إظهار الإيمان وإبطان الكفر، لما كان ضررا في الدين شبه بالصيب الذي وجد في هذه الصورة مع هذه الأحوال حيث صار النفع به زائلا لأن: «إظهار الإيمان نافع للمنافق لو وافقه الباطن فإذا فقد منه الإخلاص وحصل معه النفاق صار ضررا في الدين»⁽⁴⁾. فكما لا ينتفع المنافقون بإظهار الإسلام وإبطان الكفر. فكذلك لا ينتفع هؤلاء الذين أتاهم الصيب مع تلك الأحوال. وهذا التشبيه يزيد المعنى وضوحا ودلالة وكشفا

كيفية المنافقين شبيهة بكيفتي هاتين القصتين فبآيتهما مثلث فهو الصواب وإن مثلت بها فهو أصوب وقيل المراد به ضرب آخر من المنافقين وهو مذهب ابن كثير وإليه ذهب وبه قلت. ينظر تفسير ابن كثير، دار ابن حزم، ط1، 2002، ج1، ص145، وينظر: تفسير الرازي، ص78.

(1) - الرازي، التفسير الكبير، ص77.

(*) - التشبيه الذي تضمنته الآية أي الصيب والظلمات والبرق والرعد تشبيه مفرقا ولقد مر شرح ذلك.

(**) - جاء في كتاب: العين الخليل بن أحمد الفراهيدي، ص534، أن الصوب: المطر، الصيب سحاب ذو صوب، والسياب الخيار من كل شيء.

(2) - ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج2، ص79.

(3) - سنن أبي داود دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص770.

(4) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج1، ج2، ص77.

لسوء حالة المنافقين وأنهم يضربون على غير هدى.

ولقد توحى ألفاظ الآيتين، بمعان كثيرة لأنها تضمنت تشبيهات عجيبة لها أثر عظيم في النفس ووقع خلاب في القلب.

فما الذي يشبه الرعد مما يتعلق بأحوال المنافقين؟(*)

إن الذي يشبه الرعد مما يتعلق بأحوال المنافقين هو التخويف الذي في القرآن. إذ شبه التخويف الذي في القرآن بالرعد. وذلك أن المنافقين يخافون أن تفتضح أمورهم كما يخافون من الدعاء إلى الجهاد فهذا التشبيه يوحي بشدة خوفهم وحيرتهم المستمرة وقلقهم الدائم وهذا مما يزيد في إقناع المخاطبين بسوء حالة المنافقين وهذا ترهيب من الابتعاد عن الدين ومسلك الكافرين.

ولقد شبه ما يتبين لهم من مواضع القرآن وحكمه(*) بالبرق. لأن نور إسلامهم الذي يظهره يضيء لهم فينالون حقن الدماء. وكسب مودة المؤمنين ولكن لا يستمر لهم ذلك لأنهم يبطنون ما لا يظهرون، وكان ذلك ينالونه بمثابة البرق يضيء برهة ويختفي. وهذا التشبيه يوحي بفرارهم الشديد من القرآن لأن قلوبهم غلف وإذا سمعوا القرآن كانوا له كارهون. كما يوحي هذا التشبيه بإدراكهم ثم عنادهم، فالمواعظ والحكم تأتيهم من القرآن واضحة بينة كما يبين الطريق أثناء وميض البرق في ليل أهل ولكنهم صم بكم عمي فهم

(*)-لقد اختلف العلماء في المشبه بالرعد وفي ذلك ثلاثة مذاهب:

- 1-أنه التخويف الذي في القرآن قاله ابن عباس.
- 2-ما يخافون أن يصيبهم من المصائب إذا علم النبي والمؤمنون بنفاقهم قال مجاهد والسدي.
- 3-ما يخافون الدعاء إلى الجهاد، وقتال من يبطنون مودته، وهذه الأقوال ذكرت في كتاب (ابن الجوزي، زاد الميسر في علم التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1984، ص46).

ولقد أخذت بالقول الأول لأنه أقرب وأشمل ومأثور عن صحابي جليل من علماء الصحابة رضي الله عنهم.

(*)-اختلف العلماء في مسألة ما الذي يشبه البرق من أحوال المنافقين وفي ذلك ثلاثة مذاهب:

- 1-أنه ما يتبين لهم من مواضع القرآن وحكمه.
 - 2-ما يضيء لهم من نور إسلامهم الذي يظهره.
 - 3-أنه مثل لما ينالونه من حقن دمائهم، ينظر المصدر السابق، ص46.
- ولقد ذهب المنصب الأول لشموله للمذهبيين الآخرين ولا أنكر أنني جمعت بعض الشيء بين المذاهب الثلاثة.

لا يرجعون كما نعتهم الله سبحانه وتعالى. وتوحي هذه الألفاظ «وظلمات وبرق» بالهول الشديد والحيرة الساكنة في قلوبهم، كما تبين اضطراب نفوسهم وأنهم لا يستقرون بحال فهم في تعس شديد، والآية تتضمن تنفيرا من سبل المنافقين، وإقناعا بسوء أحوالهم.

وقوله سبحانه وتعالى: [يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ....].

قيل أنهم كانوا يفرون من سماع القرآن لئلا يأمرهم بالجهاد مخافة الموت (**)، وعلى هذا التأويل تضمنت الآية تشبيها يمكن في تشبيه فرار المنافقين من القرآن بالجاعلين الأصابع في الآذان من الصواعق وتكمن قوة التشبه في الإقناع في ذلك الخوف الشديد الذي ينتابهم، كما ينتاب الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق. ويوحي هذا التشبيه بأن المنافقين أشد رعبا من القرآن فإن قلت أين تكمن شدة رعبهم؟.

قلت: تكمن في خوفهم من انفضاح أمرهم الذي ينجر عنه قتلهم ويوحي التشبيه أيضا بعدم استقرارهم بحال، ثم بجزعهم الشديد، كما هو حال من جعل أصابعه في أذنيه من الصواعق.

والذي يشبه البرق من أحوال المنافقين هو ما يتبن لهم من مواضع القرآن وحكمه، وما ينالونه بإظهار الإسلام من حقن الدماء.

وشبه سطوع المواضع والحكم القرآنية بالبرق، لأن البرق ضوءه ساطع، ويكون في الظلمات (*) أسطع فسطوع البرق في تلك الظلمات المجتمعة شُبه بسطوع المواضع والحكم القرآنية وهذا دلالة على أنهم أشد تمسكا بكفرهم ودلالة على أنهم قوم عامون لا يفقهون شيئا. ولا يلتفتون، وقلوبهم مختوم عليها.

(**) -اختلف العلماء في قوله تعالى: «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق» على قولين:

1- أنهم كانوا يفرون من سماع القرآن لئلا يأمرهم بالجهاد مخافة الموت..

2- أنه مثل لإعراضهم عن القرآن كراهية له.

ولقد أخذت بالأول لأنه أعم وأشمل، من الفرار من السماع يشمل الخوف من الجهاد والإعراض عنه القرآن.

(*) -وردت كلمة ظلمات بالجمع ولم ترد بالإفراد لأنها أنواع مختلفة من الظلمات فاحتجت إلى صيغة الجمع وهذه

الأنواع هي ظلمة السحاب وظلمة الليل وظلمة المطر (ينظر تفسير الرازي، م1، ج2، ص79).

وقوله تعالى: [وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ] معناه: "أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به، المحيط به حقيقة"⁽¹⁾ ولا ينفعهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته⁽²⁾ وقدرته مستولية عليهم وأنه سبحانه وتعالى عالم بهم قال تعالى: [وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا]⁽³⁾ وقال: [َاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ]⁽⁴⁾. ثم إن وضع الاسم الظاهر موضع المضمرة "فلإيذان بأنهم كانوا كذلك بكفرهم، وأن ذلك يرد في أمثالهم"⁽⁵⁾. لأن الله سبحانه وتعالى قال: [وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ] ولم يقل محيط بهم.

وقوله تعالى: [يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا...].

«يكاد» فعل يدل على مقارنة وقوع الفعل ولذلك لم تدخل عليه أن لأن أن تخلص الفعل للاستقبال⁽⁶⁾.

إن تجرّد الفعل المضارع من الناصب يدل على مقارنة الوقوع في الحال أي في الشدة التي هم فيها والحالة التي هم عليها.

والبرق إذا لمع "بشدة مفاجئاً من هو في ظلمة فإنه يؤثر في بصره تأثيراً يكاد يخطفه"⁽⁷⁾ أي بتزكه كأنه لا يرى شيئاً، وحالة هؤلاء مع الظلمات والرعد والبرق، ثم لمعان لمعان البرق الشديد وذهابه فإن أبصارهم تكاد تؤخذ بسرعة ولكن يتبين به جزء من الطريق فيمشي خطوات ثم تعنكر عليه الظلمات وتحيط به المخاوف والأوهام فيقف في

(1)-التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط2، م1، ج2، ص80.

(2)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص146.

(3)-سورة الطلاق، الآية: 12.

(4)-سورة البروج، الآية: 20.

(5)- السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، ج1، ص178.

(6)- أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 2001، ج1، ص36.

تنبيه: كاد إن دخل عليها حرف نفي دل على أن الفعل الذي بعدها وقع، وإذا لم يكن حرف نفي لم يكن الفعل بعدها واقعا ولكنه قارب الوقوع. المصدر نفسه.

(7)-السيد محمد رشيد رضا: تفسير المنار السيد، ج1، ص178.

مكانه وقول الحق [يَكَادُ الْبُرْقُ]، "فيجوز كونها حالاً(*) من الضمير [يَجْعَلُونَ] لأن بها كمال إيضاح الهيئة المشبه بها"⁽¹⁾.

والآية الكريمة تضمنت تشبيهاً فنياً رائعاً يكمن في تشبيه "ما يحصل للمنافقين من الشك في صحة اعتقادهم بمشي الساري في ظلمة إذا أضاء له البرق، وعن إقلاعهم عن ذلك الشك حين رجوعهم إلى كفرهم بوقوف الماشي عند انقطاع البرق"⁽²⁾.

فدعوتهم إلى أصل الدين وتوضيح لهم سبب ما هم فيه من البلاء المبين وقراءة آيات الله عليهم، وإقامة الحجج، تبين لهم الحق فيعزمون على إتباعه وتسير أفكارهم بعض الخطوات ولكنهم لم يلبثوا إلا أن يعودوا كما كانوا فشبهت هذه الأمور بالذين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا ولما يظلم عليهم يقومون تائهيين، وهذا التشبيه يوحى بشدة الأمر على المنافقين وما هم فيه من غاية التحير والجهل.

ومجمل القول: أنه شُبهت استبانتهم للحق بإضاءة البرق، ثم عودهم إلى الباطل شُبه بذهاب ضوء البرق، فإن قلت لما شُبهت استبانتهم للحق بالبرق؟ قلت لأن هذا يوحى بفرارهم الشديد من الحق. يأتيهم الحق فإذا هم منه يفرون لذا كان كالبرق في الظهور.

والأحرى عندي أن المشبه بالبرق هو فرارهم من الحق، وليس أن ظهور الحق لهم هو المشبه بالبرق فإن قلت كيف؟ قلت ذلك فيه وجهان:

1- أن الحق ظاهر لهم دائماً وأبداً، أليس تنزِيل من حكيم خبير. وأنهم يعلمون أن ما أنزل الله هو الحق، وأنهم للباطل يتبعون. وأن كفرهم كان عناداً لا عدم معرفة.

2- أنهم لا يطيقون الحق ولا يريدون اتباع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه لما تسير أفكارهم نحو الحق بخطوات يسيرة وذلك نتيجة تأثير القرآن على

(*)- ويجوز كونها استئنافية لبيان حال الفريق عند البرق نشأ عن بيان عند الرعد. ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير

والتتوير، مج1، ج1، ص319.

(1)- المصدر نفسه، مج1، ج1، ص319.

(2)- المصدر نفسه، ص319.

قلوبهم، فإنهم يفرون فرارا شديدا من ذلك، لأنهم يريدون أن يبقوا في ظلمات الجهل والكفر وعليه يكون المشبه بالبرق هو الفرار من الحق والمشبه بالضوء هو الحق وهذا التشبيه يوحي بأن من أعرض عن الإسلام فهو في الظلمات وفي حيرة شديدة. ويوحي بأن المنافقين لعنهم الله في ألم عظيم وحسرة دائمة. ويوحي أيضا بأن الإسلام نور عظيم، مثل ذلك النور الذي يأتي من البرق في تلك الظلمات، وأن الإعراض عنه ظلام دامس، مثل ذلك الظلام الذي يأتي للذي اختفى عنه لمعان البرق الشديد وبقي في مكانه لا يبصر شيئا.

كما يوحي أيضا هذا التشبيه بشدة الأمر على المنافقين كشدته «على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل، بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتّر لمعانه بقوا واقفين متقيدين عن الحركة»⁽¹⁾، فهم في وجع شديد وألم يمزقهم تمزيقا وسوء حالة عظيم، وبؤس وشقاء دائمين وهذا ما يوحي به تشبيههم بأصحاب الصيب.

ثم لماذا قال مع الإضاءة كلما؟ ومع الإظلام إذا.

الجواب: «لأنهم حُرّاص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المشي وتأتيه، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها لذلك قال مع الإضاءة كلما، ولما كان الشأن في التوقف والحبس ليس كذلك قال مع الإظلام إذا»⁽²⁾، وما على أحد الأقوال أنها: «هنا نكرة موصوفة ومعناها الوقت، والعائد محذوف أي كل وقت أضاء لهم فيه»⁽³⁾، أي كل وقت كان فيه الضوء استغلوا الفرصة ومشوا فيه، لذا استعمل مع الإضاءة كلما ومع الإظلام إذا، ولأنهم يفرون من الإظلام لذا لم تستعمل كلما.

(1) - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص219.

(2) - ينظر: المصدر نفسه، ص220.

(3) - أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج1، ص37.

وقول الحق: [كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ] قيل (1) معناه كلما أتاهم القرآن بما يحبون تابعوه، وهنا تشبيه المعقول بالمحسوس، إذ شُبه اتباعهم بما يحبون من القرآن بإضاءة البرق في الدجى.

وقوله: [وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا] قيل (2) معناه إتيانه إياهم بما يكرهون وهو من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس.

فهذه التشبيهات توحى بزيغ هؤلاء المنافقين وشدة تمسكهم بنفاقهم، كما أن هذه التشبيهات لها أثر عظيم على الحس والخيال إذا تشخص حالة المنافقين الذين ابتغوا غير الإسلام ديناً.

وقوله تعالى: [وَلَوْ^{*} شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]، قيل معناه «لو شاء لأذهب أسمعهم وأبصارهم عقوبة لهم» (3) أي تركهم بلا سمع ولا بصر وقال الزمخشري "ولو شاء الله لأذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بوميض البرق" (4) فهذا المعنى لا يبعد عما قبله، إذ يشاكلة ولكن يزيد عليه بسبب الذهاب بالسمع والبصر، فإن قلت إلى ما يرجع الضمير في قول الحق [بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ] قلت يرجع إلى المشبه (*) بحالهم حال المنافقين لأن الإخبار بإتلاف الأسماع والأبصار يناسب أهل الصيب المشبه بحالهم، ولأن السياق الذي وردت فيه هذه الآية يناسب ذلك، فما الذي يمنع قصيف الرعد من إتلاف الأسماع، ووميض البرق من إتلاف الأبصار إلا مشيئة الله، وفائدة ذكر هذا «في الحالة المشبهة بها، أن يسري نظيره في الحالة المشبهة وهي حالة المنافقين فهم على وشك انعدام الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم انعداماً تاماً من كثرة

(1) -ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج1، ص 46-47.

(2) -ينظر: المصدر نفسه، ص 47.

(*) -قال الرازي: المشهور ان لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره (ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص80).

(3) -ينظر: المصدر نفسه، ص 47.

(4) -الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 221.

(*) -المشبه بحالهم : يعي المشبه به أي أصحاب الصيب.

عنادهم وإعراضهم عن الحق»⁽¹⁾. وكل التشبيهات التي وردت في الآيتين⁽²⁾ كان الغرض منها هو تصوير المعاني في الأذهان وتقريبها للأفهام، وإقناع المخاطبين ويتم ذلك كله عن طريق الإيحاءات. التي تبين عناد المنافقين ومدى تمسكهم بكفرهم كما توضح حيرتهم الشديدة ودهشتهم الدائمة، وهذه حالة من أعرض عن الإسلام.

النموذج الرابع:

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ].

لما فرغ سبحانه وتعالى من ذكر الفرق الثلاثة^(*) أي المؤمنين والكفار والمنافقين: "أقبل عليهم بالخطاب"⁽³⁾ والخطاب عام لجميع الناس^(**) وفيه التفات^(***) من الغيبة إلى الخطاب، ثم إن حرف النداء "يا" فهو للبعيد، وأما نداء القريب فله: أي، والهمزة، ولكن في هذا المقام استعملت يا لأنها «في نداء من سها وغفل وإن قرب، تنزيلا له منزلة البعيد»⁽⁴⁾

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص 322.

(2) - الآية 19-20 من سورة البقرة.

(*) - من الآية 1-5 ذكرت فيها فرقة المؤمنين، والآية 6 و7 فرقة الكافرين، ومن الآية 8-20 فرقة المنافقين.

(3) - التفسير الكبير، الفخر الرازي، م1، ج2، ص82.

(**) - هذا هو القول الراجح من أقوال المفسرين (ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج1، ص84).

(***) - الالتفات: هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار عن المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر. أبو العباس عبد الله بن المعتز، البديع، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1990، ص152.

(4) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج1، ص83.

وقد شرع الحق سبحانه وتعالى: «في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة»⁽¹⁾.

فالمولى أمر الناس جميعا بعبادته وهذا النداء الإلهي يشعر بأن نسبة الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين، فهو الخالق وهم المخلوقين، وهو الأمر وهم المأمورون، هو المعبود، وهم العابدون.

وقوله تعالى: [اعْبُدُوا] فهو "أمر بالعبادة له، والعبادة هنا عبارة عن توحيد والتزام شرائع دينه"⁽²⁾. والأمر لكل الناس وقوله تعالى: [لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] ، قال القرطبي: «لعل متصلة باعبدوا لابخلقكم، لأن من ذرأه الله لجهنم، لم يخلقه ليتقي»⁽³⁾.

وبعد الأمر بالعبادة بين الله سبحانه وتعالى نعمه التي أنعمها على عباده بأن جعل لهم الأرض فراشا:أي: «مهذا كالفرش مقررة موطأة مثبة بالرواسي الشامخات»⁽⁴⁾ [وَالسَّمَاءَ بِنَاءً] وهو السقف.

قال تعالى: [وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ]⁽⁵⁾، وأنزل لهم من السماء ماء فأخرج من أنواع الزروع والثمار رزقا لهم ولأنعامهم، وبعد ذكر هذه النعم ينهاهم عن جعل الأنداد. قال ابن عباس^(*) في قوله تعالى: [فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] "أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد"^(*) التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص149.

(2) - المصدر نفسه، ص149.

(3) - تفسير القرطبي، م1، ج1، ص158.

(4) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص149.

(5) - سورة الأنبياء، الآية:32.

(*) - ابن عباس: هو أبو العباس عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله ﷺ،

توفي رسول الله ﷺ وله ثلاثة عشرة سنة. مات بالطائف سنة 78 هـ وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. ابن خلكان، وفيات

الأعيان، مج3، ص62-64.

(*) - جاء في كتاب العين، الفراهيدي، 49، أن الند ما كان مثل الشيء يضاده في أموره والنديد والند سواء وجمع الند،

أنداد، و نَدَّ البعير ندودا: انفرد واستعصى.

لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من توحيدِه هو الحق الذي لا شك فيه"⁽¹⁾. وعن ابن عباس أيضا أن: "الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل"⁽²⁾.

والآية الكريمة تضمنت تشبهين بليغين، ويكمن ذلك في قوله تعالى: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً] فشبه الأرض بالفرش، والسماء بالبناء، أما تشبيه الأرض بالفرش فيوحي بالاستقرار التام، للخلائق، وتشبيه السماء بالبناء يوحي بالحماية التامة للخلائق.

والآية أستهلّت بالنداء الذي يجلب التفات المخاطبين وفيه الإقبال على عظمة نبيّ الشرك، ثم الأمر بالعبادة ويمكن إقناع المخاطب في نداءه ثم أمره وبعد ذلك إقرار الرب سبحانه وتعالى بخلقه الناس جمعاء الأولين والآخرين. فإن قلت هل أنكرت العرب صفة الخلق؟

قلت لم تنكر العرب صفة الخلق، وأنها مقرة بأن الله خلقها ولكن الله سبحانه وتعالى خص صفة خلقه الخلق من بين سائر صفاته تعريفا لهم وحجة عليهم وهذا مما يزيد قوة في الإقناع، وبعد ذلك استعمل الأسلوب القرآني الحرف "لعل"^(*). الذي يفيد الترجي والتوقع، وكل من الترجي والتوقع إنما هو في حيز البشر قال الإمام الفخر: «أن معنى لعل راجع إلى العباد لا إلى الله تعالى»⁽³⁾. وبعد الحرف لعل الفعل والفاعل [تتقون]. فالطمع في التقوى يزيد في العبادة وهذا مما يزيد في إقناع المخاطبين ثم قوله: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا] صفة ثانية للرب لأن مساقها مساق قوله: [الَّذِي خَلَقَكُمْ]

(1)- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص150

(2)- المصدر نفسه، ص150.

(*)- هناك وجوه في مسألة لعل في هذه الآية أولها الذي ذكرنا، وثانيها: أن من عادة الملوك والعظماء أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا لعل وعسى ونحوهما من الكلمات وثالثها، أن لعل بمعنى كي. ينظر التفسير الكبير، الفخر الرازي، م1، ج2، ص100، ولقد ارتضت الوجه الأول لكونه الأقرب وأنه مذهب الكتاب.

(3)- الفخر الرازي، التفسير الكبير، مج1، ج2، ص100.

والمقصود بالإيماء إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها⁽¹⁾. فلما أوجب سبحانه وتعالى عبادته بين أنه خالق الناس كلهم، ثم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه وحده وهي نعمه المستمرة عليهم، فقد مهد لهم المكان الذي يستقرون فيه وجعلهم محصنين وأنزل لهم من السماء الخيرات العظيمة. فكل هذه الدلائل لها أثر عظيم في النفوس فمنها ما يتجه إلى الوجدان والخيال كالصور البيانية ومنها ما يتجه إلى العقل المفكر، وعند حصول ذلك يحصل الإقناع وتتقاد العقول.

النموذج الخامس:

قال تعالى: [ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ].

الآية تتحدث عن بني إسرائيل، ولقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بقساوة القلوب "وضعف الوازع الديني فيها، حتى أصبحت كالصم الصلاد، بل أشد منها قسوة، فلا أثر فيها لعاطفة عبرة، ولا شعور لها بعظة"⁽²⁾. ولقد أراهم من الآيات العظيمة كأنفجار الماء ورفع الجبل ومسخهم قردة وخنازير وإحياء القتيل، ولكنهم لا يعتبرون لأنهم ذووا قلوب قاسية، وإن الحجارة أشد لنا من قلوبهم إذ منها تفجرت أنهار لتأثرها، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء الذي ينتفع به الناس والأنعام ومنها ما ينحط من أعلى جبل، ولكن "هذه القلوب لم تتأثر بالعظات والعبر"⁽³⁾.

فالآية الكريمة تضمنت تشبيها يكمن في تشبيه القلوب بالحجارة.

والقسوة عادة «توصف بها الأجسام وتوصف بها النفوس المعبر عنها بالقلوب،

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 1، ج 1، ص 331.

(2) - أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 3، 1984، م 1، ج 1، ص 146.

(3) - المصدر نفسه، ص 146.

فالمعنى الجامع للوصفين هو عدم قبول التحول عن الحالة الموجودة إلى حالة تخالفها»⁽¹⁾.

فهذا التشبيه يوحي بكفر وعناد هذه الطائفة التي أصبحت قلوبها أشد قسوة من الحجارة، ويوحي أيضا بعدم اتعاض هذه القلوب واعتبارها، ويوحي بتفضيل الحجارة على قلوبهم، بشدة تمسكهم بكفرهم وعنادهم، وعدم قبولهم التحول عن الحالة التي هم عليها، وهذا التشبيه له دور هام في إقناع المخاطب، ويكمن ذلك في أن الذي تمسك بكفره وعناده، سيشدد قلبه قسوة وصلابة حتى يفوق قساوة الحجر وصلابتها، وعليه فلا تتفعه موعظة ولا عبرة. ويكمن الإقناع أيضا في التحذير من اتباع سبيل الكافرين.

ومما زاد قوة في إقناع المخاطبين هو تفضيل الحجارة على القلوب التي لا تتعظ ولا تعتبر. كما توحي كلمة [قست] بشدة عناد وكفر أصحاب هذه القلوب، وينجر عن هذه الكلمة إقناع بأن هذا القلب قاس لا يقبل أي تأثير أو تغيير كما يقرب ذلك التشبيه إلى الأذهان أن من كفر فقد يكون قلبه كقلوب هؤلاء لا يتعظ بموعظة ولا يعتبر بعبرة.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص 562.

النموذج السادس:

قال تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ].

لقد مضى الكلام على الند "والمراد بالأنداد هنا وفي مواقعته من القرآن الأصنام"⁽¹⁾.
ومن الناس من يتخذ من دون الله الأحد الفرد الصمد الذي ذكرت أوصافه الجليلة أنداد وأمثالا. يحبونهم " على الباطل كحب المؤمنين لله على الحق"⁽²⁾. إذ يسوون بين الأصنام وبين الله تعالى في المحبة [وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ] . من كل ما سواه. إذ حبهم له خاص به لا يشركون فيه غيره، إذ هم يعتقدون أن ملكوت السموات والأرض بيده، وهو الذي له القدرة والسلطان على جميع الأكوان"⁽³⁾.

وقول الحق سبحانه وتعالى: [كَحُبِّ اللَّهِ] يفيد مساواة الحبين وتضمنت الآية تشبيها، يكمن في تشبيه حب المشركين للأنداد بحب المؤمنين لله وقول الحق : [كَحُبِّ اللَّهِ] فهو من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، فنائب الفاعل محذوف، وقيل إن حذف

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج2، ص91.

(2) - القرطبي، تفسير القرطبي، م1، ج2، ص137.

(3) - أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، م1، ج2، ص38.

الفاعل هنا" لقصد التعميم أي كيفما قدرت حب محب لله فحب هؤلاء أندادهم مساو لذلك الحب، ووجه هذا التعميم أن أحوال المشركين مختلفة"⁽¹⁾. فمن المشركين من يعبد الأنداد ويسوي بينها وبين الله، ومنهم من يجعل الله تعالى الإلهية الكبرى ويجعل الأنداد شفعاء إليه، ومنهم من ينسى الله عز وجل ويقتصر على عبادة الأنداد⁽²⁾.

فالتشبيه الذي تضمنته الآية الكريمة زاد المعنى كشفا وإيضاحا. إذ بين أن حب المشركين لأندادهم حب شديد، كما يوحي بتمسكهم بأندادهم وشغفهم بهم، كما يقرب إلى الأذهان أن من عبد غير الله سيكون قلبه بمعبوده أشد تعلقا. وزاد هذا التشبيه قوة في إقناع المخاطب بأن المشركين أشد حبا وعبادة لأندادهم. ويكمن أيضا إقناع المخاطب بهذا التشبيه بإعراض المشركين عن الحق. ثم إبتاعهم الباطل، ويوحي هذا التشبيه أيضا بضلالة المشركين وأنهم في طغيانهم يعمهون، كما يوحي بتعظيم فتنة متخذي الأنداد بهم، كما يدل التشبيه على التسوية بين المحبتين.

ثم قال الحق سبحانه وتعالى: [وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ]. إن مورد التسوية بين المحبتين مخالف لمورد التفضيل، لأن التسوية تدل على فرط المحبة أما التفضيل فيدل على رسوخ المحبة وعدم تزلزلها⁽³⁾. وأفضل التفضيل له أثر عظيم على إقناع المخاطبين، إذ يدل على أن المؤمنين لا يعدلون عن الله سبحانه وتعالى إلى غيره أبدا وفي جميع الأحوال، أما المشركون فإنهم يعدلون عن أندادهم إلى الله وذلك في الشدائد، كذلك قد يعبدون الصنم زما ثم يرفضونه إلى غيره، وكل من التشبيه والتفضيل يدل على أن إبتاع ما أنزل الله هو الحق وهو الطريق المستقيم وما عداه فهو الضلال المبين وهنا يكمن إقناع المخاطبين.

إن المؤمنين أشد حبا لله من المشركين لأندادهم وقيل في قوله تعالى: [وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ] «لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبوه، ومن شهد له المحبوب بالمحبة كانت

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج2، ص91.

(2) - ينظر: المصدر نفسه، ص91.

(3) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج2، ص92.

محبه أتم»⁽¹⁾. ويوحى التشبيه أيضا بإنكار محبة المشركين للأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله. كما يوحى التشبيه بإنكار محبتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله تعالى وإنما قيدت بمماثلة حب الله لتشويهاها وللنداء على انحطاط عقول أصحابها وفيه إيقاظ لعموم معظم المشركين.

النموذج السابع:

قال الله تعالى: [يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ].

أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالصوم ولقد جاء الأسلوب القرآني بأسلوب النداء قبل ذكر الفرض وذلك للفت الانتباه. وتهيئة نفوس المخاطبين ومما زاد ذلك قوة، وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

فبعد أن تهيأت نفوس المخاطبين جاء الأمر بالصوم، ولقد تضمنت الآية الكريمة تشبيها يكمن "في أصل فرض ماهية الصوم لا في الكيفيات" إذا ليس المقصود من التشبيه هو صفة الصوم. وإنما ماهيته ولقد جاء هذا التشبيه لأغراض لها أثر على إقناع المتلقي منها التأكيد له والترغيب فيه، أضف ذلك أن قول الحق سبحانه وتعالى: [كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ] فيه تطيب للنفس. لأنه عبادة شاقة، والأمور الشاقة إذا عمت كل الناس سهلت وسهل تحملها ورجب فيها كل الناس.

ولهذا التشبيه أيضا أثر على إقناع المخاطبين يكمن في حثهم على الاهتمام، بهذه العبادة لأنها شرعت لمن كانوا قبل المسلمين من لدن آدم عليه السلام وشرعت للمسلمين.

(1) -ينظر: المصدر نفسه، ص 91.

النموذج الثامن:

قال الله تعالى: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] (1)

إن الآية الكريمة تبين أن أهل الكتاب يعرفون الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم "بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم، بُشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ببعثه وصفته، وبلده ومهاجره وصفة أمته" (2).

فبعد أن خاطب الله المشركين على لسان (3) رسوله ρ انتقل إلى إخبار عام كسائر أخبار القرآن.

ولقد تضمنت الآية الكريمة تشبيها يكمن في تشبيه معرفة أهل الكتاب للقرآن

(1) -سور الأنعام، الآية 20.

(2) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 104.

(3) -مخاطبة الله المشركين على لسان رسوله هي قوله تعالى: [يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة....].

بمعرفة أبناءهم، ووجه الشبه هو «لتحقيق والجزم بأنه هو الكتاب الموعود به»⁽¹⁾. والضمير المنصوب في قوله [يَعْرِفُونَهُ] عائد إلى القرآن^(*)، ولقد تضمنت الصورة البيانية إقناعا يكمن في ذلك الدليل القاطع على صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. أضف إلى ذلك أن الصورة البيانية توحي بأن معرفة أهل الكتاب للقرآن معرفة خاصة وواضحة لا يرقى إليها شك أبدا. وذلك لأن الشخص لا يضل عن معرفة ابنه، فكذلك هم لا يضلون عن معرفة القرآن. كما أن الآية الكريمة تحمل إقناعا عن طريق الصورة البيانية لأهل الكتاب يكمن في أنهم عارفون تمام المعرفة ولكنهم معاندون متكبرون، وأن عدولهم عن القرآن ليس معناه أنهم غير عارفين [بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ]⁽²⁾.

ثم قال تعالى: [الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ]، ففي هذا إيضاح لتصلب المشركين وإصرارهم وهم "المراد بالذين خسروا أنفسهم"⁽³⁾ وفي هذا إقناع للمخاطب بتغطرس المشركين وتصلبهم وإصرارهم على الكفر ولقد أقيمت عليهم الحجة وقطعت المعذرة وأنهم مصررون على الكفر حتى ولو شهد بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب⁽⁴⁾.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص171.

(*) - اختلف العلماء في عودة الضمير للمنصوب، فمنهم من رأى أنه عائد إلى الرسول p ومنهم من يرى أنه عائد إلى القرآن، ولقد ذهب الطاهر بن عاشور إذ له في ذلك مناقشة وترجيح.

(2) - سورة الزخرف، الآية: 22.

(3) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص171.

(4) - ينظر: المصدر نفسه، ص171.

النموذج التاسع:

قال تعالى: [وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَكُفٌّ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (1).

الآية الكريمة تصور حالة المكذبين (*) بآيات الله ولكن المعنى الذهني جاء في صورة حسية متحركة، إذ يرتسم في الخيال صورة هؤلاء وهم لا يسمعون، ولا يتكلمون، ويضربون على غير هدى في الظلمات.

وتوحي كل من كلمة "صم، بكم، الظلمات" بالغرق في الضلال المبين "لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطلة إنهم صم لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون" (2).

فالآية الكريمة تحمل فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها وعليه يحصل الإقناع لاسيما وأسلوب التصوير عامل أساسي من عوامل تقريب الفهم وتشخيص المعاني وإثارة النفس

(1) -سورة الأنعام، الآية: 39.

(*) -المكذبون هم المشركون، قال الطاهر بن عاشور: والمراد بالذين كذبوا المشركون، ينظر التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، م4، ج7، ص218.

(2) - سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1985، م2، ج9، ص1080.

كي تستقر فيها المعاني وفي أعماقها.

ولقد تضمنت الآية الكريمة تشبيها يكمن في تشبيه المشركين بالصم والبكم وشبه الكفر الذي هم فيه بالظلمات، ولقد مُثلوا في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم لا يسمع وأبكم لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلام لا يبصر فكيف يهتدي إلى الطريق؟.

إن للصورة البيانية الواردة في هذه الآية الكريمة دور هام في إقناع المشركين بأنهم في طريق مظلم وأنهم متمسكون بالباطل أشد تمسك. وكلمة «ظلمات» توحى بالظلمة الشديدة واجتماع الظلمات المتعددة كظلمة الكفر، وظلمة الجهل وظلمة العناد⁽¹⁾.

كما أن لكل من الخبر المعطوف عليه والمعطوف والخبر الثالث⁽²⁾ دورا هاما في إقناع المخاطبين على وجه العموم، فهذه الحالة لها أثر يتمثل في الخوف والرعب من إتباع سبيل المكذابين، ويكمن الإقناع في التهديد من إتباع طريق المكذابين. وأن من اتبع هذا الطريق فذاك مصيره، كما تحمل الصورة البيانية إقناعا يتمثل في التحذير من التكذيب بآيات الله، وقوله تعالى: [مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] قال ابن كثير: "أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء"⁽³⁾. ولا سبيل إلى الخوض في المسائل الكلامية وسرد أقوال المتكلمين، والقول ما قاله ابن كثير وبه أقول.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص 219.3

(2) - ينظر: أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج1، ص 367.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 1054.

النموذج التاسع:

قال الله تعالى: [قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ].

جاء في كتاب العين: «أن حيران: تائه، والجميع حيارى وامراً حيرى»⁽¹⁾. ومعناها في الآية: "تائها ضالا عن الجادة لا يدري كيف يصنع"⁽²⁾.

في الآية الكريمة إقرار بوحدانية الله وعبوديته، وكراهية الارتداد على الأعقاب وتبين الآية " ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده واتخاذه وحده إلها، والدينونة له وحده بلا شريك"⁽³⁾. ثم إن كراهية الارتداد على الأعقاب مثلت بصورة فنية رائعة [كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا]. إذ مثلت بالذي استهوته الشياطين في الأرض أي "كالذي ذهبت به مرده الجن والغيلان"⁽⁴⁾.

(1) - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ص 224.

(2) - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص28.

(3) - سيد قطب، في ظلال القرآن، م2، ج وص 1131.

(4) - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص28.

إن الآية الكريمة تبين الضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يكون قلبه موزع بين الإله الواحد والآلهة المتعددة من العبد، ويكون إحساسه مفرق بين الهوى والضلال فيذهب في التيه⁽¹⁾.

وجاء التصوير القرآني العجيب بتلك الصورة الرائعة لذلك المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض" ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله، ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون له راحة ذي القصد الموحد، ولو كان في طريق الضلال. ولكن هناك من الجانب الآخر، إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه [أئتنا]. وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» موزع القلب، لا يدري أي الفرقين يجيب ولا أي الطرفين يسلك فهو قائم هناك شاخص متلفت⁽²⁾.

والآية الكريمة ترسم في الخيال مشهدا لهذا المخلوق التعيس الحيران وقد استهوته الشياطين، وترسم في الخيال أيضا صورة لأصحابه الذين يدعونه إلى الهدى وهو حيران لا يدري أين يتجه، فالعذاب يرتسم ويتحرك حتى يكاد يُرى من خلال التعبير.

فأسلوب التصوير وعن طريق هذه الصورة الفنية قرب للذهن ووضح له معنى الارتداد على الأعقاب. ولقد وقع التمثيل بهيئة متخيلة مبنية على اعتقاد المخاطبين في أحوال الممسوسين.

فالكاف في محل نصب حال من الضمير في «نرد» وقوله: «في الأرض» متعلق باستهوته، «الذي» يجوز أن يكون مفردا وأن يكون جنساو «حيران» حال ثانية⁽³⁾.

والآية الكريمة ركبت تركيبا بديعا صالحا⁽⁴⁾ للتفكيك بأن يُشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بها، فيشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون ويشبه الكفر بالهيام

(1) - سيد قطب، في ضلال القرآن، م2، ج9، ص 1131.

(2) - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط13، دار الشروق، القاهرة، 1993، ص44.

(3) - ينظر: أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج1، ص378.

(4) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص302.

في الأرض، ويشبه المشركون الذين دعوهم إلى الارتداد بالشياطين، وتشبه دعوة الله الناس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى⁽¹⁾.

إن الصورة البيانية التي تضمنتها الآية الكريمة لها أثر هام ودور فعال في إقناع من أراد الارتداد إلى ضلالة الشرك بعد هدي الإسلام، ومما يزيد في إقناع المخاطب هو تمثيل المرتد بالذي فسد عقله باستهواء الشياطين، والجن له، فتاه في الأرض، كما أن لفظة «حيران» توحى بالحيرة الشديدة إذ لها أثر فعال في إقناع المخاطب بسوء حالة المرتد.

ومما يزيد المخاطب إقناعا هو حالة هذا المرتد بعد أن كان عارفا عاقلا. ثم إن لكل من الضمير الواقع في موضع حال، والحال والجملة الواقعة حالا، الأثر العظيم في الإقناع وذلك عن طريق تصوير الحالات التي عليها من ارتد، ثم إن الانتقال من الجمع إلى المفرد روعة في التصوير الدقيق، فبعد أن استعمل ضمير الجمع، انتقل إلى المفرد ليصور حالة شخص واحد، لا أنسة ولا صحبة له وهذا ما يوحي بشدة هول الحالة التي ينجر عنها إقناعا تاما للمخاطبين بأن الارتداد عن الدين الإسلامي الحنيف، زيغ وهلاك، ومصير مشئوم، ولقد كان للصور البيانية الأثر الهام في إقناع المخاطب بالتمسك بالدين والابتعاد عن الارتداد وسبيل المشركين.

أضف إلى ذلك أنه من خلال التعبير القرآني يصبح المشهد كأنه محسوس ملموس.

«وبينما ظل هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحى يغمر النفس بالوحد من هذا المصير التعيس، يأتي التقرر الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم»⁽²⁾. [قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] إنه تقرير حاسم في ظرف نفسي مناسب، ثم إن النفس التي ارتسمت لها صورة الحيرة والعذاب المرير تكون أقرب إلى استقبال القرار

(1)-المصدر نفسه، ص 203.

(2)- سيد قطب، في ضلال القرآن، م، 2، ج، 9، ص 1132.

الحاسم بالراحة والتسليم⁽¹⁾.

إن لهذا التصوير الفني دور هام وفعال في إقناع المخاطب، فبعد تصوير المعاني وتشخيصها يأتي القرار الحاسم الذي يطمئن إليه المخاطب ويلين له قلبه، وهل يفر عقل من هذا.

المبحث الثاني: الاستعارة ودورها في الإقناع:

أ- تعريفها:

- لغة: العارية والعارية: ما تداولوه بينهم وقد أعاره الشيء وأعار منه وعاوره إياه، والمعاورة والتعاور شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين وتعود استعار طلب العارية واستعار الشيء واستعاره منه طلب منه أن يعيره إياه⁽²⁾.

- اصطلاحاً: لقد تعددت تعاريف الاستعارة عند علماء البيان منها ذ: هي " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه⁽³⁾.

ويعرفها الجرجاني بقوله: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختصى به حين وضعه، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك

(1)-المصدر نفسه، ص 1132.

(2)- ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص618.

(3)- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص268.

كالعارية»⁽¹⁾.

أما معنى قوله لفظ الأصل، فهو استعمال اللفظ فيما وضع له أولاً عند اصطلاح التخاطب أي وضعاً حقيقياً، وحين الاستعارة يستعمل في غير ذلك الأصل كالعارية، ومن تعاريفها أيضاً: «هي اللفظ المستعمل فيما يشبه معناه الأصلي، لعلاقة المشابهة أو هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، أو هي مجاز عقلي علاقته المشابهة، أو هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه مع وجود قرينة تدل على المحذوف، ولا يقوم مجاز بلا قرينة»⁽²⁾.

قلت: يعني أن هذه التعاريف كلها تبين أن الاستعارة هي استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي ولعلاقة المشابهة، وعليه يمكن القول: أن الاستعارة مجاز لغوي^(*) علاقته المشابهة، وهي أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له وذلك كله من أجل أغراض يسعى إليها المخاطب بغية التوصل والإيضاح للمخاطب، ويصح تسميتها تشبيه حذف أحد طرفيه، فلا تخلو أن تكون تشبيهاً ذو طرف واحد، وجرّد عن الأداة ووجه الشبه.

ب- أركان⁽³⁾ الاستعارة:

كما أن للتشبيه أركان فإن الاستعارة هي الأخرى لا تخلو من أن يكون لها أركان وهي:

1- مستعار منه: وهو المشبه به.

2- مستعار له: وهو المشبه. ويطلق عليهما الطرفان.

3- مستعار: وهو اللفظ المنقول.

ج- قرينة الاستعارة:

قرينة الاستعارة قسمان⁽¹⁾:

(1) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 31.

(2) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص 151.

(*) - ذهب جمهور البيانين إلى أن الاستعارة مجاز لغوي ينظر هذا القول في كتاب: التفنازي، المطول، ص 582.

(3) - ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 277.

1-حالية: تفهم من سياق الحديث نحو رأيت قسا يخطب.

2-مقالية: سواء كانت معنى واحد نحو يرمي بالسهام مثل : رأيت أسدا يرمي

بالسهام.

د-أقسام الاستعارة:

يقسم البلاغيون الاستعارة باعتبار الطرفين وباعتبار الجامع وباعتبار الثلاثة

وباعتبار آخر إلى أقسام.

هـ-تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين^(*):

تنقسم الاستعارة باعتبار طرفيها إلى قسمين: عنادية ووافقية.

1-العنادية: وهي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد "كاستعارة المعدوم

للموجود لعدم غنائه"⁽²⁾ أو كاجتماع النور والظلام.

2-الوافقية: وهي التي يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد كقوله تعالى:

[أَوْ مَنْ كَانَ مِيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ...]⁽³⁾. أي ضالا فهدينا.

ثم العنادية قد تكون تلميحية وقد تكون تهكمية. "وهما ما استعمل في ضده أو

نقيضه"⁽⁴⁾. مثل رأيت أسدا تريد جبانا قاصد التلميح والظرافة، أو التهكم والسخرية اللتان

نزل فيهما التضاد منزلة التناسب كقوله تعالى: [فَبَشِّرْهُمْ^(**) بِعَذَابٍ أَلِيمٍ]⁽⁵⁾.

(1)-ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص314.

(*)- المقصود بالطرفين هما المستعار منه أي المشبه به والمستعار له أي المشبه.

(2)- القزويني، تلخيص المفتاح، ص154.

(3)-سورة الأنعام، الآية:122. [أَوْ مَنْ كَانَ مِيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ].

(4)-تلخيص المفتاح، ص 154.

(**) - أي أنذرهم فقد استعملت البشارة التي هي إخبار بما يدخل السرور والإنذار الذي هو ضدها.

(5)-سورة الانشقاق، الآية:24.

و- تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع⁽¹⁾:

تنقسم الاستعارة باعتبار الجامع إلى داخل وخارج:

الأول: أن يكون الجامع داخل في مفهوم الطرفين (المستعار منه والمستعار له)، كاستعارة النثر لإسقاط المنهزمين وتفريقهم⁽²⁾. في قول أبي الطيب^(***):

نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَدِ نَثْرَةً كَمَا نَثَرْتُ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمَ⁽³⁾.

فالنثر هو أن تفرق الأشياء بعد جمعها، والمراد من البيت أن المنهزمين سقطوا دفعة واحدة بلا ترتيب كما تُنثر الدراهم فوق العروس.

وقد استعار الشاعر لما تضمنه ذلك التفرق.

الثاني: أن يكون الجامع غير داخل في مفهوم الطرفين كاستعارة الأسد للرجل الشجاع والشمس للوجه المتهلل، ومثل وردت بحرا يتهلل وجهه، فالجامع هو الجود، غير داخل في مفهوم الطرفين.

ز- تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع أيضا:

تنقسم الاستعارة باعتبار الجامع أيضا إلى عامية وخاصية.

1- عامية: وهي المبتدلة لظهور الجامع فيها⁽⁴⁾ فهذا النوع من الاستعارة ظاهر وواضح فيه الجامع مثل رأيت أشدا. ووردت بحرا، فإن الجامع بيّن ففي الأول أنك تريد

(1) -الجامع هو: ما قصد اشتراك الطرفين فيه وهو الذي يسمى في التشبيه وجها وهنا جامعا... (من كتاب المطول التفنازاني، ص 586).

(2) - أحمد مصطفى المراغي، جواهر البلاغة، ص 317.

(***) -المتنبي: هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي، المعروف بالمتنبي، الشاعر المشهور، وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار -الله أعلم-، توفي سنة 354هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج 1، ص 120-123.

(3) -ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهرسه: مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دط، دار الفكر، دم، مج 3، ص 388.

(4) - الخطيب الفزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 205.

رجلا شجاعا وفي الثاني تريد إنسانا جوادا كريما، فالجامع لا يخفى.

2-خاصية: وهي الغربية التي لا يظفر بها إلا من ارتفع عن طبقة العامة⁽¹⁾ فلا يكون الجامع ظاهرا كما في العامية، وهذا النوع من الاستعارة نادر لا تجده إلا في كلام الفحول، ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال⁽²⁾، كقول الشاعر^(*):

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ بَيْنَنَا وَسَأَلْتِ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحِ⁽³⁾.

أراد أن سيرها كان حثيثا في غاية السرعة، وهذه السرعة في لين وسلاسة كأنها سيولا وقعت في تلك الأباطح، فجرت بها. والغرابية على ضروب، ولا مجال لإطالة الكلام هنا، لأنني تطرقت إلى أنواع الاستعارة بشكل مختصر.

ح-تقسيم الاستعارة باعتبار أركانها الثلاثة^(*):

تنقسم الاستعارة باعتبار طرفيها والجامع إلى ستة أقسام:

1-الطرفان حسيان والجامع حسي: يعني استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي كقوله تعالى: [فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا]⁽⁴⁾. فالمستعار منه ولد البقرة والمستعار له الحيوان الذي خلقه الله من حلي القبط والجامع الشكل، والجميع حسي.

2-الطرفان حسيان والجامع عقلي: وهو استعارة محسوس لمحسوس والجامع عقلي كقول الحق سبحانه وتعالى: [وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ]⁽⁵⁾، فالمستعار منه كشط الجلد عن نحر الشاة، والمستعار له: كشف الضوء عن مكان الليل وهما حسيان،

(1)-المصدر نفسه، ص120.

(2)- الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص120.

(*)-لم أقف على اسم الشاعر.

(3)-البيت أوردته كتب الأدب والبلاغة ومختلف في نسبته.

(*)- لقد تبينت التقسيمات الواردة في كتاب تلخيص المفتاح للقرظيني ص155-157.

(4)-سورة طه، الآية: 88. وتتمتها: [فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي].

(5)-سورة يس، الآية: 37 وتتمامها [فَبِأَيِّ حُجَّتِ أُمَّةٌ مُظْلِمُونَ].

والجامع ما يعقل من ترتب أمر على آخر وهو عقلي⁽¹⁾.

3-الطرفان عقليان: والجامع مختلف فيه: كقولك رأيت شمسا وأنت تريد إنسانا كالشمس في حسن الطلعة ونباهة الشأن.

4-الطرفان عقليان والجامع عقلي: نحو قوله تعالى: [يَقَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ]⁽²⁾.

"فالمستعار منه: الرقاد، والمستعار له، الموت، والجامع عدم ظهور الفعل والجمع عقلي"⁽³⁾.

5-الطرفان مختلفان والجامع عقلي: يعني استعارة محسوس لمعقول، كقوله تعالى: [فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ]⁽⁴⁾. «فالمستعار منه صدع الزجاجاة-وهو كسرهما- وهو حسي والمستعار له تبليغ الرسالة والجامع لهما التأثير، وهما عقليان كأنه قيل أبن الأمر إبانة لا تتمحي كما لا يلتئم صدع الزجاجاة»⁽⁵⁾.

6-الطرفان مختلفان والجامع عقلي: يعني استعارة معقول لمحسوس كقوله تعالى: [إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ]⁽⁶⁾.

«فالمستعار منه التكبر وهو عقلي، والمستعار له: كثرة الماء وهو حسي والجامع الاستقلاء المفرط، وهو عقلي»⁽⁷⁾.

ق-تقسيم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار:

(1)-ينظر: الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص156.

(2)-سورة يس: الآية: 52.

(3)- الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص156.

(4)-سور الحجر، الآية: 94.

(5)- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص208.

(6)- سورة الحاقة، الآية: 11، والجارية: السفينة.

(7)- القزويني، تلخيص المفتاح، ص156.

تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار إلى قسمين:

1-أصلية: وهي التي يكون فيها اللفظ المستعار اسم جنس: وهو الذات الصالحة لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلا نحو أسد⁽¹⁾. وفيل وغيرهما، وكقولك رأيت اليوم حاتما....

2-تبعية: وذلك إن لم يكن اللفظ اسم جنس⁽²⁾ كالفعل وما يشتق منه (كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة وأفعال التفصيل، وأسماء الزمان والمكان والآلة، والحرف).

ي-تقسيم الاستعارة باعتبار آخر (*):

تنقسم الاستعارة باعتبار الخارج^(**) إلى ثلاثة أقسام:

1-مطلقة: وهي التي لم تقترن بصفة^(***) تلائم المستعار له أو المستعار منه⁽³⁾ أي منه⁽³⁾ أي التي لم تقترن بما يلائم المشبه والمشبه نحو «ينقضون عهد الله»⁽⁴⁾.

2-مجردة: وهي التي قرنت بما يلائم المستعار له⁽⁵⁾ فالاستعارة المجردة هي التي تقترن بما يلائم المشبه نحو اشتر بالمعروف عرضك من الأذى.

3-مرشحة: وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه⁽⁶⁾ فهذا النوع من الاستعارة يقترن بما يلائم المشبه به، نحو قوله تعالى: [أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا

(1) - المراغي، علوم البلاغة، ص225.

(2) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص156.

(*) - ينظر هذا التقسيم في كتاب تلخيص المفتاح، القزويني، ص158.

(**) - المقصود بالخارج هو اعتبار ما يتصل بها من الملائمات وعدم اتصالها أي باعتبار ذكر الملائم المستعار منه أو باعتبار ذكر ملائم المستعار له أو باعتبار عدم اقترانها بما يلائم أحدهما.

(***) - المقصود بالصفة، الصفة المعنوية وليس النعت أو الصفة المتعارف عليها عند النحاة.

(3) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص158.

(4) -سورة البقرة، الآية:16.

(5) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص158.

(6) -المصدر نفسه، ص 158.

رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ⁽¹⁾، فقد استعار الشراء للاستبدال والاختيار، ثم فرع عليها بما يلائم المستعار منه من الربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الشراء، والترشيح الذي هو ذكر ملائم المستعار منه، أبلغ من الإطلاق والتجريد وذلك لاشتماله على تحقيق المبالغة في التشبيه.

ك- تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين أيضا:

تنقسم الاستعارة باعتبار المشبه والمشبّه به إلى قسمين:

تصريحية ومكنية:

1- الاستعارة التصريحية: وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به نحو قولك جلست مع أسد وأنت تريد رجلا شجاعا كالأسد. ولا سبيل إلى إطالة الكلام حول الاستعارة التصريحية، إذ أكتفي بهذا التعريف البسيط وهذا المثال الأبسط.

2- الاستعارة المكنية: وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بأحد الرموز أو اللوازم، كقول الحق تبارك وتعالى: [وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ]⁽²⁾ حيث شبه الذل بالطائر بجامع الخضوع وحذف الطائر ورمز إليه بشيء من لوازمه ألا وهو الجناح، فاستعير الطائر للذل «وإثبات الجناح استعارة تخيلية وهي قريبة المكنية»⁽³⁾.

ل- دور الاستعارة في الإقناع:

إن للاستعارة دورا هاما في الإقناع، فالاستعارة تقريب للمعاني وتجسيد لها، ولا سيما أن المجاز أبلغ من الحقيقة، فهي تدني البعيد وتقع في النفس موقعا هاما ولها تأثير

(1)-سورة البقرة، الآية: 16.

(2)-سورة الإسراء، الآية: 24.

(3)- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص 322. تنبيه: مذهب السلف، أن المكنية اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبّه وأن إثبات لازم المشبه به للمشبّه استعارة تخيلية، ومذهب القزويني أن المكتبة هي التشبيه المضمّر في النفس المرموز إليه لإثبات لازم المشبه به للمشبّه وهذا لإثبات هو الاستعارة التخيلية، ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 217.

على السامع "وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعا ونزلت موضعا"⁽¹⁾.

ولها فائدة في إقناع المخاطب وذلك لأن وجودها مرتبط بمعنى من المعاني أو غرض من الأغراض فلولاها لم يحصل ذلك الغرض ولم يتحقق الإقناع، أضف إلى ذلك أنها وسيلة من وسائل التوصيل، إذا وقوعها في نفس السامع له تأثير على عقله، حيث يستقر الغرض في ذهنه، والاستعارة: «أمد ميدانا وأشد افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا وأذهب نجدا في الصناعة وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونها وضروبها، نعم وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ، صدرا ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تهدي إليك عذارى قد تخير لها الجمال، وعني بها الكمال، وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتها الجواهر مدت في الشرف والفضيلة باعا لا يقصر وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تتكرر... ثم تصوغ فيها صياغات تعطل الحلي، وتريك الحلي الحقيقي، وأن تأتيك الجملة بعقائل يأنس لها الدين والدنيا⁽²⁾.

فالاستعارة إيضاح وبيان، ومتى كان الإيضاح والبيان حصل الإقناع فاللفظة الواحدة تكتسب فوائد كثيرة، وتعطي الاستعارة معاني كثيرة بألفاظ قليلة موحية مؤثرة على الخيال والعقل حتى لا يجد المخاطب باب يسعه غير باب الإقناع، فلها الدور الهام في الإقناع لأنها ذات ابتكار وروعة خيال لأنها تشخص الأمور تشخيصا وترسم المعاني رسما وتجسدها تجسيدا حتى أنها تكاد أن تكون مرسومة أمام عين المخاطب وهو ينظر إليها. رأي العين، فهذه الصور وهذه الرسومات تزيد العقل تأثيرا، والقلب انجذابا وعليه ينقاد المخاطب انقياد نحو الإقناع والافتناع ولا سبيل له إلا ذلك.

(1) - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ص268.

(2) - عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص40.

دراسة نماذج تطبيقية من الاستعارة في سورتي البقرة والأنعام ودورها في الإقناع

سبق أن أومأنا إلى دور الاستعارة في الإقناع. ولقد وردت في مواضع عديدة في سورتي البقرة والأنعام، وكان لها الدور الهام في إقناع المخاطبين، ووردت بثنتي أنواعها، فمن الاستعارة ما يلي.

النموذج الأول:

قوله سبحانه وتعالى: [الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] (1).

إن الآية الكريمة تصف الفاسقين الذين سبق ذكرهم، وقول الحق [الَّذِينَ يَنْقُضُونَ] (2). "في موضع نصب صفة للفاسقين (3)، والمراد من قوله: [يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ] "حججه القائمة على عباده الدالة لهم على صحة توحيدهم وصدق رسوله فكان ذلك ميثاقاً وعهداً على التمسك بالتوحيد (4) (*) فالحجج ساطعة على صحة التوحيد وصدق المرسلين، ونقضهم هذه الأمور هو عدم إقرارهم واعترافهم بها.

ونقضهم العهد أي تركهم العمل به وقوله تعالى: [وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ] قيل المراد به «كل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه» (5) أي تركوا وتخلوا عما أمر

(1) -سورة البقرة، الآية: 27. والآية التي قبلها هي قول الحق: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ].

(2) -النقض: في البناء والعهد وغيره: ضد الإبرام كالانتقاض والتناقض (القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص 677).

(3) - أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، بإشراف (مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، 2001، ج1، ص 42.

(4) - فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص 147.

(*) -اختلف العلماء في معنى العهد في الآية، ولقد اخترت ترجيح فخر الدين الرازي، لأنه الأقرب والله أعلم.

(5) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 162.

به الله سبحانه وتعالى. وقال ترجمان القرآن في قوله تعالى: [وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ] من الإيمان والأرحام «أن يوصل» بمحمد⁽¹⁾ وقوله: [أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] قيل المراد منه خاسرون: "بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة"⁽²⁾ ولا سبيل إلى سرد أقاويل ومذاهب العلماء في معاني الآيات إذ الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه لا يستدعي ذلك.

فقول الحق سبحانه وتعالى: [يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ] استعارة إذ النقض من روادف الحبل والنقض في اللغة «إفساد ما أبرمت من حبل أو بناء»⁽³⁾ وقال الطاهر بن عاشور: «النقض في اللغة حقيقة في فسخ وحل ما ركب ووصل، بفعل يعاكس الفعل الذي كان به التركيب»⁽⁴⁾.

فالنقض في الآية الكريمة مجاز في إبطال العهد، بقرينة إضافية إلى عهد الله عز وجل، واجتمعت في الآية الكريمة استعارتان^(*)، مكنية وتصريحية، وهاتان الاستعارتان توحيان بكفر الفاسقين وإعراضهم عما أمر به الله وكذلك عدم التفاتهم إلى الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله. وعلى صدق رسول الله .p

ولقد جاء التعبير القرآني بلفظة النقض، الدالة على الإفساد التام لهيأة الحبل، وهذا ما يوحي بصلاية قلوبهم المغلقة قال تعالى: [وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ] . أضف إلى ذلك أن الإفساد التام لهيأة الحبل يدل على عدم رجوعه كما كان، فانتهاء هذا يدل على انتفاء عودة الفاسقين إلى طريق الحق.

ثم نعتوا بأنهم يقطعون ما أمر الله بوصله وفعله وهذا ما يؤيد كون قلوبهم مغلقة وأن النور لا ينفذ إليها أبدا كما توحى الاستعارتان بأن قلوب الكفار ميتة وذلك نتيجة أفعالهم هذه، ثم نعتوا بأنهم مفسدون في الأرض وكلما ذكروا أخذتهم العزة بالإثم، فالجمل

(1) - ابن عباس، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، د. ط، د. د. دار الطبع، د، تاريخ، ص6.

(2) - السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، ص 244.

(3) - كتاب العين، الفراهيدي، ص282.

(4) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص 368.

(*) - تكمن المكنية في النقض أما التصريحية فتكمن في التشبيه بالعهد.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الفعلية المعطوفة كلها في موضع نصب صفة للفاستين إلا أن أول الصفات هي نقض عهد الله، فبعد النقض جاء القطع والفساد في الأرض. فإن قلت لما قدم النقض على القطع والفساد؟ قلت: لأن وجود الكل يستلزم عنه وجود الجزء. فإذا وجد النقض الذي عدم الإقرار بالوحدانية وصدق الرسول ρ على الراجح، فإنه يوجد قطع ما أمر الله بوصله ويوجد الفساد في الأرض.

ويكمن دور الصورة البيانية في إقناع المخاطبين، في كون هؤلاء الفاسقين، لا يفقهون شيئاً ولا يعقلون كما أنهم لا يرجون الله لقاءً وأن من كفر وطبع على قلبه أصبح كالأنعام بل هو أضل منها.

وختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله [أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] فتعدد المبتدأ يفيد التوكيد، والخبر المفرد يوحى بخسرانهم المبين في الدنيا والآخرة.

النموذج الثاني:

ومنها قول الحق تبارك وتعالى: [يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي] (1).

يخاطب الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بني إسرائيل أمرا إياهم بحفظ نعمه التي أنعمها عليهم " وفي هذا إشارة إلى أنهم نسوها ولم يخطرورها ببالهم" (2) وقوله تعالى: [وَأَوْفُوا بِعَهْدِي] أي " أتموا عهدي في هذا النبي ρ" (3) وقوله تعالى: [أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ] [أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه وإتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر (4) والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي من إحدائكم (5).

والغرض من النداء لفت الانتباه، وبعد ذلك جاءت الأوامر كي تستقر في النفس موضعها.

إن الآية الكريمة تضمنت استعارة تمثيلية. حيث أستعير العهد المضاف إلى الضمير العائد على لفظ لجلالة " لقبول ما يكلفهم به من الدين" (6). كما استعير العهد المضاف إلى ضمير المخاطبين للوعد على الإيفاء بالثواب في الآخرة والنصر في الدنيا، فكل من العهدين مجاز مفرد.

ولقد شبهت الهيئة الحاصلة من قولهم لما أمرهم الله به، وأن لا يقصروا في العمل ومن وعد الله إياهم على ذلك بالثواب بهيئة المتعاقدين على التزام كل منهما بعمل للآخر ووفائه بعهده في عدم الإخلال به فاستعير لهذه الهيئة الكلام المشتمل (7) على قوله: [وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ] فهو من باب الاستعارة التمثيلية كما سبق وأن ذكرت، ووجه استعارة العهد، هو قبول التكاليف والدخول في الدين.

(1) - سور البقرة، الآية: 40.

(2) - أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ص 99.

(3) - ابن عباس، تنوير المقياس من تفسير، ص 8.

(4) - الإصر: النقل، والأصل الحبس. الخليل، كتاب العين، ص 28-29.

(5) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص 185.

(6) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 1، ج 1، ص 453.

(7) - المصدر نفسه، م 1، ج 1، ص 453.

ولقد كان لهذه الاستعارة أثر هام على الإقناع، ويكمن هذا الأثر في استعارة العهد المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة لما كلفوا به من الإيمان والطاعة، ويكمن سر الإقناع في مخاطبتهم بالعهد، لأنه معروف عندهم في كتبهم⁽¹⁾ وكذلك استعارة العهد المضاف إلى المخاطبين للوعد بالثواب توجي بتربيتهم إلى الدخول في الدين.

ومما زاد في إقناعهم هو أمرهم بذكر نعم الله عليهم وعلى آبائهم وأجدادهم ثم بعده الأمر بالإيفاء. فالتذكير بالنعم فيه تطيب للنفس، وراحة لها وعليه يستقر فيها الأمر ويلبى بالإجابة والله أعلم.

وقوله تعالى: «وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي»⁽²⁾. فقد جاء في إرشاد العقل السليم أن المراد منها «فيما تأتون وما تدرّون خصوصا في نقض العهد وهو أكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه من التقديم من تكرير المفعول»⁽³⁾. فتقديم المفعول به على عامله يفيد القصر القصر والاختصاص أي لا تكون الرهبة إلا من الله سبحانه وتعالى. وتدل إلغاء الجزئية «على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إن كنتم راهبين شيئا فارهبون والرهبة خوف معه تحرز»⁽⁴⁾. ولقد كان للاستعارة التي تضمنتها الآية أثر على إقناعهم ويكمن ذلك في الوعد والوعيد الذين تضمنتهما الآية كما ساهمت في تقريب المعاني إلى أذهانهم وذلك عن طريق التشبيه وهذا مما زاد المعنى وضوحا، وإقناعا للمتلقي. ومما زاد في الإقناع هو ختام الآية الذي جاء فيه الأمر بالرهبة.

النموذج الثالث:

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص453.

(2) - رهب: كعلم، رهبة ورهبانا بالضم وبالفتح وبالفتح وبالضم، ورهبانا، بالضم ويحرك: خاف. لقاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص 119.

(3) - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، ط2، دار إحياء التراث العربي، لبنان، 1990، م1، ج1، ص 95.

(4) - المصدر نفسه، ص 95.

ومنها قوله تعالى: [وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ] (1).

إن الآية الكريمة تتحدث عن بني إسرائيل وتصفهم بأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة أي لا يزالون مستذلين، ومن وجدهم استدلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار. أذلهم الله وجعلهم تحت أقدام المسلمين (2). ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط (3)، وسبب ذلك هو استكبارهم عن إتباع الحق وكفرهم بآيات الله سبحانه وتعالى وإهانتهم الأنبياء وأتباعهم، بل تعدوا إلى قتل الأنبياء فجازاهم الله عز وجل بأن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأعو بغضب من الله.

ولقد تضمنت الآية الكريمة استعارة تكمن في قول الحق. [وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ] فقد جعلت محل الذلة والمسكنة محيطة بهم كإحاطة البيت أو القبة.

فالاستعارة توحى بالذل الشديد الذي أصاب هذه الطائفة كما توحى بالفقر المتقع الذي حل بهم ويكمن إقناع المخاطب في التعبير عن كل من الذلة والمسكنة بالضرب عليهم، فهذا يجعل المخاطب يشم رائحة المعنى قوية. أضف إلى ذلك أن الاستعارة الواردة في الآية الكريمة تجسد المعنى وتجعل المخاطب يتخيله في ذهنه حتى كأنه يرى بعينه هذه الطائفة وقد أحيطت بها الذلة والمسكنة. وهذا مما يزيد في تقريب المعاني إلى الذهن، وإخراجها في قوالب محسوسة. وهذا مما يزيد قوة في الإقناع. ومما زاد في إقناع المتلقي هو ذكر سبب هذا الجزاء، وهذا السبب هو الكفر بآيات الله عز وجل وقتل الأنبياء، ولقد جاءت الآية الكريمة [وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ]. فإن قلت: إن قتل الأنبياء لا يكون إلا هذا الوجه، قلت الجواب من وجهين، الأول: إن الإتيان بالباطل قد يكون حقا عند الذي

(1) - تنمة الآية 61 من سورة البقرة قال الله تعالى: [وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ] .

(2) - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص211.

(3) - ينظر: المصدر نفسه، ص212.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

يأتيه. أما هم فقتلوا الأنبياء من غير أن كان ذلك القتل حقا في اعتقادهم وخيالهم. بل كانوا عالمين بقبحه ومع ذلك فعلوه. والثاني: أن هذا التكرير لأجل التأكيد⁽¹⁾.

وهذا مما يزيد قوة في إقناع المخاطبين بشناعة أفعال هذه الطائفة وكفرها بالله سبحانه وتعالى. ثم قال تعالى: [ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ]. فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول، وغرض التأكيد التبكيت ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى كفرهم ثم قتلهم الأنبياء ثم عصيانهم ثم اعتداؤهم فكل هذه الذنوب لها قوة في إقناع المخاطب بفضاعة كفر هذه الطائفة وبشاعة أفعالها.

كما كان للاستعارة أثر عظيم على إقناع المتلقي ويكمن ذلك في ذكر الوعيد، وأن من سلك مسلك هؤلاء يحل عليه ما حل بهم والله أعلى وأعلم.

النموذج الرابع:

قال الله تعالى: [بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]⁽²⁾.

(1) - ينظر: فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، م2، ج3، ص 103.

(2) - سورة البقرة، الآية: 81.

لقد تضمنت الآية الكريمة بيانا وتوضيحا لبني إسرائيل، وأبطلت ظنهم الذي يظنون فقال لهم عز وجل "ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به الخطيآت وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات، فهذا من أهل النار". والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشرعية فهم من أهل الجنة⁽¹⁾.

إن الآية تضمنت استعارة تكمن في قوله تعالى: [وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ] إذ شبهت الخطيئات بالشيء المحسوس وحذف المشبه به ولزم بأحد اللوازم وهي الإحاطة. ولقد كان لهذه الاستعارة الدور الهام في إقناع المتلقي وحصل هذا الإقناع عن طريق التخيل إذ أن المتلقي يتخيل إحاطة الأخطاء من كل جهة وجانب وهذا ما يوحي بانعدام العمل الصالح، ومن كان هكذا كان من الخالدين في جهنم والعياذ بالله، كما أن للاستعارة دورا آخر في إقناع المخاطب، وهو ترهيبه من إتباع مسلك الذي وصفته الآية، كما توحى بالخوف الشديد من سوء العاقبة.

أضف إلى ذلك أن الاستعارة شخصت المعنى وهذا مما زاده توضيحا وتقريبا إلى الأذهان، وقوة في المعنى وإقناعا للمخاطبين.

وقوله تعالى: [بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً] فبلى "إبطال لقولهم لن^(*) تمسنا النار إلا أياما معدودة"⁽²⁾ وقوله: [مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً] سند لما تضمنته بلى من إبطال قولهم أي ما أنتم إلا ممن كسب سيئة⁽³⁾. كما كان للاستعارة الأثر الهام في إقناعهم ببطلان ظنهم وما يزعمون.

إلى جانب هذا فلقد كان للاستعارة دورا هاما ومفيدا في إقناع من قالوا إن مرتكبي

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص234.

(*) - الآية التي قبلها [وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ] .

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص580.

(3) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص580.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الكبيرة من المسلمين يخلدون في النار، فلاستعارة بينت أن الخالدين في النار هم من أحاطت بهم الخطيئات، أي كانت أعمالهم كلها خطيئات، أما المسلم فلا يخلو من أعمال صالحة وإن قلَّت، فهذا إقناع لهم عن طريق الصورة البيانية، ورد عليهم.

النموذج الخامس:

قال الله تعالى: [بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ]⁽¹⁾.

(1) - سورة البقرة، الآية: 90.

إن الآية الكريمة تتحدث عن اليهود. فالله سبحانه وتعالى يذم فعلهم الشنيع المتمثل فيما باعوا به (*) أنفسهم وهو الكفر بما أنزل الله عز و جل وكتمان ما جاء به محمد p بأن يبينوه. أي «بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد p إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية»⁽¹⁾. كما أن كفرهم هذا كان نتيجة الحسد، كما كرهوا أن ينزل الله عز وجل الوحي من فضله على من يختاره من عباده ولا بغي أقبح من بغي من يريد الحجر على الله فلا يرضى أن يجعل الوحي في آل إسماعيل كما جعله من قبل في آل إسحاق⁽²⁾.

ومعنى قوله تعالى: [فَبَاءُوا. بَغْضٍ (*) عَلَى غَضَبٍ] قال ابن عباس: «فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم»⁽³⁾. [وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ] أي ولهم عذاب يصحبه إهانة وإذلال في الدنيا والآخرة بسبب كفرهم، فيصابون في الدنيا بالخزي والنكال والسوء، أما في الآخرة فيخلدون في جهنم والعياذ بالله.

لقد تضمنت الآية الكريمة استعارة تمثيلية تكمن في قوله تعالى: [اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ] ولهذه الاستعارة أثر هام على إقناع المتلقي. يكمن ذلك في ضلالهم البعيد، وبعدهم عن الصواب بعدا كبعد الأرض عن جو السماء. لأنهم اعتقدوا أنهم بأعمالهم تلك قد اشتروا أنفسهم فذمهم الباري سبحانه وتعالى. إذا مُثِلت حالهم بحال من حاول تجارة ليربح فأصابه الخسران، كما أن استهلال الآية بالفعل بئس له أثر عظيم على الإقناع إذ يفيد ذم الحالة

(*) -ذهب علماء التفسير مذاهب في معنى «اشترؤا» فمنهم من حمل معناها على البيع ومنهم من حمل معناها على الشراء، وذهبت في ذلك مذهب الرازي الذي رجح معنى الشراء على معنى البيع. قال: وهو الأصح عندي أن المكلف إذا كان يخاف على نفسه من عقاب الله يأتي بأعمال يظن أنها تخلصه من العقاب، الثواب فكأنه قد اشترى نفسه بتلك الأعمال فهؤلاء كاليهود لما اعتقدوا فيما أتوا به أنها تخلصهم من العقاب، وتوصلهم إلى الثواب فقد ظنوا أنهم قد اشترؤا أنفسهم، فذمهم الله تعالى وقال: «بئسما اشترؤا به أنفسهم» وهنا الوجه أقرب إلى المعنى واللفظ. ينظر:

التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، م2، ج3، ص183.

(1) - القول للسدي رحمه الله، ينظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج1، ص232.

(2) - تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، م1، ج2، ص168.

(*) -اختلفت الأقوال في المراد من الغضب، أعمها القول الذي اعتمده لأنه شامل والله أعلم.

(3) - ابن كثير، تفسر القرآن العظيم، ج1، ص243.

التي هم عليها أي كفرهم، ثم إن الإتيان بالمفعول له يبين سبب كفرهم وإعراضهم وهذا إقناع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن اليهود أشدّ عداوة للذين آمنوا كما قال الله تعالى في سورة المائدة [لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا] وقوله تعالى: [فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ] فيه استعارة ترسم في الخيال صورة ممثلة بمطية للغضب، وتوحي الصورة البيانية بشدة طغيان وكفر اليهود، كما أن لها دورا هاما في إقناع المخاطب بأن هذه الطائفة أشدّ كفرا، كما توحي بشدة الغضب عليهم وذلك عن طريق التمثيل لحالهم ومما زاد في إقناع المخاطب بذلك هو بيان سوء عاقبتهم. أي العذاب المهين الذي يخلدون فيه وبئس المصير، قال تعالى: [وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ]. وفي هذه الخاتمة لآية بيان وإقناع المخاطبين بتعذيب كل الكفار.

قال الفخر: « قوله: [وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ] له مزية على قوله ولهم عذاب مهين لأن العبارة الأولى يدخل فيها أولئك الكفار وغيرهم. والعبارة الثانية لا يدخل فيها إلا هم»⁽¹⁾.

النموذج السادس:

قال الله تعالى: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]⁽²⁾.

الآية تتحدث عن بني إسرائيل، ولقد عدد الله عليهم " خطأهم ومخالفتهم للميثاق

(1) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، طبعة طهران، م، 2، ج، 3، ص 184.

(2) - سورة البقرة، الآية: 93.

وعتوهم وإعراضهم حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه⁽¹⁾ إنهم عصوا الله عز وجل بعدما سمعوا وفهموا [أَلَوْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا] فهذا يدل على إضرارهم على الكفر. ولم يكتفوا بهذا بل صرحوا [قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا]^(*). وقوله تعالى: [وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ]. فقد قال قتادة^(**): «أشربوا في قلوبهم حبه، حتى خلس ذلك إلى قلوبهم»^(***) ثم ذم المولى سبحانه وتعالى ما يعتمدونه في قديم الدهر وحديثه، من كفرهم ومخالفتهم الأنبياء، ثم اعتمادهم في كفرهم بمحمد⁽²⁾.

فهذا من أكبر ذنوبهم وأشد الأمور عليهم. لأنهم كفروا بخاتم النبيين⁽³⁾. فكيف يدعون لأنفسهم الإيمان وقد فعلوا هذه الأفاعيل القبيحة من نقضهم المواثيق، وكفرهم بآيات الله وعبادتهم العجل؟⁽³⁾.

إن الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة موجه لليهود زمن النبي⁽⁴⁾، ولقد ذكر المولى عز وجل النعم التي أسبغها على آبائهم وأجدادهم وبين ما قابلوها به بالكفر والعصيان. وهذا يكمن فيه إقناعهم بأن آبائهم كانوا في ضلال مبين. لعلمهم يلتفتون ويؤمنون بالنبي⁽⁵⁾. ويفيد عطف الجملتين الفعليتين بيان ضلال بني إسرائيل وتوغلهم في الكفر. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على إقناع اليهود الموجودين زمن النبي⁽⁶⁾. بأن مسلك آبائهم مسلك كفر وطغيان، وهم قد سلكوه بكفرهم بمحمد⁽⁷⁾. وهذا أعظم ذنب اقتترفوه.

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص244.

(*) - اختلف علماء التفسير في معنى هذه الآية فمنهم من حمل الكلام على غير ظاهره كالسيد رشيد رضا، والمراغي، ومنهم من حمله على ظاهره كالرازي، ولقد ذهبت مذهب الرازي لأن معه الحجة المقنعة والشافية قال رحمه الله «صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز». الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج2، ص1، ج1، ص187.

(**) - قتادة: هو قتادة ابن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن كعب واسمه ظفر، شهد بدرًا وأصيبت عينه ووقعت

على خده يوم أحد، فأثنى النبي صلى الله عليه وسلم فغمر حدقته وردّها إلى موضعها، فكانت أصح عينيه، عاش 65 سنة، توفي سنة 23 هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص107.

(***) - اختلف العلماء في معنى هذه الآية والأقرب الذي اعتمدناه وقلنا به.

(2) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص245.

(3) - المصدر نفسه، ص245.

ولقد تضمنت الآية الكريمة استعارة تكمن في قوله تعالى: [وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ]. «فلاشراب هو جعل الشيء شارباً»⁽¹⁾. واستعير هنا لجعل الشيء متصلاً بشيء وداخل فيه، ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسريان، ولقد كان لهذه الاستعارة دور هام في إقناع المخاطب بحب بني إسرائيل العجل لأن: «إشراب الشيء الشيء مخالطته إياه وامتزاجه به»⁽²⁾. وهذا ما يوحي بتمسكهم بعبادة العجل. إذ تركوا ما جاء به موسى p ، وعبدوا العجل. وهذا إقناع لليهود زمن النبي p أن ما يزعمون أنهم مؤمنون به، باطل وضلالاً، وأن آبائهم وأجدادهم كانوا في ضلال مبين، وللاستعارة تشخيص للمعنى وتقريبه للأذهان ويكمن ذلك في بيان شغفهم بالعجل حتى بلغ حبهم له مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه.

وقوله تعالى: [وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ]، فإن المضاف محذوف، والعجل مفعول به، ولقد جاءت الآية الكريمة بأشربوا ولم تأت بشربوا لأن " الشراب الحقيقي لا يكون في القلب"⁽³⁾. ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية مخاطباً رسوله الكريم p. [قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]. فإن كنتم مؤمنين بشريعة، فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء، ونقض الميثاق، ولقد تضمنت خاتمة الآية الكريمة إقناعاً لليهود بأنهم ضالين، وأن ما يتبعونه باطلاً.

النموذج السابع:

قال الله تعالى: [يَأْيَيْهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ]⁽⁴⁾.
إن الآية الكريمة تضمنت أمراً بأكل بعض ما في الأرض من أصناف المأكولات التي من جملتها ما حرمه بعض الناس افتراء على الله من الحرث والأنعام أكلا حلالاً

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ص611.

(2) - السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، ص387.

(3) - المصدر نفسه، ص388.

(4) - سورة البقرة، الآيتان: 168-169.

طيبا. وتضمنت نهيا عن إتباع سيرة الشيطان لعنه الله ووسوسته في الأمر بالسوء والفحشاء، وأنه عدو الإنسان مبين ويأمر بالسوء والفحشاء كما يأمر بالقول على الله في دينه بلا علم ولا يقين أو كتحريم حلال وإباحة حرام⁽¹⁾.

إن الأسلوب القرآني في هذه الآية الكريمة جاء بالنداء أولا ثم بالأمر والغرض من ذلك والله أعلم هو لفت الانتباه، كي يستقر الأمر موضعه، فبعد النداء جاء الأمر بالأكل ثم بعد ذلك جاء النهي عن إتباع خطوات الشيطان. وفي قوله تعالى: [وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ] استعارة، إذ شبه المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به، بالذي يتبع خطوات السائرين، ولقد كان لهذه الاستعارة الدور الهام في تقريب المعنى وتشخيصه. إذ شبهت المعاصي بالخطوات، وشبه اقترافها بإتباع الخطوات، كما أن لهذه الاستعارة دورا هاما في إقناع المخاطب باجتتاب أوامر الشيطان لعنه الله، ومن بديع الأسلوب القرآني الإقناعي أنه جاء الأمر بالأكل مما في الأرض حلالا طيبا ثم جاء النهي عن إتباع خطوات الشيطان. إذ أن الأمر بأكل الحلال الطيب فيه تطيب للنفس وتعظيم لأمر الله عز وجل ونهيه. والنفس عند التطيب تقبل الأوامر والنواهي فبعد أن طُيِّبَتْ جاء النهي عن اقتراف المعاصي. كي تقبله النفس، وهذا ما يزيد في إقناع المخاطب، أضف إلى ذلك أن هذه الاستعارة لها الأثر الهام في إقناع المخاطب بخطورة الشيطان لعنه الله كما توحى بعبادة الشيطان للإنسان، وأنه يأمره بما حرم الله Y.

النموذج الثامن:

قال الله تعالى: [وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً⁽²⁾ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي

(1) -ينظر: المراغي، تفسير المراغي، م1، ج2، ص43-44.

(2) - الأكنة: جاء في: للفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1236-1237، مايلي: الكنى: بالكسر: وقاء الشيء وستره كالكنة والكنان بكسرهما والبيت ج أكنان وأكنة، وكنه، كنا وكنونا وأكنة، وكننه وأكنته: ستره.

وجاء معناها في: سيد قطب، ضلال القرآن، ط11، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1985 م، ج2، ص9، ج9، ص1065. أنها الأغلفة التي تحول دون أن تفتتح هذه القلوب فتفقه.

وجاء في تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، م2، ج3، ص121.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

آذَانِهِمْ وَفَرًّا⁽¹⁾ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ⁽²⁾.

إن الجملة الابتدائية معطوفة على الجمل الابتدائية التي قبلها من قوله: [الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ]. والضمير الواقع في محل جر بحرف الجر عائد إلى المشركين الذين الحديث معهم وعنهم ابتداء⁽³⁾ من قوله: [ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ].

فالآية الكريمة تتحدث عن المشركين^(*) الذين يجيئون ليسمعوا قراءة النبي .p ولكنها لا تجزي عنهم شيئاً، لأن الله تعالى جعل على قلوبهم أغطية لئلا يفهموا القرآن. وفي آذانهم صما عن السماع النافع فلا فهم عندهم ولا إنصاف⁽⁴⁾.

وقوله تعالى: [وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا] أي مهما رأوا من الدلالات والحجج البيئات، والآيات فلا يؤمنون بها⁽⁵⁾.

إن الآية الكريمة تحمل آليات متنوعة للإقناع منها العطف أي عطف الجملة الابتدائية على الجمل الابتدائية التي قبلها وهذا ما يوحي بصلابة المشركين وعنادهم وتمسكهم بكفرهم، ومنها التخييل في قوله: [وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ]. فالمعنى

(1) -الوقر: جاء في: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص517، أن الوقر: ثقل في الأذن، أو ذهب السمع كله وقد وفر، كوعد ووجل ومصدره وفر، بالفتح والقياس بالتحريك وجاء في كتاب في: سيد قطب، ضلال القرآن، م2، ج2، ص1065. أن الوقر: الصم.

(2) -سورة الأنعام، الآية: 25.

(3) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص178.

(*) -قال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية وأبيا ابن خلف استمعوا إلى رسول الله .p فقالوا للنضير يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنني أرى يحرك شفتيه يتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأئين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية وكان النضير كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستحلون حديثه فأنزل الله هذه الآية. أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، أسباب النزول، خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ شريف محمد عبد الرحمن، د.ط، دار التقوى، د.ت، ص132.

(4) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1048.

(5) -المصدر نفسه، ص1048.

الذهني خرج في صورة محسنة متخيلة تزيده بيانا. وإيضاحا، وتزيد المتلقي إقناعا، إذ صورت الآية الكريمة إعراض هؤلاء الكفرة الفجرة عن القرآن الكريم بأن على قلوبهم أكنة فصاروا لا يفقهون. فالقلب معطل عن وظيفته، وهذه الصورة الفنية لها أثر هام على إقناع المتلقي، بأن هؤلاء المشركين لا تجزي عنهم قراءة القرآن شيئا.

كما تضمنت الآية صورة بيانية تمثل في الاستعارة في قوله تعالى: [وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا] فالوقر مستعار لعدم فهم المسموعات. ولهذه الاستعارة أثر على إقناع المتلقي بعدم فهم المشركين القرآن، وإدراك معانيه. لأن وظيفة الأذن هي الأخرى معطلة. ثم إن جعل الأكنة على القلوب المراد به «تشبيه قلوبهم في عدم خلوص الحق إليها بأشياء محجوبة عن شيء، وأثبتت لها الأكنة تخيلا وليس في قلب أحدهم شيء يشبه الكنات»⁽¹⁾.

وكذلك الوقر في الأذان هو على سبيل المجاز^(*). والدليل على أن جعل الأكنة على القلوب والوقر في الأذان ليس على سبيل الحقيقة هو إسلام أبي سفيان، وعليه يكون المعنى: أن المشركين كارهون للقرآن لا يريدون سماعه ولا يريدون الاعتاظ به: والذي أفتق بذلك هو التخيل والاستعارة، فلقد حيل بينهم وبين تدبر القرآن واستبانة الحق منه.

فبعد ما جاء الأسلوب القرآني بالصورة الفنية التي لها الأثر الهام على إقناع المخاطب أعقبها بذكر معاندة المشركين ومكابرتهم، وذلك عند قوله تعالى: [وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا] وهذا ما يزيد المخاطب إقناعا من أن هؤلاء المشركين مهما رأوا من الآيات البيّنات والحجج والبراهين فإنهم لا يؤمنون. وهذا بيان حالهم الثابتة على الشرك.

ثم قال تعالى: [حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ]

[.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص 179.

(*) - إن جعل الأكنة على القلوب والوقر في الأذان في الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية، بالحجب والموانع الحسية، فإن القلب الذي لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذي وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شيء، والأذان التي لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالأذان المصابة بالثقل أو الصم لأن سمعها وعدمه سواء. ينظر: السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص347، 348.

"حتى" أفادت معنى الغاية⁽¹⁾ و"إذا" شرطية ظرفية و "جاؤوك" شرطها وهو العامل فيها، وجملة "يجادلونك" حال من ضمير الفاعل في جاؤوك وجملة "يقول" جواب "إذا".
إن الآية الكريمة زادت بيانا وإيضاحا لحالة المشركين كما زادت المخاطب إقناعا بمزاولتهم الشرك، ثم إن العدول من الإضمار إلى الإظهار في قوله [يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا] يزيد المخاطب إقناعا لزيادة التسجيل عليهم بالكفر وأنهم ما جاءوا طالبين الحق كما يدعون ولكنهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به⁽²⁾، ثم إن قولهم [إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ] غاية في الإقناع بأنهم قوم عمون متمسكون بالشرك. وذلك لعدولهم عن الجدل إلى المباهنة والمكابرة. وهذا حال من يفر من الحق.

النموذج التاسع:

ومنها قوله تعالى: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]⁽³⁾.

إن الله سبحانه وتعالى هو العالم بكل شيء، [إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ]⁽⁴⁾.

إن تقديم الظرف يفيد الاختصاص وهذا إقناع للمخاطب بأن العلم عند الله لا عند غيره، والعندية ليست عندية مكان، إنما عندية علم واستثثار. ثم إن لفظ "المفاتيح" يمكن أن

(1) - أبو البقاء العكبري، التبيان في إعراب القرآن، ج1، ص363.

(2) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص182.

(3) - سورة الأنعام، الآية: 59.

(4) - سورة لقمان، الآية: 34.

يكون المراد منه المفاتيح ويمكن أن يراد منه الخزائن⁽¹⁾.

فعلى التقدير الأول: استعارة تخيلية تنبني على مكنية بأن شبهت الأمور المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس المدخر بمخازن وخزائن مستوثق عليها بأقفال لا يعلم ما فيها إلا الذي بيده مفاتيحها، والقرينة هي إضافة المفاتيح إلى الغيب⁽²⁾.

إن لهذه الاستعارة التخيلية أثر هام على إقناع المخاطب بأن الله عز وجل عالم بجميع المعلومات والأشياء [إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ]⁽³⁾.

كما أن لهذه الاستعارة دورا هاما في إيضاح المعنى وتقريبه للأذهان ويمكن ذلك في أن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن، والعالم بتلك المفاتيح يمكنه أن يتوصل إلى ما في تلك الخزائن، «فكذلك ههنا الحق سبحانه وتعالى لما كان عالما بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة»⁽⁴⁾. ومما زاد المخاطب إقناعا هو إيضاح المعنى وتقريبه للأذهان.

وعلى التقدير الثاني أنها استعارة مصرحة إذ شبه العلم بالغيب في إحاطته وحجبه المغيبات ببيت الخزن، وهو تشبيه معقول بمحسوس، وفي هذا إقناع للمخاطب باختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته وأن الخلق في قبضة قدرته.

وقوله تعالى: [لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] مبنية لمعنى "عنده" فهي بيان للكلمة التي قبلها ومفيدة تأكيدا للجملة الأولى أيضا لرفع الاحتمال أن يكون تقديم الظرف لمجرد الاهتمام فأعيد ما فيه طريق متعين كونه القصر⁽⁵⁾ والضمير المتصل عائد إلى مفاتيح الغيب.

فهذا التأكيد له أثر على إقناع المخاطب بعلم الله عز وجل وأنه العالم بكل شيء. كما أن للقصر أثر هام على إقناع المخاطب بأن الله وحده لا شريك له هو العالم بالغيب

(1) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص8-9.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص270-271.

(3) - سورة آل عمران، الآية:5.

(4) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص09.

(5) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص271.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وبكل شيء. وقوله تعالى: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ]. فيه إقناع عظيم للمخاطب يكمن في أنه تعالى منزّه عن الضد والند، وتقريره الحصر⁽¹⁾ الذي أفاده قوله: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ]. ثم إن قوله: [لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] فيه إقناع للمخاطب بأن علم الله مستقل به.

ثم إن للحصر والاختصاص والقصر في الآية دورا هاما في إقناع المخاطب بنفي العلم عن غير الله.

وقوله تعالى: [وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ]. فمعطوف على قوله: [لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] أو على قوله: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ]. وهاتان الجملتان أفادتتا إثبات العلم لله ونفيه عن غيره. وعطفت عليهما جملة [وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ] التي تدل على «إثبات علم الله دون نفي علم غيره، وذلك علم الأمور الظاهرة التي قد يتوصل الناس إلى علم بعضها»⁽²⁾ ثم إن هذا العطف يفيد تعميم علمه تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر للناس. ولهذا العطف أثر على إقناع المخاطب بعلم الله المطلق، وأنه العالم بكل شيء ثم إن تقديم علمه بالغيبيات على علمه بالظواهر فيه سر عظيم. وله أثر عظيم على الإقناع ويكمن ذلك في بيانه سبحانه وتعالى لخلقه أنه وحده عالم بالغيب. ولا يشاركه في ذلك أحد.

ثم بيّن لخلقه أنه عالم بالأمور الظاهرة التي قد يعلم بعضها الناس. ثم إن جملة [وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ] متضمنة لمحسوس وذكر قضية عقلية مجردة وذكر مثلا من الأمور المحسوسة له دور هام في الإقناع.

والله سبحانه وتعالى أكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس فقال: [وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ]. وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر والبحر⁽³⁾.

(1) - الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص11.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص272.

(3) - ينظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص10.

إن كل من الحس والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يقنع بعظمة ذلك المعقول.

ثم إن تقديم البر على البحر له أثر على إقناع المخاطب بأن الله قد أحاط بكل شيء علما وذلك أن ما في البر مرئي. أما ما في البحر فمدرك بالحس. وأن إحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحر أكثر وأعظم وفيها من المخلوقات ما هو أعجب. وعليه فإن الخيال يستحضر صورة البر والبحر ثم يعرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ]. فيصير هذا المثال المحسوس مقويا ومكملا للعظمة الحاصلة تحت قوله [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ]. كما يزيد المتلقي إقناع بعظمة الله عز وجل وعلمه سبحانه وتعالى.

أضف إلى ذلك أن هذه الجملة غاية في إقناع المخاطب بأن الله عز وجل عالم بكل ما حوته الكرة وأنه تعالى عالم بجميع الجزئيات الزمانية لاسيما وأن الموصول للعموم فيشمل الذوات والمعاني.

قال تعالى: [وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا] .

فهذه الجملة معطوفة على قوله: [وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ] .

وفائدة هذا العطف "زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة، فأحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم⁽¹⁾. لهذا العطف أثر دقيق على إقناع المخاطب بأنه تعالى عالم بالجزئيات الدقيقة وبما أعظم منها. ثم إن هذه الجملة تجعل العقل يستحضر كل ما في وجه الأرض من مدن وقرى وجبال وتلال ونجم وشجر، " ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة إلا والحق سبحانه يعلمها"⁽²⁾. وهذا إقناع للعقل بأنه تعالى بكل شيء عليم.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص 272.

(2) - الفخر الرازي، التفسير م7، ج13، ص10.

ثم إن قوله تعالى: [وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ]. فهذا بيان لعظمة الله وأنه قد أحاط بكل شيء علما وقوله: [وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ] فهذا مثال أشد هيئة من الذي قبله " وذلك لأن الحبة في غاية الصغر وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفيا فيها فإذا سُمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم الله تعالى البتة"⁽¹⁾. فهو زيادة في إقناع المخاطبين بعظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] . فلقد تتحير العقول فيها وتتعاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مبادئها. ومما زاد المخاطب إقناع بعظمة الله وعلمه هو أنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر الجزئيات المحسوسة إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال: [وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] . قال الفخر: «وهو عين المذكور في قوله: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] فهذا ما عقلنا في تفسير هذه الآية الشريفة العالية ومن الله للتوفيق»⁽²⁾.

إن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين. وقوله تعالى: [وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ] قضية عقلية محضة مجردة " فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثلا من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوما لكل أحد"⁽³⁾ وهذا ضرب من ضروب الإقناع.

إذ أن التعبير عن تلك القضية المجردة قُرب عن طريق تلك الأمثلة المحسوسة المتخيلة، والصور الفنية الواردة في الآيات لها أثر عظيم على تقريب المعنى وإيضاحه لدى المتلقي وعن طريقها يحصل إقناع المخاطبين.

أما قوله تعالى: [إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] فقد قال الفخر: «أن ذلك الكتاب المبين هو

(1) - المصدر نفسه، ص10.

(2) - الفخر الرازي، التفسير م7، ج13، ص10

(3) - المصدر نفسه، ص9.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم
علم الله تعالى لا غير وهذا هو الصواب»⁽¹⁾.

المبحث الثالث: المجاز ودوره في الإقناع

أ- تعريفه:

- لغة: جرت الطريق وجاز الموضع جوزا وجؤوزا وجوازا ومجازا وجاز به وجاوزه جوازا وأجازه وأجاز غيره وجاهه: سار فيه وسلكه وأجازه خلفه وقطعه وأجاهه: أنفذه والمجاز والمجازة الموضع. جرت الموضع سرت فيه وأجزته خلفته وقطعته وأجزته أنفذته⁽²⁾.

- اصطلاحاً: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي⁽³⁾.

فالعلاقة: هي المناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وإذا كانت العلاقة المشابهة بين المعنيين فالمجاز استعارة، أي المجاز اللغوي الذي علاقته المشابهة فهو استعارة.

وإذا كانت العلاقة غير المشابهة فهو مجاز مرسل. أما القرينة: فهي المانعة من

(1) - المصدر نفسه، ص 11.

(2) - ابن منظور، لسان العرب، مادة: جاز، ج 5، ص 326.

(3) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 264.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إرادة المعنى الأصلي أي الحقيقي وقد تكون لفظية أو حالية⁽¹⁾.

والمجاز من أحسن الوسائل البيانية، الموضحة للمعنى والمقربة للفهم. كما يخرج الغامض إلى الواضح، ويوصف المعنى بصفة حسية.

ولقد شغفت العرب باستعمال المجاز "وتعده من مفاخر كلامها فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه باننت لغتها عن سائر اللغات"⁽²⁾.

كما أن للمجاز بلاغة راقية وموقعا حسنا في النفس والأسماع "والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل"⁽³⁾.

ب- أقسام المجاز:

1- المجاز اللغوي المفرد المرسل وعلاقاته:

أ- المجاز المفرد المرسل: هو الكلمة المستعملة قصرا في غير معناها الأصلي، لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوصفي⁽⁴⁾.

ب- علاقات المجاز المرسل: له علاقات كثيرة أهمها:

1- السببية: وهي أن يكون الشيء المنقول عنه سببا، ومؤثرا في غيره وذلك فيما إذا ذكرنا لفظ السبب وأريد منه المسبب⁽⁵⁾. مثل رعى جوادي المطر، ورعت الماشية الغيث.

2- المسببية: وهي كون المنقول عنه مسببا وممتأثرا من شيء آخر⁽⁶⁾. وذلك حين

(1)- ينظر: المصدر نفسه، ص 265.

(2)- ابن رشيق، كتاب العمدة، ص 256.

(3)- ابن رشيق، كتاب العمدة، ص 266.

(4)- السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 265.

(5)- المرجع نفسه، ص 266.

(6)- المراغي، علوم البلاغة، ص 298.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

يذكر لفظ المسبب ويراد منه السبب كقوله تعالى: [يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ] ⁽¹⁾.

3-الكلية: وهي كون الشيء متضمنا لشيء آخر ولغيره كالأصابع المستعملة في

الأنامل ⁽²⁾في قوله تعالى: [يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ] ⁽³⁾. أي رؤوس أناملهم.

4-الجزئية: هي كون المذكور ضمن شيء آخر، وذلك فيما إذا ذكر لفظ الجزء،

وأريد منه الكل ⁽⁴⁾. كقوله تعالى: [فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ] ⁽⁵⁾. ومثل أرسل القائد عيونهم.

5-الازمية: هي كون الشيء يجب وجوده عند وجود شيء آخر ⁽⁶⁾. مثل طلع

الضوء. أي الشمس، فالضوء مجاز مرسل.

6-الملزومية: هي كون الشيء يجب عند وجوده وجود شيء آخر ⁽⁷⁾. مثل ملأت

الشمس المكان.

7-الآلية: وهي تسمية الشيء باسم آله ⁽⁸⁾. أي كون الشيء واسطة لإيصال أثر

شيء إلى آخر، فيذكر اسم الآلة ويراد الأثر الذي ينتج عنه نحو [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

بِلِسَانٍ قَوْمِهِ] ⁽⁹⁾. وقوله تعالى: [وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ] ⁽¹⁰⁾.

فاللسان آلة في الذكر الحسن وعليه تتضمن الآية مجازا مرسلا علاقته الآلية.

8-التقييد ثم الإطلاق: هو كون الشيء مقيدا بقيد أو أكثر ⁽¹¹⁾. مثل مشفر زيد

(1) -سورة غافر، الآية: 13.

(2) - المراغي، علوم البلاغة، ص 298.

(3) - سورة البقرة، الآية: 19.

(4) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 266.

(5) - المرجع نفسه، ص 267.

(6) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 268.

(7) - المرجع نفسه، ص 268.

(8) - القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 193.

(9) - سورة إبراهيم، الآية: 4.

(10) - سورة الشعراء، الآية: 84.

(11) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 268.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

مجروح، فالمشفر في اللغة هو شفة البعير، فنقل من مطلق الشفة إلى شفة الإنسان، فكان مجازا مرسلا بمرتين، وكانت علاقته التقييد والإطلاق⁽¹⁾.

9-العموم: وهو أن يكون الشيء شاملا لكثير، وهذا الضرب عند الأصوليين يسمى العام المراد به الخاص كقوله تعالى: [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ] «⁽²⁾ فالمراد بالناس النبي⁽³⁾ ρ. وقوله: [الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ]⁽⁴⁾. فإن المراد من الناس واحد.

10-الخصوص: هو كون اللفظ خاص بشيء واحد كإطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو ربيعة، وقريش.

11-اعتبار ما كان: أو تسمية الشيء باسم ما كان عليه⁽⁵⁾ أي أن يسمى الشيء باسم ما كان عليه في الماضي كقول الحق تبارك وتعالى: [وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ]⁽⁶⁾ فالأمر بإيتاء اليتامى أموالهم حين البلوغ أي الذين كانوا يتامى وقوله: [مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا] «⁽⁷⁾. سماه مجرما باعتبار ما كان عليه في الدنيا من الإجرام.

12-اعتبار ما يكون: أو أن يسمى الشيء باسم ما يؤول إليه، كقول الحق تبارك وتعالى: [إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا]⁽⁸⁾ فالعصير يؤول أمره إلى الخمر، لأنه حال عصره لا يكون خمرا.

13-الحالية: هو كون الشيء حالا في غيره وذلك فيما إذا ذكر لفظ الحال، وأريد المحل لما بينهما من الملازمة⁽⁹⁾ كقول الله عز وجل: [فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]

(1) - المرجع نفسه، ص 268.

(2) - سورة النساء، الآية: 54.

(3) - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج1، ص765.

(4) - سورة آل عمران، الآية: 173.

(5) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 192.

(6) - سورة النساء، الآية: 2.

(7) - سورة طه، الآية: 74.

(8) - سورة يوسف، الآية: 36.

(9) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص268.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم
(1).

فالمراد من الرحمة الجنة التي تحل فيها الرحمة فهم في جنة تحل فيها رحمة الله⁽²⁾.
الله⁽²⁾.

14-المحلية: وهي تسمية الحال باسم محله⁽³⁾. وذلك إذا ذكر المحل أريد به
الحال كقول الحق «فليدع ناديه»⁽⁴⁾ والمراد من النادي من يحل فيه.

15-البديلية: هي كون الشيء بدلا عن شيء آخر⁽⁵⁾ كقول الحق: [فَإِذَا قَضَيْتُمْ
الصَّلَاةَ] ⁽⁶⁾. والمراد الأداء.

16-المبدئية: هي كون الشيء مبدلا منه شيء آخر⁽⁷⁾، نحو أكلت دم زيد والمعنى
والمعنى ديته، فالدم مبدل عنه الدية.

17-المجاورة: هي كون الشيء مجاورا لشيء آخر⁽⁸⁾، نحو كلمت الجدار والمراد
الجالس لا الجدار يعينه.

18-التغليف الإشتقائي: هو إقامة صيغة مقام أخرى⁽⁹⁾ وذلك:

أ-مإطلاق المصدر على اسم المفعول: في قوله تعالى: [صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ
شَيْءٍ] ⁽¹⁰⁾. أي مصنوعه.

(1) - سورة آل عمران، الآية: 107.

(2) - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص595.

(3) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص193.

(4) - سورة العلق، الآية: 17.

(5) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص269.

(6) - سورة النساء، الآية 103.

(7) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص269.

(8) - المرجع نفسه، ص269.

(9) - المرجع نفسه، ص269.

(10) - سورة النمل، الآية: 88.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

ب- كإطلاق اسم الفاعل على المصدر: في قوله تعالى: [لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ] (1).
أي تكذيب.

ج- كإطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول: في قوله تعالى: [لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ
اللَّهِ] (2).

د- كإطلاق اسم المفعول على اسم الفاعل: في قوله تعالى: [حِجَابًا مَسْتُورًا] (3).
أي ساترا، والقرينة مجازية وهي "نكر ما يمنع إرادة المعنى الأصلي" (4).

ج- المجاز العقلي:

المجاز العقلي هو إسناد الفعل، أو ما في معناه من اسم فاعل، أو اسم مفعول أو
مصدر إلى غير ما هو له في الظاهر من المتكلم لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون
الإسناد إلى ما هو له (5).

د- علاقات المجاز العقلي:

للمجاز العقلي علاقات منها:

1- الإسناد إلى الزمان (6) : مثل من سره زمن ساعته أزمان، فالإساءة والسرور
أسندا إلى الزمن الواقعين فيه ولم يفعلهما.

2- الإسناد إلى المكان (7) :مثل [وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ] (8) وهذا إسناد
الجري إلى الأنهار وفي الحقيقة الماء هو الذي يجري.

(1) - سورة الواقعة، الآية: 2.

(2) - سورة هود، الآية: 43.

(3) - سورة الإسراء، الآية: 45.

(4) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 269.

(5) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص 270.

(6) - المصدر نفسه، ص 270.

(7) - المصدر نفسه، ص 270.

(8) - سورة الأنعام، الآية: 6.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

3-الإسناد إلى السبب⁽¹⁾: مثل أفتى الفارس قول الشجعان هل من مبارز؟ فقد

نسب الإفتاء إلى قول الشجعان هل من مبارز، وليس ذلك بل هو سبب فقط⁽²⁾.

4-إسناد الفعل إلى المصدر⁽³⁾:كقول أبي فراس:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدَّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ⁽⁴⁾.

"فقد أسند الجد إلى الجد أي الاجتهاد، وهو ليس بفاعل له، بل فاعله الجاد، وفاضله جد الجاد جدا أي اجتهد اجتهادا، فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد وأسند الفعل إلى الجد⁽⁵⁾."

5-إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول⁽⁶⁾:نحو سر في حديث الوامق، فقد استعمل

اسم الفاعل، وهو الوامق، أي المحب، بدل الموموق أي المحبوب، أي المحبوب، فإن المراد سررت بمحادثة المحبوب.

6-إسناد ما بني للمفعول إلى الفاعل⁽⁷⁾: نحو: [إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا] ⁽⁸⁾.

وسبيل مفعم لأن الوعد آت والسبيل مفعم أي ماليء⁽⁹⁾.

(1) - أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص348.

(2) -ينظر: المصدر نفسه، ص348.

(3) - ينظر: المصدر نفسه، ص347.

(4) -سبق تخريجه.

(5) - المراغي، علوم البلاغة، ص347.

(6) - ينظر: السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص270.

(7) - ينظر: المراغي، علوم البلاغة، ص 347.

(8) - سورة مريم، الآية:61.

(9) - المراغي، علوم البلاغة، 347.

دراسة نماذج تطبيقية من المجاز في سورتي البقرة والأنعام ودوره في الإقناع:

لقد كان للمجاز دور هام في الإقناع في سورة البقرة، كما كان له الأثر العظيم في تقريب المعاني لأذهان المخاطبين، أضف إلى ذلك تلك الإيحاءات التي انبثقت عنه، ولا بأس أن أتطرق إلى ذكر نماذج من المجاز في سورتي البقرة والأنعام ودورهما الهام في إقناع المخاطب.

النموذج الأول:

قوله تعالى: [أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ]⁽¹⁾.

لقد سبق التطرق إلى معنى الآية وذكر المشبه والمشبه به ولا سبيل إلى إعادة ذلك هنا إلا ما دعت إليه الحاجة.

فالآية الكريمة تضمنت مجازا مرسلا بعلاقة الجزئية، على مذهب أكثر

(1) - سورة البقرة، الآية: 19.

المفسرين^(*). قال صاحب الكشاف: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها كقوله: [فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ] ⁽¹⁾... [فَأَقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا] ⁽²⁾. أراد البعض الذي هو إلى المرفق والذي إلى الرسغ ⁽³⁾.

إن لهذا المجاز دورا فعالا في إقناع المخاطب وتصويرا لحالة المناقضين كما يوحى برعب الجاعلين أصابعهم في آذانهم من الصواعق. من الموت ويوحى المجاز بحرصهم على انسداد آذانهم حتى لا يسمعون القصف. ووقوع المجاز في الجملة الحالية يوحى بتصوير هيئة هؤلاء وذعرهم الشديد، ولقد جيء بالمفعول لأجله تبيانا لسبب جعل الأصابع في الآذان. إذ هم حراس على الحياة، متعلقون بها، ولا يرجون لله لقاء، كما يوحى هذا المجاز "بشدة عنايتهم بسد آذانهم، ومبالغتهم في إدخال الأنامل في صماليخها" ⁽⁴⁾. فهم من شدة الخوف يشكون غرس أصابعهم كلها في آذانهم حتى لا ينفذ الصوت لما يحذرونه على أنفسهم من الموت.

أقول والله أعلى وأعلم أن هذا المجاز يوحى ببلادة هذه الطائفة وجهلها لأن الموت لا يُرد، ولا يُهرب منه، وهؤلاء كأنهم فارون منه، وللمجاز دور في إقناع المخاطب بأن من ابتغ غير الإسلام ديناً، ضرب على عقله فهو لا يفقه شيئاً وكفانا بهؤلاء مثلاً مبيناً.

إن المجاز الوارد في الآية الكريمة له الأثر الهام على إقناع المخاطب بفرار

^(*) -إن المقصود من القول "على مذهب أكثر المفسرين" ليس المراد منه أن أكثر المفسرين قالوا مجاز مرسل بعلاقة اللزوم وإنما المراد أن أكثر المفسرين حملوه على المجاز لأن البعض حملوا الجعل والأصابع على الحقيقة قال سماحة الأستاذ ابن عاشور: " والجعل والأصابع مستعملان في حقيقتهما عبي قول بعض المفسرين: ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص320. وقيل المجاز في الجعل وقيل في الأصابع، (ينظر المصدر نفسه، ص320).

⁽¹⁾ -سورة المائدة، الآية: 6.

⁽²⁾ -سورة المائدة، الآية: 38.

⁽³⁾ - الزمخشري، الكشاف، م1، ص217.

⁽⁴⁾ - السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج1، ص177.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

المنافقين^(*) من زواجر القرآن الكريم ومواعظه. كما يوحي بأنهم معاندون وأعداء للدين. ولا يريدون الانقياد إلى ما جاء به محمد P. فهو بمثابة الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق. فكما هؤلاء فارون من الموت فكذلك هم فارون من القرآن. وختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله: [وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ] . أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً، لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئة وإرادته⁽¹⁾. فلا ملجأ من الله إلا إليه.

النموذج الثاني:

قال الله تعالى: [اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ]⁽²⁾.

لقد استهلكت الآية الكريمة، باستفهام توبيخي لأهل الكتاب. فالله سبحانه وتعالى يقول لهم: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروها بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم⁽³⁾. فتنبهوا وهبوا من سباتكم العميق.

ولقد استعمل الاستفهام في التوبيخ مجازاً بقرينة المقام، وهو مجاز مرسل علاقته للزوم.

فلهذا المجاز أثر على إقناع المخاطب بأنه في غفلة وسبات ومن أغفل ممن دعا الناس إلى الخير وامتنع عنه.

(*)-لقد مر بنا ذكر المشبه والمشبه به في الآية الكريمة، ولقد تطرقت إلى دور المجاز في الإقناع مع حال المشبه به وذلك للتوضيح ثم تطرقت بعض الشيء إلى ذلك مع حال المشبه مع الإيجاز لأن الأول يوحي عن الثاني.

(1)- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص146.

(2)- سورة البقرة، الآية: 44.

(3)- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص186.

كما أن لهذا المجاز دورا هاما في إقناع المتلقي بأن الإنسان قد يرى عيب غيره، ولا يرى عيب نفسه.

كما يوحي بأن أحبار بني إسرائيل كانوا يأمرّون الناس بطاعة الله ورسوله p. وهم عن ذلك غافلون، كما يبينون للناس أن ما جاء به محمد p هو الحق ويأمرّون⁽¹⁾ بإتباعه ولكنهم كافرون.

فالمجاز يوحي بأنهم يعلمون علم اليقين أن ما جاء به محمد p حق ولكنهم معاندون، كما يوحي بشدة كفرهم.

ويوحي المجاز بفضاعة حال هؤلاء الذين فضلوا غيرهم على أنفسهم ولم يستقبحوا من أنفسهم ما استقبحوه من غيرهم.

كما يوحي المجاز بأن من أراد نصح الناس فليبدأ بنفسه، قال أبو الدرداء^(*) p: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا»⁽²⁾.

كما أن للجملة الحالية [وأنتم تتلون الكتاب] أثر هام على إقناع المخاطب بغرابة وفضاعة هؤلاء. إذ معهم أمران: الأول: البر الذي يأمرّون به، والثاني: ما يتلونه في التوراة.

يعني يذكرون من جهتين ولكنهم ينسون أنفسهم. فهم أحق بالتقريع والتوبيخ والتعجيب من أمرهم ولا ننسى أن الهمزة في قوله: «أتأمرّون» للتقريع والتوبيخ والتعجيب، فإن قلت ما المراد من التعجيب؟ قلت والله أعلم دعوى الناس إلى العجب من حال هؤلاء وهذا إقناع للمخاطبين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء. وقوله: «أهلا تعقلون». استفهام

(1) - ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص277.

(*)-أبو الدرداء: اسمه عويمير بن عبد الله وقيل ابن زيد، وقيل ابن ثعلبة الأنصاري الخزرجي، وقيل عويمير بن القيس بن زيد ويقال عامر بن مالك، حكيم هذه الأمة، له عن النبي صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث، أسلم يوم بدر وشهد أحد، مات سنة 32هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج2، ص142-145.

(2)-قول أبي الدرداء رضي الله عنه، منقول عن: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص144.

عن انتقاء تعقلهم استفهاما مستعملا في الإنكار والتوبيخ. والمراد منه إقناعهم بالجهل الذي هم فيه.

النموذج الثالث:

قال الله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (1).

إن الخطاب القرآني في الآية الكريمة موجه لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب.

وهؤلاء إن طلب منهم أن يؤمنوا بما أنزل على محمد ρ ويصدقوه ويتبعوه، قالوا: يكفيننا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك (2). [وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ] [يعني: بما بعده (3)]. [وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ] . أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ρ الحق (4). وهو مصدقا لما معهم من التوراة والإنجيل.

فإن كانوا صادقين في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم، فلما قتلوا الأنبياء الذين جاءوهم بتصديق التوراة التي بأيديهم والحكم بها وعدم نسخها وهم يعلمون صدقهم ولقد قتلوهم بغيا وحسدا وعنادا واستكبارا على رسل الله، فليسوا يتبعون إلا مجرد الأهواء

(1) -سورة البقرة، الآية: 91.

(2) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص243.

(3) - المصدر نفسه، ص 243.

(4) - المصدر نفسه، ص243.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم
والآراء والتشهي (1).

إن قوله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ...] معطوف على قوله: [وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
(2)]. المعطوف على قوله: [وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ] (3).

وفائدة العطف هو حكايات أحوالهم وبيان ضلالتهم، ووردت هذه الحكاية عنهم
على سبيل الذم، ولهذا الذم دور في إقناع اليهود بضلالتهم. وتكمن هذه الضلالات في
الكفر بما أنزل على محمد p ، ولقد تضمنت الآية الكريمة مجازا مرسلا بعلاقة المحلية
ويكمن في قوله تعالى: [وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ] . فالوراء في الأصل اسم مكان، واستعمل
هنا "مجاز عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صار وراءه
فقد تجاوزه وتباعده (4). ولقد جيء بالمضارع في قوله: [وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ] محاكاة لقولهم
[بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا] وتصريح بما لوحوا إليه ورد عليهم.

ثم إن الجملة الحالية توحى بغرابة هؤلاء وتناقضهم. كما تحمل إقناعا لهم بأنهم
ضالون ومحترفون للضلال لأنهم إن آمنوا حقا بما أنزل عليهم فإنهم يؤمنون بما أنزل الله
على محمد p. أضف إلى ذلك. أن الجملة الحالية لها أثر في إقناعهم بكفرهم وعنادهم،
لأنهم يعتقدون أن الإيمان بما أنزل عليهم يقتضي الكفر بغيره.

كما أن للصورة البيانية المذكورة أنفا دورا هاما في إقناعهم بكفرهم ويكمن ذلك في
قوله تعالى: [وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ] فالهاء عائدة على "ما" والمقصود القرآن، فكلمة الوراء
والله أعلم توحى بحسدهم على محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم لا يريدون كتابا بعد الذي
أنزل عليهم، كما توحى بكراهيتهم للقرآن.

ثم فصل الحق سبحانه وتعالى: [قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]

(1) - المصدر نفسه، ص 243.

(2) - سورة البقرة، الآية: 89.

(3) - سورة البقرة، الآية: 88.

(4) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 1، ج 2، ص 607.

عما قبله لأنه اعترض في أثناء ذكر أحوالهم قصد به الرد عليهم في معذرتهم هذه⁽¹⁾. والاستفهام الوارد في الآية الكريمة وسيلة عظيمة من وسائل إقناعهم بأنهم كاذبون حيث قالوا: [نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا] لأنهم لو كانوا كذلك، لما قتل أسلافهم الأنبياء الذين جاؤوا بالتوراة ودعواهم إليها، وتحمل الآية الكريمة إقناعا لليهود بأنهم كافرون، بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وأن حججهم داحضة، كما تحمل إقناعا للمؤمنين بأن اليهود أشد عداوة وأشد حسدا عليهم. والله أعلم.

النموذج الرابع:

قال الله تعالى: [وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ]⁽²⁾.
عطف على جملة: [قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ] .

إن رسول الله ρ كان يحزنه ما يقولون فيه من تكذيب به وبالقرآن حزنا على جهل قومه بقدر النصيحة وإنكارهم فضيلة صاحبها⁽³⁾. فالخطاب القرآني موجه إلى الرسول ρ وإنه للهول الهائل يسكب من خلال الكلمات الجليلة وما يملك الإنسان أن يدرك حقيقة هذا الأمر، إلا حين يستحضر في كيانه كله، أن هذه الكلمات موجهة من رب العالمين إلى نبيه الكريم، النبي الصابر من أول العزم من الرسل الذي لقي ما لقي من قومه صابرا محتسبا. فالآية الكريمة حفلت بتصوير فني رائع وعجيب، إذ ترم في الخيال صورة للنفق وصورة للسلم في السماء وتدع الحس يتأثر عن طريق الخيال، وقليل من صور القرآن ما

(1)- ينظر: المصدر نفسه، ص 608.

(2)- سورة الأنعام، الآية: 35.

(3)- ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص203.

يأتي صامتا، بل يأتي في صورة متحركة⁽¹⁾.

إن لهذه الصورة الفنية أثر على إقناع المخاطبين. بأن هؤلاء المشركين لا يؤمنون. ثم إن الآية الكريمة تضمنت صورة بيانية متمثلة في المجاز المرسل في قوله "كبر" فهو مجاز مرسل في معنى شق. ومعنى "كبر" هنا شق عليك وأصله عظيم الجثة ثم استعمل مجازا في الأمور العظيمة الثقيلة لأن عظم الجثة يستلزم الثقل⁽²⁾. فهو مجاز مرسل بلزومين. لأن الثقل يشق حمله ولهذه الصورة البيانية دور فعال في إقناع المخاطب بأن الأمر قد شق عليه. هذا من جهة ومن جهة أخرى إقناع المخاطبين بأن المشركين كبر إعراضهم وزاد كفرهم. وتمسكهم بالشرك.

ثم إن قوله تعالى: [وَإِنْ كَانَ] تضمن شرط وقوله: [فَإِنْ اسْتَطَعْتَ] جوابه وهو شرط ثان وجوابه محذوف دل عليه فعل الشرط "استطعت" والشرط وجوابه مستعملان مجازا وهذا المجاز له دور هام في إقناعهم بالتأييس من إيمانهم لأن الله جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها. فالله هو الهادي إلى طريقه المستقيم.

(1) - ينظر: سيد قطب، ضلال القرآن، م2، ج9، ص1078.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص203.

النموذج الخامس:

قال الله تعالى: [أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ] (1).

لقد جاء بيان هذه الآية بطريقة «الاستفهام الإنكاري عن عدم رؤية القرون الكثيرة الذين أهلكتهم حوادث خارقة للعادة يدل حالها على أنها مسلطة عليهم من الله عقابا لهم على التكذيب» (2).

فالله سبحانه وتعالى بيّن في هذه الآية الكريمة أنه أهلك قرونا كثيرة قبل أهل مكة وأنه لم يعط أهل مكة نحو ما أعطى عادا وثمودا وغيرهم من البسطة في الأجسام والسعة في الأموال (3). والامتداد في الأعمار والسعة من الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا في

(1) - سورة الأنعام، الآية:6.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص 136.

(3) - الزمخشري، الكشاف، ج2، ص6.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

استجلاب المنافع واستدفاع المضار⁽¹⁾. ولكنهم فعلوا ما فعلوا ثم قال: [فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ [أي أهلك كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب [وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ [أي أحدثنا [قَرْنًا آخَرِينَ] بدلا من الهالكين⁽²⁾.

إن الآية الكريمة تضمنت مجازا مرسلا في قوله: «مكناهم». فاستعمال التمكين في معنى التثبيت مجاز مرسل لأنه يستلزم التقوية "وقد شاع هذا الاستعمال حتى صار كالصريح أو الحقيقة"⁽³⁾.

إن هذه الصورة البيانية لها أثر على إقناع المتلقي بتثبيت هؤلاء. ثم إن "ما" تنصب على المفعولية المطلقة المبنية للنوع، وهذا وسيلة من وسائل إقناع المخاطب بشدة تمكين هؤلاء في الأرض.

فالسباق القرآني يصور عناد قريش وعناد القرون التي من قبلهم، ولقد حفل بتصوير فني رائع في قوله تعالى: [وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ] ، فالآية الكريمة ترسم في الخيال صورة المطر مغزار من السماء، كما ترسم صورة تلك الأنهار التي تجري من تحتهم، وتدع الحس يتأثر عن طريق الخيال، بتلك النعم السائغة التي من بها على هؤلاء. ولهذه الصور الفنية أثر على إقناع المخاطب بالرخاء الذي كانت تعيشه تلك القرون. ولكنها رغم ذلك زالت، وتبدلت وفي هذا تهديد من إتباع سبل تلك القرون، فإقناع المخاطب على سبيل التهديد معناه تحذيره.

(1) - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، م2، ج3، ص11.

(2) - المصدر نفسه، ص111.

(3) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص138.

المبحث الرابع: الكناية ودورها في الإقناع

أ- تعريفها:

- لغة: الكنّ والكنان: وقاء كل شيء وستره، والكن البيت أيضا والجمع أكنان وأكنة. والكنّ كل شيء وقى شيئا فهو كنه وكنانة والفعل من ذلك كننت الشيء أي جعلته في كنّ وكنّ الشيء يكنّه وكنونا وأكتّه وكنّنه ستره، وكنّ أمره عنه كنا: أخفاه، واستكنّ الشيء: استتر.

- اصطلاحا: لقد تنوعت تعاريف الكناية عند علماء البيان وتعددت، ولكنها تدور كلها حول معنى واحد ومن هذه التعاريف مايلي:

«وهو أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء»⁽¹⁾.

ومن تعاريفها أيضا «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ

(1) - ابن منظور، لسان العرب، مادة: كنّ، ج13، ص360.

الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه»⁽¹⁾.

والمعنى أن يريد المتكلم إثبات معنى ولكن يستخدم ألفاظاً أخرى غير تلك الألفاظ التي تدل على ذلك المعنى، فلا يعبر عن المعنى مباشرة ولكن يوحي إليه ويشير بما هو قريب منه وتاليه.

ومن تعاريفها أيضاً هي: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ⁽²⁾. أي لفظ أريد به لازم معناه الحقيقي دون التصريح بهذا المعنى وعليه يمكن القول أن: الكناية هي لفظ أطلق وأريد به غير المعنى الذي وضع له، مع الإيماء إلى المعنى الحقيقي بحيث يتقارب المعنيان ولا يتباعدان مثال ذلك قولنا. حاتم كثير الرماد. فهذه كناية عن الكرم والجد وكثرة الرماد تدل على كثرة الطهي وكثرة الطهي تدل على كثرة الضيوف وكثرة الضيوف تعني أن حاتماً جواد. فلم نقل إن حاتماً جواد ولكن استخدمنا ألفاظاً في غير معانيها فقلنا كثير الرماد. ولا نريد أن نثبت هذا المعنى بل نريد إثبات أن حاتماً جواد. فأخفينا الظاهر وأظهرنا ما يومئ إليه، ولقد استخدمت العرب الكناية في كلامها، وأمثلة كثيرة.

ب- تقسيم الكناية من حيث المكنى عنه:

تنقسم الكناية من حيث المعنى الذي تشير إليه إلى ثلاثة أقسام:

1- كناية عن صفة: وهي الكناية المطلوب بها صفة من الصفات كالجد والكرم... وهي نوعان.

أ- قريبة: وهي ما يكون الانتقال منها إلى المطلوب بغير واسطة⁽³⁾، وتكون واضحة مثل: طويل النجاد، كناية عن طول القامة.

(1) - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص 368.

(2) - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 225.

(3) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص 167.

ب- بعيدة: وهي ما يكون الانتقال منها إلى المطلوب بواسطة⁽¹⁾، أي التي ينتقل فيها من اللفظ المكنى به إلى المكنى عنه بواسطة مثل: كثير الرماد، وقد سبق شرح ذلك عند تعريفنا للكناية.

2- كناية عن موصوف: وهي الكناية التي يكون المكنى عنه موصوفا⁽²⁾. أو هي: المطلوب بها غير صفة ولا نسبة⁽³⁾ وهي:

أ- إما معنى واحد: مثل قول البحري

فَاتَّبَعْتُهَا أُخْرَى فَأَضَلَّتْ نَصْلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللَّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحَقْدُ⁽⁴⁾.

فقول البحري بحيث يكون اللب والرعب والحقْد ثلاث كنايات عن موصوف واحد وهو القلب.

ب- وإما مجموع معان: كأن يكنى عن الإنسان بحي مستوى القامة عريض الأكتاف. واشتراط علماء البيان في هذا القسم من الكناية أن يكون كل من المعنى الواحد والمعاني المتعددة مختصا بالموصوف المكنى عنه.

3- الكناية التي يراد بها تشبيه أمر لآخر: إثباتا أو نفيا ويسمى هذا النوع من الكناية "الكناية المطلوب بها نسبة"⁽⁵⁾، فيكون المكنى عنه نسبة أسندت إلى ماله اتصال به.

فقد جعل هذه الصفات في قبة مضروبة على الممدوح، وترك التصريح كأن يقول إنه مختص بها أو نحوه، والكناية المطلوب بها نسبة قد يكون ذو نسبة فيها مذكور وقد

(1) - المصدر نفسه، ص167.

(2) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص312.

(3) - تلخيص المفتاح، ص199.

(4) - ديوان البحري، م1، ص197.

(5) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص168.

يكون غير مذكور (*).

ج- تقسيم الكناية باعتبار لوازمها (**):

تنقسم الكناية باعتبار الوسائط إلى أربعة أقسام: تعريض، تلويح، رمز، إشارة وإيماء.

1- التعريض: وهو لغة خلاف التصريح، واصطلاحاً: هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق⁽¹⁾. كقول رسول الله ﷺ لرجل سأله أي المسلمين خير فقال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده»⁽²⁾. تعريضاً بنفي صفة الإسلام عن المؤذي.

2- التلويح: وهو أن تشير إلى غيرك عن بعد واصطلاحاً: كناية كثرت فيها الوسائط بين اللازم والملزوم مثل أولئك قوم يوقدون نارهم في الوادي. كناية عن بخلهم فقد انتقل عن الإيقاد في الوادي المنخفض، إلى إخفاء النيران ومن هذا إلى عدم رغبتهم في اهتداء ضيوفهم إليها⁽³⁾.

3- الرمز: وهو لغة أن تشير إلى قريب منك خفية بنحو شفة أو حاجب.

واصطلاحاً: هو الذي قلت وسائطه مع خفاء في اللزوم بلا تعريض⁽⁴⁾. مثل فلان عريض القفا. كناية عن بلادته وبلايته.

4- الإيماء والإشارة: أو المناسب لغير العرضية وهو الذي قلت وسائطه، مع بعد

(*)- ذهب بعض العلماء إلى جعل هذا النوع أي الذي يكون فيه ذو النسبة غير مذكور، قسماً رابعاً وأطلقوا عليه اسم الكناية العرضية (ينظر تلخيص المفتاح الخطيب القزويني، ت. د. ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002، ص168)، وقد تبينت تقسيمات الخطيب القزويني للكناية.

(**) - هذه التقسيمات للسكاكي ولقد تبينت تقسيماته في هذا الباب. ينظر: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص403-410.

(1) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ت: سليمان سلطان، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2005، ص313.

(2) - عبد العظيم بن عبد القوي منذري، مختصر صحيح مسلم، ص32.

(3) - ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص365.

(4) - السيد أحمد هاشمي، جواهر البلاغة، ص313.

عن الخفاء، ووضوح الإيماء أو الإشارة⁽¹⁾.

مثل قول البحتري:

أَوْ مَا رَأَيْتُ الْمَجْدُ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلْ⁽²⁾.

ففي البيت كناية عن أن آل طلحة أُمَاجِد، وهي كناية على غاية من الوضوح.

د- دور الكناية في الإقناع:

إن للكناية دورا هاما في الإقناع إذ هي وسيلة يستخدمها المخاطب بغية حصول غرضه من المخاطب، فهي تمنح المعنى إيحاء وغموضا، والتعبير جمالا، والنفس قبولا، وقد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح... فنحن وإن كنا نعلم أنك إذا قلت: هو طويل النجاد، وهو جم الرماد كان أبهى لمعناك. وأنبئ من أن تدع الكناية، وتصريح بالذي تريد⁽³⁾.

فالمعنى الكنائي أبهى من المعنى الصريح ومتى اشتاق العقل إلى المعنى وأدركه بعد عمق تفكير كان ذوقه أحلى وأوقع في النفس، وكان له الأثر الجيد على الإقناع، لأن إمتاع العاطفة يجر العقل إلى القبول، أضف إلى ذلك أن استدراج الفكر سبيل من سبل الإقناع.

والكناية فن من فنون التعبير الذي توخته العرب. فيها يتنوقون الأساليب ويزينون ضروب التعبير ويكثر من وجوه الدلالة.

والكناية المقصودة بالكلام هي التي جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة لا غيرها.

ففي الكناية لطف التعبير ودقة التصوير، وإلباس المعقول ثوب المحسوس، وأكثر من هذا أنها في صورة كثيرة تعطي الحقيقة مصحوبة بالدليل وفي طيها البرهان، وأنها تضع المعاني في صورة المحسوسات، فهل من سبيل للمخاطب غير الإقناع؟ أجل فهي

(1) - الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، ص 169.

(2) - ديوان البحتري، ص 368.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 117.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

نمط من أنماط الإقناع ولون من ألوانه، وطريق من طرقه لأن من الجوانب التي يقوم عليها الإقناع الجانب البياني والكناية ضرب منه، ومن حاجته إلى الكل أهم فإن حاجته إلى الجزء أحوج.

دراسة نماذج تطبيقية من الكناية في سورتي البقرة والأنعام ودورها في

الإقناع:

النموذج الأول:

منها قوله تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ⁽¹⁾].

الأظهر عند صاحب التحرير والتنوير أن الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم أي : ومن الناس من يظهر لك ما يعجبك من القول وهو الإيمان وحب الخير والإعراض عن الكفار فكون المراد بـ"من"^(*) المنافقين ومعظمهم من اليهود، وفيهم من

(1) - سورة البقرة، الآية: 204-206.

(*) - اختلف الآراء حول المراد "من"، وقد ذهب مذهب الطاهر بن عاشور، لكونه أعم.

المشركين أهل يثرب⁽¹⁾ كما لا يمنع أن يكون الخطاب عام قال سماحة الأستاذ: ويجوز أن الخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب تحذيرا للمسلمين من أن تروج عليهم حيل المنافقين وتنبيه لهم إلى استطلاع أحوال الناس⁽²⁾.

ومعنى [وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ] . أنه يظهر للناس الإسلام وبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق⁽³⁾. يظهر أشياء ليست على حقيقتها.

ومعنى إشهاد الله، حلفه بأن الله يعلم إنه لصادق [وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ] أي شديد الخصومة [وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ] . أي هو أعوج المقال وسيء الفعال وكلامه كذب واعتقاده فاسد وأفعاله قبيحة، والله سبحانه وتعالى لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك⁽⁴⁾ [وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ] ، فإذا وعظ وبين له طريق الحق وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، فجزاؤه جهنم هي كافيته عقوبة في ذلك⁽⁵⁾.

إن الآية الكريمة تضمنت كناية في قوله تعالى: [وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ] فهي كناية عن اختلال وضياح ما به قوام أحوال الناس. ولهذه الكناية دور هام في إقناع المخاطب بأن المنافقين من الأشرار، وأن الرحمة في قلوبهم منعدمة. ولذلك فليحذر المسلمون من حيل المنافقين لأنهم يقولون عكس ما يبطنون ويشهدون الله عز وجل وهم كاذبون، فلهذه الكناية دور فعال في تنبيه المسلمين وإقناعهم بأفعال أعدائهم.

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج2، ص266.

(2) - المصدر نفسه، ص266.

(3) - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص406.

(4) - ينظر: المصدر نفسه، ص470.

(5) - ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص407.

الفصل الأول:وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وجملة التذليل^(*) وهي [وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ] تحذيرا وتوبيخا.

ومما زاد المخاطب إقناعا الجملة الفعلية الواقعة بعد الطلب إذ هذا يوحي بتعنت هذا الصنف من الناس وتمسكه بالعزة والإثم، ثم إن قوله تعالى: [فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِبَاسَ الْمِهَادِ] فهذا التفریع له أثر على إقناع المخاطب بسوء العاقبة.

النموذج الثاني:

قال الله تعالى: [اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ].

قال سيد قطب: «وقد جاء التعبير في هذه الصورة الحسية في موضع التجريد المطلق على طريقة القرآن في التعبير التصويري لأن الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقا وثباتا، فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السموات والأرض فقد وسعهما سلطانه. وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن

(*)-التذليل: هو أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول، تحقيقا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم ويكمل عند من فهمه. الزركشي، البرهان، ج3، ص46.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الصورة التي ترسم في الحس من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن»⁽¹⁾.

قال الله تعالى: [وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا] فهو كناية عن القدرة الكاملة ولكنه يجيء في الصورة المحسوسة صورة انعدام الجهد والكلام. لأن التعبير القرآني يتجه إلى رسم صور للمعاني تجسمها للحس، فتكون فيه أوقع وأعمق وأحس⁽²⁾.

قال الله تعالى: [وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ] هناك سر عظيم في دخول أداة التعريف على الصفتين، ويكمن هذا السر في قصره سبحانه وتعالى هاتين الصفتين عليه بلا شريك و«هذه خاتمة الصفات فالآية تقرر حقيقة، وتوحي للنفس بهذه الحقيقة، وتفرد الله سبحانه بالعلو وتفرد سبحانه بالعظمة، فالتعبير على هذا النحو يتضمن معنى القصر والحصر، فلم يقل وهو علي عظيم ليثبت الصفة مجرد إثبات. ولكنه قال: [الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ]. ليقتصرها عليه سبحانه بلا شريك، إنه المتفرد بالعلو، المتفرد بالعظمة، وما يتناول أحد من العبيد إلى هذا المقام، إلا ويرده الله إلى الخفض والهون، وإلى العذاب في الآخرة والهوان»⁽³⁾.

كما توحي الصورة البيانية بعظمة الله عز وجل وفي هذا إقناع للمخاطبين بتوحيد الله، وطاعته وإتباع أوامره، واجتتاب نواهيه.

(1) - سيد قطب، في ضلال القرآن م 1، ج 3، ص 290.

(2) - المصدر نفسه، ص 290.

(3) - المصدر نفسه، ص 290.

النموذج الثالث:

قال الله تعالى: [وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ]⁽¹⁾.

فالسكون هو «استقرار الجسم في مكان»⁽²⁾ وتضمنت الآية الكريمة صورة بيانية متمثلة في الكناية في قوله تعالى: [وَ لَهُ مَا سَكَنَ] فهي كناية عن الخفاء مع إرادة المعنى الصريح. والكلام مسوق للتذكير بعلم الله تعالى، ولهذه الكناية أثر هام على إقناع المخاطب بأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. كما تحمل الآية الكريمة استدعاء لتوجيه النظر العقلي في الموجودات الخفية وما في إخفائها من دلالة على سعة القدرة وتصرفات الحكمة الإلهية. وفي تقديم المجرور إقناع يحصر الساكنات في كونها لله لا لغيره. أي في كون ملكها التام له، كما تقدم في قوله: [قُلْ لِمَنْ مَا فِي

(1) - سورة الأنعام، الآية: 13.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، م7، ص155.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ [(1) . ثم في تقديم الليل على النهار إقناع للمخاطب بعظمة علم الله، لأن الساكن في الليل يزداد خفاء ثم ذكر النهار لتحقيق تمام الإحاطة بالمعلومات، والسميع العالم العظيم بالمسموعات أو المحسوسات، والعليم الشديد العلم بكل معلوم (2) . وهذا زيادة في إقناع المخاطب بسمعه تعالى وعلمه.

النموذج الرابع:

قال الله تعالى: [قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُدْبِقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ] (3) .

إن المخاطب بضمائر الخطاب هم المشركون، والمعنى قل للمشركين والمقصود من الكلام ليس الإعلام بقدرة الله تعالى فإنها معلومة (4) . ولكن المقصود التهديد بتذكرهم بأن القادر من شأنه أن يُخاف بأسه فالخبر مستعمل في التعريض كناية تركيبية. ولهذه الكناية أثر على إقناعهم بقدرة الله تعالى وهذا تهديد لهم لقولهم [لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ] . ثم إن تعريف المسند والمسند إليه يفيد القصر وله الدور الهام في الإقناع باختصاصه

(1) - الآية: 12، من سورة الأنعام.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م، 4، ج، 7، ص 154.

(3) - سورة الأنعام، الآية: 65.

(4) - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، م، 4، ج، 7، ص 283.

الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

تعالى بالقدرة على بعث العذاب عليهم وفي هذا إقناع لهم بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً أحد. وإقناع لهم بأن غيره لا يقدر بعث العذاب وإقناع لهم بأن أصنامهم التي يضلون لها عاكفون لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً. وإقناع لهم بخوف الله تعالى وإفراده بالعبادة سبحانه لا إله إلا هو.

الفصل الثاني:

وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

مقدمة

المبحث الأول: الجدل في سورتي البقرة والأنعام ودوره في
الإقناع

المبحث الثاني: الحوار في سورتي البقرة والأنعام ودوره في
الإقناع

المبحث الثالث: الحجاج في سورتي البقرة والأنعام ودوره في
الإقناع

مقدمة

إن للقرآن الكريم خصائص أسلوبية وجمالية جمة، ولقد حفل القرآن الكريم بوسائل التعبير العقلي، والتي الهدف منها إقناع المتلقي، إذ أن «المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية»⁽¹⁾.

ولقد تحصل المعاني عن طريق تلك الوسائل التعبيرية العقلية المتمثلة في أسلوب الجدل والحوار والحجاج.

فكل أساليب من هذه الأساليب يعتبر من وسائل الإقناع العقلية، هذه الوسائل التي اعتمدها القرآن الكريم في توصيل المعاني إلى الأذهان، والقرآن الكريم «يستنهض كل القوى والملكات في النفس الإنسانية، فيتجه إليها لينفذ من خلالها إلى ما يريد لعقيدته من تمكين واستقرار في أعماق النفس ومخالطة للكيان الإنساني كله»⁽²⁾.

ولقد استخدم القرآن هذه الأساليب حين الدعوة إلى العقيدة الجديدة وتثبيتها، فلقد توجه إلى العقل وجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة، وجادل المشركين وحاورهم وحاجهم وأثبت عجزهم وأبطل معتقداتهم الفاسدة.

(1) - أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص18.

(2) - عبد الغني محمد سعد بركة أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، ط1، دار غريب للطباعة، القاهرة، 1983، ص356.

المبحث الأول: الجدل ودوره في الإقناع

أ- تعريفه:

- لغة: والجدل: «اللد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا ورجل جدل ومجدل ومجدال: شديد الجدل ويقال جادلت الرجل فجدلته جدلا أي غلبته ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالا والاسم الجدل وهو شدة الخصومة. والجدل: مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة»⁽¹⁾.

-الجدل اصطلاحا:

قال سماحة الأستاذ «والمجادلة مفاعلة من الجدل وهو القدرة على الخصام والحجة فيه ، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك»⁽²⁾. وقال في موضع آخر: «المجادلة المخاصمة بالقول، وإيراد الحجة عليه.

فأسلوب الجدل من أساليب الإقناع، ولقد تناول القرآن الكريم «كثيرا من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومهم في سورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة وأبطل كل شبهة فاسدة، ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب»⁽³⁾. بغية إظهار الحق وإبطال الباطل، وإقناع العقل البشري.

«ولما كان اسم الجدل عند الجمهور إنما يدل على مخاطبة بين اثنين يقصد كل منهما غلبة صاحبه بأي نوع اتفق من الأقاويل، نقل أرسطو هذا الاسم إلى هذا المعنى الذي هو أقرب الأشياء شبيها المعنى الذي يقصده الجمهور»⁽⁴⁾.

(1)-ابن منظور، لسان العرب، مادة: جدل، ج6، ص215، 216.

(2)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج3، ج5، ص194.

(3)-مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2000، ص310.

(4)-أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، تحقيق: دكتور محمد سليم سالم، دط، الهيئة المصرية

العامة للكتابة، 1980، ص5-6.

ب- أسلوب القرآن في الاستدلال والجدل:

إن القرآن الكريم خاطب الناس جميعا في أجيال مختلفة وأقوام تباينت مشاربهم واختلفت أصنافهم، وطبائع الناس متفاوتة وأهواؤهم متنازعة ومسالكمهم في طلب الحق متعددة.

فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من غلب عليه مذهب ديني أو غير ديني قد استأثر بلبه وسده مساد الإدراك، وهؤلاء لا بد لهم من طريق جدلية تزيل ما لبس من الحق عليهم، ومنهم من يليق به ما التقى فيه الحق مع مخاطبة الوجدان «وما اختلطت فيه الحقائق اليقينية بما يجعل الأهواء تابعة لها، والميول خاضعة لمنهاجها، وما التفت فيه سياسة البيان وبلاغته بقوة الحق»⁽¹⁾.

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة، «وهو الحجة الكبرى، فيه من الأدلة والمناهج ما يقنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم وتباين أفهامهم وتفاوت مداركهم»⁽²⁾، بحيث يجد فيه المثقف بغيته، والفيلسوف طلبته والعامية من الشعوب دواء نفوسهم وشفاء قلوبهم، وكذلك سلك القرآن الكريم.

ج- الجدل القرآني وجه من وجوه الإعجاز:

لقد اعتبر الكثير من العلماء أن الجدل في القرآن وجهها من وجوه الإعجاز باعتباره من طرق القرآن البيانية ومن أساليبه في تقرير الحقائق العلمية وتوضيح المسائل العقائدية إذ لا تزيع به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه.

فالجدل من الطرق البيانية في القرآن، ومن أساليب القرآن في تقرير الحقائق.

د- أنواع استدلال الجدل القرآني

لقد تعددت وتنوعت أنواع استدلال الجدل في القرآن الكريم منها:

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 370.

(2)- المرجع نفسه، ص 37.

1- الاستدلال بالتعريف: وهو أن «يؤخذ من ماهية موضوع القول دليل الدعوى»⁽¹⁾، ومثال ذلك أن تتخذ حقيقة الأصنام دليلاً مثبتاً على أنها لا تصلح أن تكون معبوداً، «ومن بيان صفات الله تعالى دليلاً على أن يكون وحده المستحق للعبادة»⁽²⁾، وهذا النوع من الاستدلال موجود بكثرة في القرآن الكريم مثال ذلك قوله تعالى: [يَأْتَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا] ⁽³⁾.

2- الاستدلال بالتجزئة: وهذا النوع من الاستدلال هو «أن تذكر أجزاء الموضوع وتتبعها يكون إثبات الدعوى، ومن ذلك أن المقرر الثابت بالبداهة الذي لاجمال للريب فيه الحكم بأن الأثر يدل على المؤثر، وأن الكون يدل على خالقه، وأن القوى البشرية والعقول المستقيمة تقر بأن الخالق لهذا الكون صغيره وكبيره قوة واحدة وهي قوة الله سبحانه وتعالى⁽⁴⁾ كقوله تعالى: [قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ أَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ] ⁽⁵⁾، ففي الآية أمر موجه لرسول الله ﷺ بأن يحمده الله، ويثني عليه، ويشكره على ما أعطى من نعم، وعلى ما وهب من خيرات وأن يسلم على الذين اصطفاهم.

3- الاستدلال بالتعميم ثم التخصيص

إن هذا النوع من الاستدلال هو أن تُذكر قضية عامة، يبرهن عليها أولاً بصورة إجمالية ثم يتعرض إلى بيان جزئياتها ليبرهن عليها بصورة تفصيلية «فيبرهن على أن كل جزئي منها يؤدي إلى إثبات الدعوة المطلوب إثباتها، أو أنها في مجموعها تؤدي إلى إثبات الدعوى»⁽⁶⁾، معناه أن يوتى بقضية عامة ثم يبرهن عليها بالإجمال، وبعد ذلك يُستدل على بيان جزئياتها بالتفصيل، وهذه الجزئيات تثبت تلك القضية العامة ومن ذلك قوله تعالى في المجاورة بين موسى وفرعون [قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى ، ص 347.

(2)- المرجع نفسه، ص 347.

(3)- سورة مريم، الآية: 42.

(4)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى ، ص 349.

(5)- سورة النمل، الآية: 59.

(6)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى ، ص 351.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى. قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى⁽¹⁾، فلقد بدأت الآية بقضية عامة وبرهن عليها أولاً بصورة إجمالية ثم بعد ذلك تعرض إلى بيان جزئياتها وبرهن عليها بصورة تفصيلية.

4- الاستدلال بالعلّة والمعلول:

إن من بين الطرق البرهانية المشهورة ما يعرف باستدلال "العلّة والمعلول"⁽²⁾، وهذا النوع من الاستدلال هو أن يكون وجود بعض الأشياء علّة لوجود شيء آخر، «ويمقدار قوة الارتباط تكون قوة الاستدلال وذلك بأن يكون أحدهما علّة للآخر وإذا وجدت العلة كان المعلول ثمرة لوجودها وهما متلازمان من الناحية العقلية، أو حسب مجرى الأمور وإذا ذكر المعلول كان كاشفاً لعلته»⁽³⁾، فوجود العلة يستلزم وجود المعلول، ولا يوجد المعلول إلا إذا وجدت العلة، فالعلّة في تحريم الخمر هي الإسكار، ولنتل آية إباحة القتال، فإن فيها السبب الذي يبرره، والدليل الذي يوجبه قال تعالى: [وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ]⁽⁴⁾، فالسبب الذي برّر أمر الله تعالى بالقتال أمران: الأول: الاعتداء، والثاني: فتنة المؤمنين في دينهم، «فإذا زال الأمران لا يكون ثمة مبرراً للقتال»⁽⁵⁾، إذ المبرر قائم على هذين الأمرين.

5- الاستدلال بالمقابلة:

(1)-سورة طه، الآيات: 49-55.

(2)-محمد تومي، الجدل في القرآن الكريم، دط، شركة الشهاب، الجزائر، دت، ص215.

(3)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص352.

(4)-سورة البقرة، الآيات: 190-193.

(5)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص353.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إن من أنواع الاستدلالات التي سلكها القرآن الكريم ما يعرف بـ"المقابلة" والمقابلة بين شيئين أو أمرين أو شخصين «تكون ليعرف أيهما المؤثر في عمل معين»⁽¹⁾، فهي موازنة بين شيئين لمعرفة المؤثر في الآخر، كما نعلم إلى تحديد موقع كل منهما من حيث قربه أو بعده من الخطأ والصواب، مثل قوله تعالى: [أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ]⁽²⁾.

6- الاستدلال بالتشبيه والأمثال

إن من ينابيع الاستدلال في القرآن الكريم التي تثبت قدرة الله تعالى التشبيه وضرب الأمثال⁽³⁾. ولقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنه يضرب الأمثال ويقرب المعاني ويوضحها ويبين الحقائق عن طريقها، ولقد سبق الحديث عن التشبيه ودوره في الإقناع.

والتشبيه والتمثيل من الطرق الاستدلالية المتبعة في القرآن الكريم، مثال ذلك قوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ]⁽⁴⁾، ففي هذا إقرار بتقريب الحقائق الثابتة بالأمثال.

هـ- أشكال الاستدلال القرآني:

سبق أن ذكرنا أن الناس أصناف، وفطرتهم تتفاوت في الوسائل الإقناعية، ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ليبلغ ما يحمل من مضامين دعوته إلى الناس كافة «وهذا يقتضي مراعاته لتباين مدارك الناس وتفاوت فطرتهم واختلافهم في طرق الإقناع والأساليب المؤثرة عليهم»⁽⁵⁾.

فأسلوب القرآن أسمى من الخطابة وأسمى من منطق أرسطو «تراه قد اعتمد في

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى ، ص354.

(2)- سورة النحل، الآيتان: 17-18.

(3)- ينظر: أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى ، ص357.

(4)- سورة البقرة، الآية: 26.

(5)- محمد تومي، الجدل في القرآن الكريم، ص241.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

مسالكه على الأمر المحسوس أو الأمور البديهية التي لا يمتري فيها عاقل»⁽¹⁾، فلقد جاء الأسلوب القرآني بدقة التصوير، وقوة الاستدلال، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات ونتائج في أحكام العقل، ويمكن ذكر بعض أشكال الاستدلال في الجدل القرآني، منها:

1- القياس الإضماري: إن القرآن الكريم قد استعمل في جدله الإثبات أو النفي بالحجة، «والحجة هي التي يؤتى بها في إثبات ما تمس الحاجة إلى إثباته من العلوم التصديقية، وهي ثلاثة أقسام: قياس، واستقراء وتمثيل»⁽²⁾.

وهذا النوع من الأقيسة تحذف فيه إحدى المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف فهو محذوف معلوم مطوى في الكلام منوى فيه⁽³⁾.

وقد تحذف المقدمة الصغرى أو الكبرى، ومثال حذف الكبرى «هذان متساويان لأنهما قد ساويا شيئاً واحداً، فقد ذكرت المقدمة الصغرى والنتيجة وتركت الكبرى وهي قولك: والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية وبه تمام القياس»⁽⁴⁾. فهذا مثال ترك المقدمة الكبرى وحذفها، أما مثال حذف الصغرى «اتق مكيدة هذا، فيقال لم؟ فنقول لأن الحساد يكابدون فتترك الصغرى وهو قولك: هذا حاسد»⁽⁵⁾.

إن القرآن الكريم مبناه الحذف والإيجاز وهذا ليباعد عن التطويل ويحقق الفهم لأن قدرات الناس تختلف ثم إن عدم ذكر إحدى المقدمات لا يقلل من قوة الاستدلال ولا من طاقة إفحامه «بل ينبغي أن يكون عين عقلك مقصورة على المعنى، وموجهة إليه لا إلى الأشكال اللفظية فكل قول أمكن أن يحصل مقصوده، ويرد إلى ما ذكرناه من القياس

(1)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 372.

(2)- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، ط4، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1983، ص 98.

(3)- أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص 373.

(4)- الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، ص 130.

(5)- المصدر نفسه، ص 131.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

فقوته قوة قياس، وهو حجة، وإن لم يكن تأليفه ما قدمناه من التأليف»⁽¹⁾، فالأهم أن ينظر إلى المعنى الذي يحمله الكلام دون النظر إلى الأشكال اللفظية، مثال ذلك قوله تعالى: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ] ⁽²⁾، فحذفت مقدمة وبقيت أخرى.

3- قياس الخلق: إن قياس الخلف «هو إثبات الأمر ببطلان نقيضه، وذلك لأن النقيضين لا يجتمعان ولا يخلو المحل من احدهما كالمقابلة بين الوجود، والمقابلة بين نفي أمر معين في مكان معين وزمان معين وإثباته في هذه الحال، فإن انتفى بالدليل كان ذلك حكما بوجود نقيضه»⁽³⁾. مثل قوله تعالى: [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ] ⁽⁴⁾.

3- التمثيل: هو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند المخاطب وعلى أمور بديهية لا تتكرها العقول «وتقره الأفهام ويبين الجهة الجامعة بينهما، وإن القرآن الكريم قد سلك هذا المسلك على أدق وجه وأحكمه مقربا ما بين الحقائق القرآنية والبداءة العقلية»⁽⁵⁾، فبالتمثيل تقرب المعاني إلى الذهن قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ] ⁽⁶⁾، فلقد بين تعالى كيف ابتداء خلق الإنسان من طين ثم جاءت

(1)-الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، ص130.

(2)-سورة آل عمران، الآيتان: 59-60.

(3)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص376.

(4)-سورة المؤمنون، الآية: 91.

(5)-أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، ص380.

(6)-سورة الحج: الآيات: 5-7.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الأطوار المختلفة حتى آل إلى القبر ثم كيف خلق الأحياء في الأرض من نبات وحيوان واهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فكل ذلك دليل على قدرة الله علام الغيوب.

4-السبر والتقسيم: بحصر الأوصاف وإبطال أن يكون منها علة للحكم⁽¹⁾. [ثَمَانِيَةَ
أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ
الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]⁽²⁾.

و-الجدل ودوره في الإقناع

إن الخطاب دائما يهدف إلى تغيير أوضاع المتلقين، ولقد كان للجدل القرآني أثر هام وفعال على إقناع المتلقين، والقرآن الكريم كتاب رحمة يسعى إلى إقناع العقول، ولقد حفل بالأساليب الجدلية. والجدل القرآني ليس يهدف إلى الإفحام فحسب بل يهدف إلى الإقناع.

ولقد وقف القرآن الكريم في وجه كل التحديات، ورد التحدي بمثله ليصل إلى الحق دون أن يفرضه، فعمل على أن يقود العقل إلى الإيمان، دون فرض ولا حتم، ولقد كان للأساليب الجدلية تأثير كبير على العقول، وهذا التأثير يقود العقول إلى الإيمان.

دراسة نماذج تطبيقية من الجدل في سورتي البقرة والأنعام ودوره

في الإقناع

لقد ورد أسلوب الجدل في مواضع متعددة وكثيرة في سورتي البقرة والأنعام ولنتطرق

(1)-مناخ القطان، مباحث في علوم القرآن، ص315.

(2)-سورة الأنعام، الآيتان: 143-144.

إلى بعض النماذج من ذلك مبرزين دور الجدل فى الإقناع.

النموذج الأول:

قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] (1).

إن الآية الكريمة أستهلكت بالنداء وذلك للفت الانتباه، ثم جاء الأمر بالعبادة ولقد «شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهية بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود» (2)، وفى هذا استدلال بالتعريف إذ بيّن تعالى أنه خالق الناس جميعاً، وفى هذا إقناع للمتلقى بعبادة الله الذى أخرج من العدم وأخرج الذين من قبله.

فلما أمر بعبادة الرب أردفه بما يدل على وجود الصانع، وفى هذا إقناع لهم بذلك. والخطاب موجه لمشركي مكة (3)، ثم الاستدلال ببيان جعل الأرض مهادا كالفراش، والسماء سقفا، وإنزال الماء من السماء، وإخراج به أنواع الزروع والثمار، فهذه الدلائل الخمسة المذكورة وهى خلق المكلفين وخلق من قبلهم، وخلق السماء وخلق الأرض وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلى الأرض، دليل على وجود الصانع، وفى هذا إقناع للمتلقى بالعبادة وبإفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، كما تكمن من خلال هذه الدلائل معرفة الله عز وجل.

فبعد ما بين سبحانه وتعالى أنه الخالق والجاعل والمنزل، أردف ذلك بالنهي عن اتخاذ الأنداد، وبعد أن استدل سبحانه وتعالى على وحدانية ألوهيته أردفها بالنهي عن الشرك، قال الفخر: «اعلم أنه سبحانه أمر بعبادته، والأمر بعبادته موقوف على معرفة

(1) -سورة البقرة الآيات: 21-24

(2) -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص149.

(3) -أسباب النزول، النيسابوري، ص13.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وجوده، ولما لم يكن العلم بوجوده ضروريا بل استدلاليا لا جرم أورد هاهنا ما يدل على وجوده»⁽¹⁾.

فالدليل على الوجود إقناع بالعبادة والدليل على خلقه الأشياء إقناع بالعبادة وعدم اتخاذ الند.

وقوله تعالى: [وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ]، جملة حالية أي أنهم على حالة علم وقيل المراد بالعلم هنا العقل التام⁽²⁾؛ أي الإدراك التام، وقيل المراد أنهم يعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبروا ونظروا وفيه دليل على استعمال الحجج وترك التقليد⁽³⁾.

فبعد أن أقام الحق سبحانه وتعالى الدلائل القاهرة على الوحدانية وأبطل القول بالشريك عقبه بما يدل على النبوة. فلما كانت معجزة محمد ρ القرآن أقام الحق سبحانه وتعالى الدلالة على كون القرآن معجزا فقال: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] ، فهذا إقرار بنبوة محمد ρ وإقرار بأن القرآن منزل من عند الله، وقوله تعالى: "نزل" على لفظ التنزيل دون الإنزال فالمراد النزول على سبيل التدرج لأنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله ومخالف لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما⁽⁴⁾.

فالآية الكريمة جاءت باستدلال على كون القرآن كلام الله عز وجل وفي هذا بطلان لما يقوله المشركون من أنه سحر وقصص الأولين... الخ. ويكمن هذا الاستدلال في التحدي الوارد في الآية الكريمة، وفي هذا إقناع للمخاطب بأن القرآن كلام الله والدليل على ذلك هو عجز الخلق عن الإتيان بمثله، فهو الكتاب المعجز «في روعة نظمه وجلال هيئته وعظيم مضمونه وكريم مكنونه وانفراده بالموسيقى المعجزة في تركيبه»⁽⁵⁾.

(1)-الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص97.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص335.

(3)-ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دت، م1، ص43.

(4)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص116.

(5)-فؤاد علي رضا، من علوم القرآن، ط1، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1986، ص204.

فإنه في أعلى مراتب البلاغة والبيان، فلقد تحداهم الله سبحانه وتعالى وهم فرسان البلاغة وأرباب البيان، ثم إن قوله "نزلنا" أي على سبيل التدرج فهذا غاية في التحدي، لأنهم قالوا لو كان من عند الله لما نزل منجماً [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً]⁽¹⁾. فالله سبحانه وتعالى أثبت لهم أن القرآن ينزل منجماً وأنه من عنده وحجة هذا أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله لا هم ولا أعوانهم وفي هذا إقناع لهم بكون القرآن كلام الله، والتحدي الوارد في الآية جاء على سبيل الإقناع، وذلك عن طريق الحجة والبرهان.

والتحدي عن الإتيان بمثل القرآن جاء على وجوه أحدها قوله تعالى: [فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى]⁽²⁾، وثانيها قوله: [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]⁽³⁾، وثالثها قوله تعالى: [فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ]⁽⁴⁾، ورابعها قوله تعالى: [فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ]⁽⁵⁾، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر، ولقد جاء التحدي بالتدرج.

وقوله تعالى: [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ]⁽⁶⁾، أي «فإن لم تفعلوا فيما مضى ولن تفعلوا فيما بقي»⁽⁷⁾. وهذا النفي استدلال بعجزه على عجزهم وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه ومما زاد المخاطب إقناعاً بعجزه هو أن النفوس الأبية إذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع في الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لأتوا به، فحيث لم يأتوا ظهر عجزهم، وظهرت المعجزة للرسول ρ ، وفي الآية استدلال على صدق نبوة محمد ρ ، ثم إن الحق

(1) -سورة الفرقان، الآية: 21.

(2) -سورة القصص، الآية: 49.

(3) -سورة الإسراء، الآية: 88.

(4) -سورة هود، الآية: 13.

(5) -سورة البقرة، الآية: 23.

(6) -سورة البقرة، الآية: 24.

(7) -علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دط، طبع بالمطبعة الخيرية، ج1، ص35. وبهامشه تفسير النسفي.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

سبحانه وتعالى اشتراط في اتقاء النار انتقاء إتيانهم بسورة من مثله وهذا يدل على أنه «إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق الرسول p، وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، فاتقاء النار يوجب ترك العناد، فأقيم المؤثر مقام الأثر»⁽¹⁾، إذ أن علة اتقاء النار هي العجز وهذا من باب الاستدلال بالعلة والمعلوم.

وفي هذا إقناع لهم إذ أن عجزهم يدل على صحة ما جاء به الرسول p، ثم إن لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، وهذا دور الاستدلال في الإقناع.

النموذج الثاني:

ومنها قوله تعالى: [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]⁽²⁾.

إن الخطاب القرآني في قوله تعالى: "تكفرون" متعين رجوعه إلى الناس في الآية السابقة وهم المشركون⁽³⁾، ثم إن استهلال الآية الكريمة بالاستفهام المستعمل في الدعوى

(1)-الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص121.

(2)-سورة البقرة الآية 28-29.

(3)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج1، ص373.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إلى التعجيب من الكفر، فيه تنبيه للمخاطب. والآية الكريمة تحمل دلائل على وجود الله وقدرته فيقول سبحانه وتعالى محتجا على ذلك أنه الخالق المتصرف في عباده: [كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ]، أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره⁽¹⁾، ثم أردف الاستفهام بجملة حالية في قوله: [وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ]، وهذا ما يشعر كل أحد من أنه وجد بعد عدم، وفي هذا استدلال على قدرة الخالق سبحانه وتعالى ولهذا الاستدلال أثر على إقناع المخاطب بتوحيد الخالق وطاعته، وإفراجه بالعبادة وإثبات أن الله هو الموجد من العدم.

ثم قال سبحانه وتعالى: [ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]، أي يميتكم موته الحق بعد حياتكم وبعدها يحييكم في القبر ثم يوم البعث⁽²⁾.

إن في الآية الكريمة استدلال بالمبدأ على الميعاد^(*) وفي هذا إقناع للمخاطبين بأنهم سيحيون في القبور ثم يوم البعث، والدليل على ذلك هو إحيائهم بعدما كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، فكما خرجوا من العدم، فإنهم يحيون بعد الموت، وفي قوله تعالى: [ثم يحييكم]، استدلال ورد على منكري الحياة في القبر، فقوله تعالى: [ثُمَّ يُحْيِيكُمْ]، فالمراد منها الحياة في القبر وقوله: [ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ]، فالمراد الحياة يوم البعث⁽³⁾.

والآية ككل تجادل منكري البعث، وهذا من بلاغة القرآن الكريم في مجادلة منكري البعث، أنه استدلال بالمبدأ على الميعاد، ويحمل هذا الاستدلال إقناعا للمخاطبين بعبادة الله الذي يحيى ثم يميت ثم يحيى ثم إليه الرجوع، فهذا إقناع بالعبادة، وإقناع بالابتعاد عن الكفر، ولقد ورد الجدل في الآية الكريمة على سبيل الإقناع.

ثم استدلال سبحانه وتعالى على أنه هو الخالق لما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، وفي هذا إقناع للمخاطبين بعظمة قدرة الله المستحق للعبادة.

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص162.

(2)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص151. وقال الرازي: «فلو جعلنا الآية من هذا الوجه دليلا على حياة القبر كان قريبا»، المصدر نفسه، ص152.

(*)-الاستدلال بالمبدأ على الميعاد هو أن يستدل على الحياة بعد الموت بالوجود بعد العدم.

(3)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م1، ج2، ص151.

فذكر الدلائل التي يشاهدونها في أنفسهم مع ذكر الدلائل التي يشاهدونها في السموات والأرض، إقناع بأن الله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ففي قوله: [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]، فإن هذا استدلال بالخلق وهذا الاستدلال له أثر كبير على إقناع المخاطب كما أسلفت بالذكر.

النموذج الثالث:

ومنها قوله تعالى: [وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]⁽¹⁾، إن قوله تعالى: [وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا]، «نزلت في اليهود، حيث قالوا: عزيز ابن الله وفي نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفي مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله»⁽²⁾.

ولقد جاءت الآية الكريمة بلفظ "اتخذ" الدال على الاستهزاء بهم لأن كلامهم لا يلتئم، لأنهم اثبتوا ولدا لله ويقولون اتخذه الله، والاتخاذ الاكتساب وهو ينافي الولدية، إذ الولدية تولد بدون سبب صنع فإن جاء الصنع جاءت العبودية لا محالة، وهذا التخالف

(1)-سورة البقرة، الآيتين: 116-117.

(2)-النيسابوري، أسباب النزول، ص23.

هو ما يعبر عنه في علم الجدل بفساد الوضع⁽¹⁾.

في الآية ردّ على الذين يشتمون الله عز وجل وينسبون له الولد، ونوع الاستدلال الوارد في الآية الكريمة هو استدلال بالتعريف، إذ أنّه سبحانه وتعالى عرّف هؤلاء بأن له ما في السموات والأرض وكل له قانتون، وأنه بديع السموات والأرض، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

فإنّ الله سبحانه وتعالى أبطل قول هؤلاء فقال: [بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]، فلقد أقام الدليل على إبطال قولهم. وأنه سبحانه وتعالى هو خالقهم وخالق كلّ ما في السموات والأرض، وهو المتصرف فيها، فكيف يكون له الولد، وفي هذا إقناع لهم بانتفاء الولدية وامتاعها، فالاستدلال بالملك والتصرف، إقناع للمخاطبين بنفي الشبيه والمماثلة وإقناع لهم بأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن النظير، ولا مشارك له في عظمته. فالنتزیه الأول هو قوله تعالى "سبحانه" فهذا تنزيه لله رب العالمين عن الولدية وإقناع لهم بامتاعها، «وفيه إشارة إلى أن الولدية نقص بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كانت كما لا في الشاهد، لأنها إنما كانت كما لا في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عن العجز والفقير وتسد مكانه عند الاضمحلال والله منزّه عن جميع ذلك»⁽²⁾، فالولدية كمال في البشر لأنها تكمل بعض النقائص، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فبعد الحجة الأولى جاءت الحجة الثانية وهي قوله: [بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]، فهذا زيادة في الاستدلال وإبطال لقولهم الشنيع الذي قالوه.

ولقد فصل الحق سبحانه وتعالى جملة: [كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ]، ولهذا الفصل فائدة عظيمة وأثر بلاغي كبير ويكمن ذلك في استقلالها بالاستدلال «حتى لا يظن السامع أنها مكملّة للدليل المسوق له»⁽³⁾، قوله: [بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ] .

أي أن قوله تعالى "كل له قانتون" استدلال على بطلان قولهم الشنيع وليس مكملّة

(1)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص684.

(2)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص685.

(3)-المصدر نفسه، ص685.

لدليل الخلق والملك.

جاء في القاموس المحيط أن القنوت هو الطاعة والسكوت والدعاء والقيام في الصلاة، والإمساك عن الكلام⁽¹⁾.

وجاء في التحرير والتنوير أن القنوت الخضوع والانقياد مع خوف⁽²⁾، فكل ما في السموات والأرض خاضع لله رب العالمين منقاد له مع خوف، فقوله تعالى: [كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ]، استدلال ثالث على انتقاء الولدية، وفي هذا إقناع للمخاطبين بأنه سبحانه وتعالى: [لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ]⁽³⁾، وقوله تعالى: [كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ]، فالخضوع والقنوت من شعار العبيد، والولد له إِدلال على الوالد، فلا يقنت، وإثبات القنوت معناه انتقاء الولد، وفي هذا إقناع لهم على بطلان ما قالوه، وأن ما يقولونه هو الباطل المبين، وأنه تعالى لم يتخذ ولدا، وإثبات العبودية نفي للولدية. ثم قال: [بَدِيعُ⁽⁴⁾ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ].

جاء في التحرير والتنوير أنّ «البديع مشتق من الإبداع وهو الإنشاء على غير مثال فهو عبارة عن إنشاء المنشآت على غير مثال سابق، وذلك هو خلق أصول الأنواع وما يتولد من متولّداتها»⁽⁵⁾.

فكل من خلق السموات والأرض وآدم، ونظام التنازل، فهو إبداع على غير مثال، ووصفه سبحانه وتعالى ببديع السماوات والأرض «مراد به أنه بديع ما في السموات والأرض من المخلوقات»⁽⁶⁾، وفي هذا الوصف استدلال يتوجه إلى إقناع العقل بنفي الولد، ويكمن سرّ الإقناع في أنه تعالى لما كان خالق السماوات والأرض ومن فيهن فلا

(1)-الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص184.

(2)-المصدر نفسه، ص185.

(3)-سورة الإخلاص: 3-4.

(4)-البديع: المبتدع والمبتدع، والبديع: بالكسر الأمر الذي يكون أولا. وأبدع: أبدأ. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص222.

(5)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص686.

(6)-المصدر نفسه، ص687.

شيء من تلك أهل لأن يكون ولدا بل الجمع عبيد لله رب العالمين، ففي هذا إبطال لما قالوه، وفيه تنزيه لله رب العالمين، وقوله عز وجل: [وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]، فالله سبحانه وتعالى بين بذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمرا وأراد كونه فإنما يقول له كن أي مرة واحدة فيكون أي على وفق ما أراد»⁽¹⁾.

فقوله تعالى: [وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]، استدلال يتوجه إلى إقناع العقل بأن الله تعالى لن يتخذ ولدا وفيه رد على النصارى الذين «توهموا أن مجيء المسيح من غير أب دليل على أنه ابن الله فبين الله تعالى أن تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك»⁽²⁾، فهو الذي ابتدع المسيح من غير والد، قال تعالى: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]⁽³⁾.

ففي قوله: [وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]، استدلال على «استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في تولدها»⁽⁴⁾، وفي هذا إقناع للعقل بنفي الولد ونفي الشبيه والمثيل.

وكل الدلائل التي تضمنتها الآيتين تتوجه إلى إقناع العقل عن طريق دعوته إلى النظر والتفكير والتدبر، لأن الآيات تجادل المنسبين الولد لله رب العالمين، ولقد أقنعهم المولى سبحانه وتعالى ببطلان أقوالهم عن طريق الحجة والبرهان، والعقل يسلم أن من اتصف بهذه الصفات تنتفي عنه المثالية والمشابهة، فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

(1)- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص291.

(2)- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص687.

(3)- سورة آل عمران، الآية: 59.

(4)- الزمخشري، الكشاف، ج1، ص308.

النموذج الرابع:

قال الله تعالى: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ⁽¹⁾. الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ⁽²⁾. فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]⁽³⁾.

لما أنزل قوله تعالى: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ] ، بالمدينة قالت كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ]، حتى بلغ: [لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]⁽⁴⁾.

فالسباق القرآني الدقيق يتجه إلى الحديث عن توحيد الألوهية، «ومن وحدانية الألوهية التي يؤكد هذا التأكيد، بشتى أساليب التوكيد يتوجه المعبود الذي يتجه إليه

(1)-الفلك: بالضم، السفينة. فيروز أبادي، القاموس المحيط، ص964.

(2)-بثّ: الخبر بيئته وبيئته، وأبثه بئنه، بئنه: نشره وفرقه فأبث، وتمر بثّ، متفرق. المصدر نفسه، ص191.

(3)-سورة البقرة، الآيتان: 163-164.

(4)-ينظر: النيسابوري، أسباب النزول، ص27.

الخلق بالعبودية والطاعة»⁽¹⁾.

فالله سبحانه وتعالى يخبر عن تفردّه بالإلهية وأنه لا شريك له سبحانه وتعالى.

ثم إن في الآية الكريمة استدلال على وحدانية الله ولهذا الاستدلال أثر على إقناع المخاطب بوحداية الله سبحانه وتعالى.

ثم إن لفظ إله الواقع بين المبتدأ والخبر فلتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه وهذا مما يزيد المخاطب إقناعاً بتفرد الله عزوجل بالألوهية، فقله تعالى: [وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ]، فهذا بيان للوحدة ثم إن قوله: [لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ]، فهذا تأكيد لمعنى الوحدة وتخصيص عليها، وفي هذا إقناع للمخاطب بنفي الشريك.

فالله سبحانه وتعالى أثبت الألوهية لنفسه ثم نفاها عن غيره، قال الفخر «فإنك ما لم تتصور الوجود أولاً، استحال ان تتصور العدم»⁽²⁾. إن في تقديم الإثبات على النفي وجه من وجوه الاستدلال الذي له الأثر الهام على إقناع المتلقي، أضف إلى ذلك الحصر الوارد في الآية فإنه له الدور الهام على إقناع المتلقي بنفي الألوهية عن غير الله عز وجل، وبعدها ختم الآية بقوله: [الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ]، فهما صفتان للضمير «وفيهما تلميح لدليل الألوهية والانفراد بها لأنه المنعم»⁽³⁾، وفي هذا إقناع للمتلقي بالوحدانية، ولما حكم سبحانه وتعالى بالفرديّة والوحدانية، ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التي تعتبر استدلال على وجوده سبحانه أولاً وعلى توحيدِهِ وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانياً، وتلك الدلائل في قوله: [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ] .

فهذه الآية واقعة موقع الحجة من الدعوى، والاستدلال الوارد في الآية الكريمة هو من باب الاستدلال بالتعريف.

(1)-سيد قطب، في ضلال القرآن، م 1، ج 2، ص 152

(2)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م 2، ج 4، ص 175.

(3)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 2، ج 2، ص 75.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

ولما كانت القضية التي أعلنها في قوله: [وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ] ، قضية من شأنها أن تتلقى بالإنكار من كثير من الناس أردفها بالحجة لمن لا يفتنع. وفي الآية رد للكفار والمشركين الذين عبدوا غير الله.

إن الاستدلال الوارد في الآية الكريمة يتوجه إلى إقناع العقل بوجود الصانع وتفرده بالألوهية والربوبية، وأنه الخالق المالك المتصرف، وذلك عن طريق النظر والتدبر، وأول ما ينظره العقل في هذه الآية الكريمة هو خلق السماوات والأرض.

فالنوع الأول من الاستدلال هو خلق السماوات التي بها تتواجد الأفلاك التي تسير بنظام إلا أنها مع اشتراكها في الطبيعة الفلكية فقد «اختص كل واحد منها بمقدار خاص، مع أنه يتمتع في العقل وقوعها على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرة، فلما قضى صريح العقل بأن المقادير بأسرها على السوية، قضى بافتقارها في مقاديرها إلى مخصص مدير»⁽¹⁾، وهذا إقناع للعقل بالوجود والوحدانية ونفي الشريك، والنوع الثاني هو بيان الاستدلال بأحوال الأرض، وذلك أنه إذا «ثبت أن اختصاص كل واحد من أجزاء الأرض بما هو عليه من المكان والحيز والممارسة والقرب من بعض الأجسام والبعد من بعضها ممكن التغير والتبدل، وإذا ثبت أن اتصاف تلك الأجرام بصفاتهما أمر جائز وجب افتقارها في ذلك الاختصاص إلى مدير قديم عليم سبحانه وتعالى عن قول الظالمين»⁽²⁾، وهذا إقناع ثان للعقل بالوجود والوحدانية، وفي هذا ردّ على القائلين بالشريك.

والنوع الثالث من الاستدلال هو اختلاف الليل والنهار، ومن بلاغة القرآن أنه سمي ذلك اختلافاً لأن الليل والنهار ليسا ذاتين.

إن اختلاف الليل والنهار المذكور في الآية وجه من وجوه الاستدلال التي لها أثر على إقناع المخاطب بالوجود والوحدانية، وذلك لأن في اختلاف الليل والنهار آيات منها:

- ذهاب الليل ومجيء النهار: ومنها الطول والقصر، قال الفخر: «وهو أن الليل

(1)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج4، ص187.

(2)-المصدر نفسه، م2، ج4، ص193.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

والنهار كما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة فهما يختلفان في الأمكنة»⁽¹⁾، فعندما يكون في موضع معين الوقت صباحا فقد يكون في آخر ظهرا، وهكذا وكل بلد يكون عرضه الشمالي أكثر كانت أيامه^(*) الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر وأيامه الشتوية بالضد من ذلك⁽²⁾. وهذا أمر عجيب وسر عظيم، ثم إن الليل زمن الاستراحة والنوم، والنهار زمن للكسب والعمل وهذه آية أخرى من آيات الله.

فلهذه الدلائل إقناع للمخاطب بتوحيد الخالق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

والنوع الآخر من الاستدلال هو الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ثم ما أنزل الله من السماء من ماء، فأحيا به الأرض، ثم بث الدابة وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وختمت الآية بقوله: [لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ]، إن هذه الآيات لم تكن موجودة ثم وجدت وهذا يدل على وجود المؤثر، وعلى كونه قادرا «ومن حيث أنها وقعت على وجه الإحكام والإتقان دلت على علم الصانع، ومن حيث أن حدوثها اختص بوقت دون وقت دلت على إرادة الصانع، ومن حيث أنها وقعت على وجه الاتساق والانتظام من غير ظهور الفساد فيها دلت على وحدانية الصانع»⁽³⁾، قال تعالى: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا]⁽⁴⁾.

فهذه الآيات أعنى الدلائل الواردة في الآية الكريمة تدل على وجود الصانع وإرادته ووجدانيته، وهذا من بلاغة القرآن في مجادلة منكري الوجدانية، ثم إن الاستدلالات الواردة في الآية الكريمة لها الدول الهام في إقناع المخاطب بوجدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه منزه عن الشريك، ولا يسع العقل إلا أن يسلم بذلك، لأن في الآيتين دعوة إلى النظر العقلي والأسلوب القرآني يجادل ليقنع لا ليفحم الإفحام المجرد.

(1)-الفخر الرازي، م، 2، ج، 4، ص 194.

(*)-الأيام مفردا يوم، والمقصود به في كلام الفخر "النهار".

(2)-ينظر: الفخر الرازي، م، 2، ج، 4، ص 194.

(3)-الفخر الرازي، م، 1، ج، 4، ص 202.

(4)-سورة الأنبياء، الآية: 22.

النموذج الخامس:

قال تعالى: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلًا مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ. وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ]⁽¹⁾.

استهل المولى سبحانه وتعالى هذه السورة المكية بقوله "الحمد لله"، وهذه الجملة تفيد استحقاق الله سبحانه وتعالى الحمد وحده دون غيره لأنها تدل على الحصر⁽²⁾. فالله سبحانه وتعالى يستحق الحمد. ويستحقه وحده لا شريك له. ثم إن في إسناد «الحمد إلى الله تعالى خبر منه تعالى على المختار والعبد بحكيه بالتلاوة مؤمنا به فيكون حامدا لمولاه»⁽³⁾، فالجملة خبر لفظا ومعنى والمعنى أن الحمد كله لا يستحقه إلا الله، وهذا قصر إضافي^(*)،⁽⁴⁾. وفي هذا القصر ردّ على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيلوه من اسدائها لهم نعمًا ونصرًا... ولهذا القصر إقناع لهم بأن الله هو المستحق للحمد

(1) -سورة الأنعام، الآيات: 1-3.

(2) -ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص125.

(3) -السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج7، ص292.

(*) -ويجوز أن يكون قصرا حقيقيا على معنى الكمال وأن حمد غيره تعالى من المنعمين سامح: الطاهر بن عاشور،

التحرير والتنوير، ص126.

(4) -ينظر: المصدر نفسه، ص126.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وأن غيره لا يحمد. فالآيات الكريمة تجادل منكري الوحدانية ومنكري الخلق ومنكري البعث ولقد ورد الاستدلال بالتعريف.

فبعد أن استدل على استحقاقه الحمد وحده لا شريك له أردف ذلك ببيان أنه خالق السموات^(**) والأرض وجاعل الظلمات^(***) والنور. ولهذا الاستدلال أثر على إقناع المخاطب بالوحدانية وبالخلق.

ومما زاد المخاطب إقناعاً بذلك هو تقديم خلق السموات والأرض على جعل الظلمات والنور، وذلك لأن «الظلمات والنور لما كانا عرضيين كان خلقهما تكويناً لتكيف موجودات السموات والأرض بهما»⁽¹⁾، ففي هذا التقديم سرٌّ من أسرار الإقناع.

أضف إلى ذلك أنه في تقديم الظلمات على النور سرٌّ أيضاً ويكمن في أن الظلمة سابقة للنور، لأنّ النور حصل بعد خلق الذوات المضيئة، ثم إن الاستدلال بخلق الظلمات والنور له سبيل آخر في إقناع المخاطبين، وذلك لأن جميع الناس تستوي في إدراك الظلمات والنور والشعور بهما⁽²⁾. وكل الناس ترى القدرة العظيمة في ذلك.

ثم إن الاستدلال بهذه المخلوقات الأربع فيه إقناع بإبطال عقائد المشركين والصائبة والمجسوس والنصارى لأنهم عبدوا غير الله عز وجل، وهذا الاستدلال رد عليهم وإقناع لهم بأن الله متفرد بالوحدانية وبالخلق.

فهؤلاء جعلوا لله الشريك. قال تعالى: [ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ] .

جاء في التحرير والتنوير أن "يعدلون" يسوون، أي يعدلون بربهم غيره.

إن ثم حرف عطف يفيد التراخي، وهنا عطفت الجملة على قوله [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ] .

(**) -ينظر: سر جمع السموات وإفراد الأرض في. المصدر نفسه، ص125.

(***) -ينظر: سر جمع الظلمات وإفراد النور في. المصدر نفسه.

(1) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص126.

(2) -ينظر: المصدر نفسه، ص127.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وفائدة هذا العطف هو «أن عدول المشتركين عن عبادة الله مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب»⁽¹⁾، لأنهم يعترفون أن الله هو الخالق والمدبر للكون، ومع ذلك جعلوا له الشريك، وفي هذا إقناع لهم، بجهلهم الذي هم به مستمسكون، إذ أن أمرهم عجيب جدا يعلمون أن الله هو الخالق ولكنهم يكفرون.

والاستدلال على الوحدانية والخلق فيه إقناع لهم بتوحيد الخالق، وترك ما يشركون، لأنّ الذين يعبدونهم من دون الله لا يغنون عنهم شيئا ولا يخلقون، كما يحمل الاستدلال إقناع لهم ببطلان ما يتبعون، وأن الله وحده يستحق العبادة.

وبعد إن استدل على الوحدانية والخلق أردف ذلك بالاستدلال على البعث، وجاء ذلك عن طريق الاستدلال بالمبدأ على الميعاد، قال [هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ]، وفي هذا رد للمشركين الذين أنكروا البعث، وأنكروا أن بعد الموت حياة، ولكن الاستدلال الوارد في الآية له أثر عظيم على إقناعهم بأن هناك حياة بعد الموت. وذلك عن طريق بيان أن الإنسان خلق من طين ووجد من العدم.

فإن الذي أوجد من العدم، يعيد الإنسان خلقه الأول وفي هذا إقناع لهم ببطلان معتقدهم الذي يعتقدونه، والذي يكمن في إنكار البعث، ثم إن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيه توبيخ لهم، من أجل إنكارهم البعث، وفي هذا إقناع لهم بأنهم لا يكادون يفقهون حديثا.

وقوله تعالى: [وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ(*)].

في هذه الآية استدلال على الإلهية والوحدانية والعلم، ولهذا الاستدلال أثر على إقناع الذين أثبتوا الإلهية لغير الله بفساد اعتقادهم وبطلانه، وله أثر أيضا على إقناعهم بأن الله متفرد بالألوهية وحده لا شريك له، وأنه خالق الأكوان وخالق الإنسان.

(1) -المصدر نفسه، ص128.

(*) -المراد بـ"ما تكسبون" جميع الاعتقادات والأعمال من خير وشر فهو تفريص بالوعد والوعيد. التحرير والتنوير، م4، ج7، ص133.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

قال سماحة الأستاذ الطاهر بن عاشور «والخطاب لجميع السامعين، فدخل فيه الكافرون، وهم المقصود الأول من هذا الخطاب، لأنه تعليم وإيقاظ بالنسبة إليهم وتذكير بالنسبة إلى المؤمنين⁽¹⁾».

فهذا الخطاب يعلم ويوقظ الكافرين من سبائهم وجهلهم الذي التزموه حيث أشركوا مع الله غيره.

وفي الوقت نفسه فهذا الخطاب تذكير للمؤمنين بأن تعالى عالم بكل شيء.

النموذج السادس:

قال الله تعالى: [وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ]^(*) [2].

إن الآيات الكريمت تتحدث عن المشركين المكذبين المعاندين الذين مهما تأتيهم دلالة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل وصدق الرسول ρ ⁽³⁾ أعرضوا وولوا مستكبرين، فبعد أن ورد كفرهم في الآيات السابقات جاء في هذه الآيات تكذيبهم برسالة محمد ρ .

ولقد تكلم الله سبحانه وتعالى عن التوحيد أولاً ثم عن المعاد، وبعد هذين جاء الكلام عن النبوة، فالآيات الكريمت تجادل منكري النبوة، فهؤلاء المشركين كذبوا بنبوة محمد ρ . ولقد هددهم المولى سبحانه وتعالى على تكذيبهم بالحق، وبين لهم أنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليذوقن وباله⁽⁴⁾.

(1)-المصدر نفسه، ص133.

(*)-إن الآية 6 سبقت دراستها في دور المجاز في الإقناع، ولها بعد بياني، فإنها من الآيات التي تجادل منكري النبوة.

(2)-سورة الأنعام، الآيات: 4-6.

(3)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1044.

(4)-المصدر نفسه، ص1044.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

فالاستدلال الوارد في الآيات هو من باب الاستدلال بالعلّة والمعلول، إذ أن تكذيبهم علّة في هلاكهم، ولقد كان لهذا الاستدلال أثر على إقناعهم على أن التقليد باطل، وأنه يجب النظر والتدبر.

فهم يقلدون ما كان عليه آباؤهم، وقوله تعالى: [مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ]، هو القرآن⁽¹⁾، والاستدلال الوارد في الآية له أثر على إقناع المشركين بأنهم على باطل وأنهم سوف ينالون العقاب على استهزائهم، إذ أنهم اتخذوا آيات الله هزواً. والقرآن الكريم «مشمتم على وعيدهم بعذاب الدنيا بالسيف، وعذاب الآخرة، فتلك أنباء أنبأهم بها، فكذبوه واستهزؤا به فتوعدهم الله بأن تلك الأنباء سيصيبهم مضمونها»⁽²⁾. فهم يكذبون ما جاء به القرآن من الوعد والوعيد ويستهزؤون بذلك، فبين لهم المولى سبحانه أن ذلك سبب في عقابهم وفي هذا إقناع لهم ببشاعة ما يفعلون، وإقناع لهم بالعقاب الشديد، ولهذا الاستدلال دور هام في إقناع العقل بسوء العاقبة نتيجة الإعراض.

ولما منعهم سبحانه وتعالى «عن ذلك الإعراض والتكذيب والاستهزاء بالتهديد والوعيد أتبعه بما يجري مجرى الموعظة والنصيحة في هذا الباب فوعظهم بسائر القرون الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود وقم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم»⁽³⁾.

فلما منعهم الحق سبحانه وتعالى عن تلك الصفات عن طريق التهديد والوعيد أتبع ذلك بوعظهم بسائر الأمم والأقوام السابقة، وذلك في قوله "ألم يروا.. إلى آخر الآية"، وفي هذا استدلال بتوجه إلى إقناع العقل، وذلك عن طريق النظر والتدبر إلى ما حلّ بالأقوام السابقة الذي كذبوا، وللاستفهام الإنكاري في قوله "ألم يروا" دور في إقناعهم بغفلتهم وجهلهم، والإقناع الوارد في الآية الكريمة لا يتوجه إلى العقل فحسب، بل يتوجه إلى الحس والوجدان، ولقد مرّ الكلام على ذلك في دور المجاز في الإقناع، ثم إن الاستدلال الوارد في الآية تمّ عن طريق الوصف، حيث وصف المولى سبحانه وتعالى القرون

(1)-الظاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص136.

(2)-المصدر نفسه، ص136.

(3)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص158.

الماضية بثلاثة أنواع من الصفات:

-الصفة الأولى قوله تعالى: [مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ] .

-الصفة الثانية قوله تعالى: [وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا] .

-الصفة الثالثة: قوله تعالى: [وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ] .

ففي هذا دعوة إلى النظر في أحوال الأقوام السابقة، «والمقصود من هذه الأوصاف، أنهم وجدوا من منافع الدنيا أكثر مما وجده أهل مكة، ثم بين الله أنهم مع مزيد العز في الدنيا بهذه الوجوه، ومع كثرة العدد والبسطة في المال والجسم جرى عليهم عند الكفر ما سمعتم، وهذا المعنى يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة»⁽¹⁾، فهؤلاء الأقوام كانوا في رخاء عظيم ولكنهم أهلكوا بكفرهم، وفي الآية استدلال على عدم دوام الحالة، واستدلال على أن النعم والخيرات تزول ، ولهذا الاستدلال دور في إقناع المشركين، بإهلاكهم، ثم إن في الآية استدلال على إقناعهم بصدق نبوة محمد ρ من وجه آخر، فإن قلت كيف؟ قلت: إن ذكر النعم التي أسبغت على الأمم السالفة، كان معلوم عند المشركين عن طريق أقاصيص المتقدمين، ولما جاء به القرآن فهذا يؤكد أنه من لدن حكيم خبير، وإذا ثبت هذا ثبت صدق النبوة وفي هذا سرّ من أسرار الإقناع.

(1)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص159.

النموذج السابع:

قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ]⁽¹⁾، قال الفراء «العرب لها في (أرأيت) لغتان ومعنيان^(*)»⁽²⁾، فالأولى المراد منها رؤية العين، والثانية المراد منها أخبرني.

فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله الكريم ﷺ قل لهؤلاء المشركين المكذابين «أرأيتهم أنتم أنفسكم كيف تكون حالكم مع من تعبدون»⁽³⁾.

فالآيتان الكريمتان تجادل عبدة الأصنام، أي منكري الوجدانية، والاستدلال الوارد في الآيات من باب الاستدلال بالتعريف.

وفي هذا الاستدلال إقناع للمشركين بوجدانية الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى يبين لهم أنه إذا أتاهم عذاب الله في الدنيا أو أتاهم العذاب عند قيام الساعة أنهم لا يرجعون إلى غير الله، وإنما يرجعون إلى الله سبحانه وتعالى، وفي هذا حجة عليهم بأن أصنامهم لا تغني عنهم شيئاً، وهم بذلك عالمين.

وقوله تعالى: [إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ]، فتقدير الجواب «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَنْتُمْ مَقْرُون

(1)-سورة الأنعام، الآيتين: 40-41.

(*)-العرب لها في أرأيت لغتان ومعنيان: أحدهما أن يسأل الرجل الرجل: أرأيت زيدا بعينك؟ فهذه مهموزة فإذا أوقعتها على الرجل منه قلت: أرأيتك على غير هذه الحال؟ تريد هل رأيت نفسك على غير هذه الحال. ثم نثني وتجمع، فنقول للرجلين: أرأيتكما. وللقوم أرأيتوكم، وللنساء أرأيتكن. وللمرأة أرأيتك، والمعنى الآخر: أن تقول: أرأيتك وأنت تريد: أخبرني وتهمزها وتنصب التاء منها، وتترك الهمز إن شئت. وتترك التاء موحدة مفتوحة للواحد والواحدة. والجمع في مؤنثه ومذكوره. ينظر: أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1980، ج1، ص333.

(2)-المصدر نفسه، ص333.

(3)-السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج7، ص408.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

بأنكم تدعون غير الله، ذكرهم في هذه الآية وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم»⁽¹⁾، وفي هذا تعريف بأصنامهم وأوثانهم التي لا تملك لهم ضرا ولا نفعاً، ومن ثم تبطل عبادتها.

وفي هذا استدلال على بطلان ما يعبدون وفيه إقناع لهم بوحدانية الله عز وجل، وإقناع لهم ببطلان ما يعتقدونه في تلك الأصنام. ثم إن النظر الذي وُجِّهوا إليه في الآية الكريمة له أثر على إقناعهم، بوحدانية الله، ثم إن اعترافهم بدعاء الله، فيه إقناع لهم بأن الأصنام لا تجدي شيئاً، ولقد حصل هذا الإقناع عن طريق الحجة التي قامت عليهم وتكمن تلك الحجة في أن من «لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في بعض آخر»⁽²⁾. أي من لا قدرة له في دفع بعض الشدائد لا يمكن الاعتماد عليه في أشياء أخرى. مثل أنهم يخالون أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى قال تعالى: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى]⁽³⁾، فما دامت لا ترد المحن فهي لا تقربهم إلى الله، وفي هذا إقناع لهم ببطلان ما هم به مستمسكون، وقوله تعالى: [بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ]، معناه أنهم لا يرجعون في طلب دفع البلية والمحنة إلا إلى الله تعالى⁽⁴⁾. وفي هذا استدلال على لجوئهم إلى الله دون سواه، ولهذا الاستدلال أثر على إقناعهم بوحدانية الله وعظمة قدرته.

ثم إن «موقع [بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ]، عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة للاستدلال فحرف (بل) لإبطال دعوة غير الله»⁽⁵⁾، وفي هذا إقناع لهم بأن تلك الأصنام لا تفعل شيئاً، وإقناع لهم بتوحيد الخالق ونبذ الشرك. وتقديم المفعول على "تدعون" يفيد قصر الأفراد⁽⁶⁾، وفي هذا لطيفة عظيمة تكمن في قصر الدعاء على الله سبحانه وتعالى، وهذا ردّ على

(1) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص224.

(2) -المصدر نفسه، ص224.

(3) -سورة الزمر، الآية: 3.

(4) -ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص223.

(5) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج4، ص224.

(6) -ينظر: المصدر نفسه، ص224.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

المشركين وإقناع لهم بأنهم لا يدعون إلا الله، ولا يدعون الأصنام، لأنهم يزعمون «أنهم يدعون الله ويدعون الأصنام»⁽¹⁾، فجاء الرد عليهم، وجاء الأسلوب القرآني بتقديم المفعول على عامله، ليتبين لهم أنهم لا يدعون إلا الواحد الأحد، وقوله [وَتَنَسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ]، أي تذهلون عن الأصنام لما ترون من هول العذاب⁽²⁾، وفي الآيتين الكريمتين استدلال على بطلان ما يتبعه المشركين، ودعوتهم إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى، وترك الأصنام.

(1)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج4، ص225.

(2)-المصدر نفسه، ص225.

النموذج الثامن:

قال تعالى: [قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ⁽¹⁾] (2).

إن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله محمد ﷺ قل لهؤلاء المكذبين المعاندين إن سلب الله عز وجل سمعكم وبصركم، وختم على قلوبكم فهل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم؟ (3)

فالآية الكريمة تجادل المشركين الذين أشركوا بالله غيره. والاستدلال الوارد في الآية الكريمة يتوجه إلى إقناع العقل بوجود الخالق سبحانه وتعالى، وتوحيده.

ثم إن ذكر أشرف أعضاء الإنسان (السمع، والبصر، والقلب)، دليل على الوجود والوحدانية، فالأذن محل القوة السامعة والعين محل القوة الباصرة، والقلب محل الحياة والعقل والعلم، ومن «المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات. والمخالفات ليس إلا الله، وإذا كان الأمر كذلك، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه وتعالى، فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى. وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة» (4).

إن في الاستدلال بهذه النعم إقناع للمشركين بوجود الواحد الأحد، فهو معطي هذه النعم، وإن شاء أخذها، وفي هذا إقناع لهم بأن الأصنام لا تعطي شيئاً.

ثم إن قوله تعالى: [مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ]، استفهام مستعلم في التقرير (5). والغرض منه توجيه السامعين إلى النظر في الجواب ولهذا الاستفهام أثر على إقناعهم

(1) -الصدف: محركة: غشاء الدّر. وصدف: عنه يصدف: أعرض وفلانا صرفه. كأصدفة. وفلان يصدف ويصدف:

انصرف ومال: القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص 842.

(2) -سورة الأنعام، الآية: 46.

(3) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج 2، ص 1056.

(4) -الفخر الرازي، التفسير الكبير، م 7، ج 14، ص 227.

(5) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 4، ج 7، ص 234.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

بأنه لا إله غير الله يأتيهم بذلك أي بذهاب سمعهم وأبصارهم، والختم على قلوبهم، ولقد كان للاستفهام دورا في إقناع المشركين والكفار بأن الله هو الخالق للسمع والأبصار والعقول، ولهذا الاستدلال بالخلق أثر عظيم على إقناعهم بأن الله هو الخالق، والواحد، وأن أصنامهم لا تخلق شيئا، وما دام الله هو الخالق وجب في العقل أن يكون واحدا. وإذا حصل هذا وجبت عبادته وحده لا شريك له، وهذا من بلاغة القرآن في مجادلة منكري الوجدانية.

ثم إن التهديد الوارد في الآية الكريمة له أثر على إقناع المشركين بعبادة الله وحده لا شريك له، أضف إلى ذلك أن الاستدلال الوارد في الآية الكريمة له أثر على إقناعهم ببطلان شبههم. وقوله تعالى: [انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَن نَّهَدُ]، فالأمر مستعمل في التعجيب من حال إعراضهم⁽¹⁾. ولقد عقب سبحانه وتعالى ذكر الدلائل على الوجدانية وصدق الرسول p، بالتعجيب من قوة الأدلة مع استمرار الإعراض والمكابرة، فهم صدقوا عن أن يؤمنوا بالله ويتبعوا الرسول. ومعنى تصريف الآيات أي اختلاف أنواعها بأن يأتي مرة بحجج من مشاهدات في السموات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس وأخرى بحجج من أحوال الأمم. وهنا هي دلائل الوجدانية⁽²⁾، ولقد كان للعطف بـ"ثم" الذي يفيد الترتيب مع التراخي⁽³⁾، فائدة عظيمة تكمن في أن الجملة المعطوفة داخلية أو أدخل في التعجيب من قوة الأدلة وأن استمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجيب به وفي هذا إقناع لهم بأن قلوبهم غلف بل طبع عليها بكفرهم، وأنهم في الظلمات يسبحون ومما زاد ذلك إقناعا هو المجيء بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد والاستمرار⁽⁴⁾.

النموذج التاسع:

قال تعالى: [وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(1)-الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 4، ج7، ص235.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص235.

(3)-ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني، على ألفية ابن مالك، ومعه شرح الشواهد للعيني، دط، دار الفكر،

2003، ج3، ص1087.

(4)-ينظر: الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 4، ج7، ص236.

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ [1].

إن الآية الكريمة تبين الغرض من إرسال الرسل قال ابن عطية في معنى هذه الآية: «إنما نرسل الأنبياء المخصوصين بالرسالة نرسلهم ليبشروا بإنعامنا ورحمتنا لمن آمن وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر، ولسنا ليقترح عليهم الآيات ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق، ثم وعد من سلك طريق البشارة فأمن وأصلح في امتثال الطاعات وأوعد الذين سلكوا طريق النذارة، فكذب بآيات الله وفسق أي خرج عن الحد في كفرانه وعصيانه» [2].

فالآية الكريمة تجادل الذين زعموا أنه إن لم يأتهم بآية كما اقترحوا فليس برسول قال تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] [3]، فلقد بين سبحانه وتعالى وظيفة المرسلين، كما بين أن الرسل لا ترسل ليقترح عليها الآيات، وتتبع شذوذ كل متعسف.

فالاستدلال الوارد في الآية الكريمة هو من باب الاستدلال بالعة والمعلول، فالعلة في إرسال الرسل هو التبشير والإنذار، والعلة في الأمن وعدم الحزن هو الإيمان، والعلة في وجود العذاب هو التكذيب والفسق. ثم إن الآية الكريمة تضمنت ردًا على الذين يريدون أن تأتيهم الآيات كما يقترحوا وإلا ليسوا بمؤمنين. والاستدلال الوارد في الآية الكريمة فيه إقناع لهؤلاء بأن الرسل تُرسل من أجل التبشير والإنذار، لا لكي يتابعوا شذوذ المتعسفين، ولقد كان للقصر الوارد في الآية أثر هام في إقناع الكفار بذلك، وحصل ذلك عن طريق قصر ما من أجله أرسل المرسلون، وفي هذا دلالة على أن الرسول لم يرسل للإعجاب بإظهار فوارق العادات [4]. ثم إن الاستدلال الوارد في الآية الكريمة له أثر على إقناع الكفار بأن المرسلين إنما أرسلوا مبشرين ومنذرين، «ولا قدرة لهم على إظهار الآيات

(1) -سورة الأنعام: 48-49.

(2) -القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر الوجيز في

تفسير الكتاب العزيز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993، ج2، ص293.

(3) -سورة الأنعام: 37.

(4) -ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص238.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وإنزال المعجزات»⁽¹⁾، إنما بعثوا ليبشروا وينذروا، فمن آمن فلا خوف عليه ولا هو يحزن ومن كذب وفسق فيمسه العذاب الأليم.

النموذج العاشر:

وقال الله تعالى: [وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

(1)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص229.

لَكَادِبُونَ] (1).

إن الآية الكريمة تصور حالة المشركين لما وقفوا على النار وعابنوها، و«الخطاب للرسول p لأن في الخبر الواقع بعده تسلية له عما تضمنه قوله: [وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ]» (2)، فبعد هذا جاء تمثيل حالهم يوم القيامة.

ولقد جيء بـ"لو ترى" المؤذنة بالاستقبال وبعدها قال "إذ وقفوا"، وكلمة "إذ" للماضي ثم قال بعده "فقالوا" الدال على الماضي.

إن كلمة "إذ" تقام مقام "إذا" إذا أراد المتكلم المبالغة في التكرير والتوكيد وإزالة الشبهة، لأن الماضي قد وقع واستقر، فالتعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي، يفيد المبالغة من هذا الاعتبار» (4). فلقد جيء بـ"إذ" القائمة مقام الماضي للمبالغة في التكرير والتوكيد، وإزالة الشبهة، وجيء باللفظ الماضي الدال على المستقبل للمبالغة من هذا الاعتبار، وفي هذا إقناع للمشركين بالحالة التي يكونون عليها يوم القيامة.

فلقد صورت الآية حال الكفار يوم القيامة إذا وقفوا على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال (5).

إن الآيتين الكريمتين تجادل منكري البعث، والاستدلال على البعث في هذه الآية الكريمة جاء على طريقتين (6):

الأول: الاستدراك: أي استدركوا الحالة التي يكونون عليها.

والثانية الاسجال وهو «الإتيان بألفاظ تسجل على المخاطب وقوع ما خوطب

(1) -سورة الأنعام، الآيتان: 27-28.

(2) -الآية 26 من سورة الأنعام قال تعالى: [وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ].

(3) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص184.

(4) -الفخر الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص191.

(5) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج2، ص1049.

(6) -ينظر: بدرية بنت محمد بن الحسن العثمان، من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث، ط1، دار الراجعية، 1417هـ،

ص183.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

به»⁽¹⁾، والاستدلال الوارد في الآيتين له أثر عظيم على إقناع المشركين بالبعث وأنهم يحيون ويقفون على النار، ثم إن في تمنيه العودة إلى دار الدنيا فيه إقناع لهم بفضاعة حالهم يومئذ، ثم إن تمنيه عدم التكذيب بعد العودة إلى دار الدنيا، فيه إقناع لهم بصدق ما جاء به محمد p.

وفي هذا الاستدلال الوارد في الآيتين والذي حصل عن طريق التصوير، إقناع لهم بأنه لا مطمع لهم في الخلاص في ذلك اليوم. ثم إن المبالغة في التوكيد لها أثر على إقناعهم بسوء ما ينتظرهم، وكذلك التعبير عن المستقبل باللفظ الموضوع للماضي فيه إقناع لهم بعظمة المشهد ذلك اليوم.

وقوله تعالى: [بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ^{*}] مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ].

أي ظهر لهم ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة⁽²⁾، ومعنى [وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ]، أي «من الشرك والكفر والنفاق والكيد والمكر والمعاصي لأن مقتضى ذلك من أنفسهم ثابت فيها وما دامت العلة ثابتة فإن أثرها وهو المعلول لا يتخلف عنها»⁽³⁾، إن في هذا استدلال على معاندتهم ومكابرتهم، وفي هذا الاستدلال

(1)-المرجع نفسه، ص183.

(*)-إن الذي كانوا يخفونه في الدنيا فيه أقوال: 1-أنه أعمالهم السيئة وقبائحهم الشائنة. 2-أنه أعمالهم التي كانوا يفترون بها. 3-أنه كفرهم وتكذيبهم الذي أخفوه في الآخرة من قبل أن يوقفوا على النار. 4-أنه الحق أو الإيمان الذي كانوا يسرونه ويخفونه بإظهار الكفر والتكذيب عناد للرسول واستكبارا عن الحق. 5-أنه ما كان يخفيه الرؤساء عن أتباعهم من الحق الذي جاءت به الرسل، بدأ للاتباع الذي كانوا مقلدين لهم. ومنه كتمان علماء أهل الكتاب لرسالة نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته وبشارة أنبيائهم به. 6-أنه ما كان يخفيه المنافقون في الدنيا من إسرار الكفر والتظاهر بالإيمان والإسلام. 7-أنه البعث والجزاء. 8-أن في الكلام مضافا محذوفا، أي بدالهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات. السيد رشيد رضا، تفسير المنار، ص353. ويرى السيد أن الصواب هو أن يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا، مما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم. ولم يرجح قولاً من الأقوال السابقة.

(2)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج2، ص1049.

(3)-السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج4، ص355.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إقناع لهم بقساوة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الحق، وفيه إقناع للمخاطبين بأن المشركين طُبع على قلوبهم فهم لا يهتدون بحال، ثم إن تمنّيهم العودة إلى دار الدنيا وترك التكذيب وتحصيل الإيمان ليس معناه أنهم راغبون في الإيمان، بل من أجل ما شاهدوه وعايَنوه.

وقوله تعالى: [وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ]، ارتقاء في إبطال قولهم، حتى يكون بمنزلة السليم الجدلي في المناظرة، فلو رُدّوا إلى الدنيا لعادوا للتكذيب وإنكار البعث⁽¹⁾.

وفي هذا الاستدلال إقناع لهم بأنهم كاذبون، وأنهم متمسكون بالشرك ولا ينفصلون عنه بحال، وفي الاستدلال أيضا ردّ عليهم، ولقولهم. وقوله تعالى: "وأنهم لكاذبون"، «أي في تمنّيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان»⁽²⁾، فهم كاذبون لما تمنوا الرجوع رغبة في الإيمان، وإنما تمنوا الرجوع خوفا وفرارا مما عايَنوه وشاهدوه من أحوال الجحيم.

(1)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1050.

(2)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص186.

المبحث الثاني: الحوار ودوره في الإقناع

أ- تعريفه:

- لغة: «الحُورُ: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حَارَ إلى الشيء وعنه حُورًا ومحارًا ومحارة، وحُورًا: رجع عنه وإليه.

والحُورُ: ما تحت الكوز من العمامة لأتفه رجوع عن تكويرها، وكلمته فما رجع إليّ حَوَارًا وحَوَارًا ومُحَاوَرَةً وحَوِيرًا ومُحَوَّرَةً بضم الحاء بوزن مشورة أي جوابا. وأحَارَ عليه جوابه: ردّه وأحرت له جوابا وما أحارَ بكلمة.

والمُحَاوَرَةُ: المجابوة. والتَّحَاوَرُ: التجاوبُ، وتقول كلمته فما أحار إليّ جوابا وما رجع إليّ حويرا ولا حَوِيرَةً ولا مَحُورَةً ولا حَوَارًا أي ما رد جوابا. واستحاره أي استنطقه.

وفي حديث عليّ كرم الله وجهه: يرجع إليكما ابنا كما بحورٍ ما بعثنا به أي جواب ذلك.

يقال كلمته فما ردّ إليّ حورًا أي جوابا، وقيل أراد به الخيبة والإخفاق وأصل الحُورِ: الرجوع إلى النقص وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمُحَاوَرَةُ: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره، والمحورة من المحاورة مصدر كالمشورة من المشاورة كالمحورة.

وما جاءني عنه محورة: أي ما رجع إليّ عنه خبر وإتته لضعيف الحورٍ أي المحاورة.

ويروى: حويره: إنما يعني بحواره وحويره خروج القدح من النار أي نظرت الفلج والفور، واستحار الدار. استنطقها من الحوار الذي هو الرجوع⁽¹⁾.

استخلص من هذا التعريف أن الحوار هو مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة

(1)-ابن منظور، لسان العرب، مادة حور، ج3، ص204-205.

والمحاورة هي المجاورة. والتحاور هو التجاوب.

-اصطلاحاً: إنّ الحوار هو «تفسير فكري وفني معاً، وأداة من أدوات التعبير»⁽¹⁾. ويدور بين اثنين أو أكثر، بغية الإقناع معتمداً على الحجة والبرهان، بعيداً عن الفرض والحتم، سالكا مسلك النظر والتدبر، مبينا ما ينجم عن القضية المتحاور فيها من آثار ايجابية وسلبية.

ب- منهجية الحوار:

إنّ التخلف في طريقة التواصل والتخاطب، يرجع إلى عدم اعتماد المنهج العلمي في الحوار، وتقوم منهجية الحوار على أصول علمية^(*) شرعية منها:

1- العلم: ينبغي للمحاور أن يكون ذا علمٍ «بالمسائل التي يريد أن يحاور فيها قادراً على النظر والموازنة والترجيح بين الأدلة المختلفة، وقادراً على الاستنباط والجمع بين أطراف الأدلة»⁽²⁾.

لا بد للمحاور أن يكون محيط العلم بالمسألة التي يحاور فيها مع القدرة على النظر والموازنة.

2- حسن الفهم: إن من أصول منهجية الحوار حسن الفهم وهذا ما يدع الحوار يسير إلى الوجهة الصحيحة. ولكي يسير إلى هذه الوجهة الصحيحة «لا بد من حسن الفهم لحجج الطرف الآخر وأدلته وأقواله المؤثرة على أفعاله وتصرفاته»⁽³⁾. فالحوار يقوم على حسن الفهم، وذلك بغية الإقناع والوصول إلى الهدف.

(1)- محمد عبيد الحمزاوي، فن الحوار والمناظرة في الأدبيين الفارسي والعربي في العصر الحديث، تقديم: محمد زكي

العشماوي، ط1، مركز الإسكندرية للكتاب، سوتير، 2001، ص3.

(*)- لقد تبينت في أصول منهجية الحوار تقسيمات، أحمد بن عبد الرحمان الصويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ط1، دار الوطن للنشر، 1314هـ، ص43-51. وتقسيمات أحمد حسن يوسف العمري، وصالح محمد أحمد العمري، في كتابيهما: الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة، دط، دار الوضاح، الأردن، عمان، 2006، ص36-41.

(2)- أحمد بن عبد الرحمان الصويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص43.

(3)- المرجع نفسه، ص49.

3-التأصيل الشرعي لدرء النزاع:

يشترط في الحوار المنهجي المثمر أن تتوفر فيه أصول «مرجعية معتمدة، متفق عليها، يرجع إليها لمعرفة الحق من الباطل، والراجح من المرجوح، والفاضل من المفضول»⁽¹⁾، فخلو الحوار من الأصول المرجعية المعتمدة يعني أنه حوار جاف لا يمكن أن يصل إلى نتيجة معينة، والرد إلى كتاب الله والسنة النبوية الصحيحة هو الذي يدرأ النزاع.

4-تحديد الهدف:

إن من الأصول التي تقوم عليها منهجية الحوار، تحديد الهدف فينبغي «تحديد نقاط الاختلاف بين المتحاورين بدقة ثم تُرتَّب في سلم المحاوراة الواحدة بعد الأخرى، يبدأ بالأهم فالمهم، فينتقل الحوار من الأصول إلى الفروع ومن الكلّيات إلى الجزئيات»⁽²⁾.

5-الرفق والبعد عن العنف

يجب على كل من المتحاورين أن يتسما بصفة الرفق واللين، وأن يبتعد عن العنف، لأنّ العنف ليس وسيلة من وسائل الإقناع، بل هي وسيلة من وسائل التنفير والاشتمزاز، ولقد حث رسول الله ρ على الرفق، فعن عائشة رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ρ : «يا عائشة إنّ الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»⁽³⁾.

فإنه سبحانه وتعالى يجازي على الرفق جزاء موفورا، وأنه أحب إلى الله Y ، أما العنف فمذموم مدحور، إذ أنه ليس من السلوكات الحميدة التي تزرع روح المحبة والإيحاء في عالم الإنسانية.

6-وضوح اللغة التي يتحدث بها لفظا ومعنى

(1)-أحمد بن عبد الرحمان الصويان، الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص50.

(2)-المرجع نفسه، ص51.

(3)-الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، دط، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، مج4، ج8، ص22.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

يجب أن تكون اللغة الحوارية مفتوحة وواضحة لفظاً ومعنى، والله سبحانه وتعالى ما أرسل من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم.

7- التسليم للخصم فيما يعرض من حق

يجب التسليم والقبول والإقناع حين بزوغ الحق ولا يمكن رده.

8-مراعاة حال المحاور

ينبغي أن يراعي حال المحاور ومستواه فيخاطب بما يفهم ويقرب له الفهم بحسب ما يحتاج إلى ذلك.

9-سعة الصدر والابتعاد عن الغضب

قال الله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ] ⁽¹⁾، ينبغي اجتناب الغضب، حين الحوار وينبغي على المحاور أن يكون ذو صدر واسع حتى يقبل الحجة والبرهان.

ج-موضوع الحوار

يجب معرفة موضوع الحوار، فالجهل في موضوع الحوار ينقل «إلى مرأء وخصومة وشك» ⁽²⁾. إذ يجب العلم بموضوع الحوار.

د-أسلوب الحوار في القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «فهو الكلمة الفاصلة في كل ما يريد الله وما لا يريد وهو الحقيقة الحاسمة التي لا يرقى إليها الشك» ⁽³⁾، قال الله تعالى: [ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ] ⁽¹⁾.

(1)-سورة الأعراف، الآية: 199.

(2)-أحمد حسن يوسف العمري، صالح العمري، الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة، دط، دار الوضاح، الأردن، عمان، 2006، ص42.

(3)-محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1985، ص10.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

فهو الكتاب الذي يتوجه إلى إقناع العقل بشتى أنواع وأساليب الإقناع، بعيدا عن الحتم والعنف، ومن أنواع الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن، الأسلوب الحواري.

فلقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الحوار بأنواعه لاستقطاب الناس نحو الإيمان والدعوة الإسلامية «ووصول الناس إلى الحق هو الهدف من كل العمليات التي كان يقوم بها القرآن في عقول الناس وقلوبهم بعيدا عن القسر⁽²⁾ والإكراه⁽³⁾».

فالقرآن الكريم يصل بعقول الناس وقلوبهم إلى الحق، وبعيدا عن الإكراه، إذ يصل إلى ذلك الإقناع عن طريق الحجة والبرهان «والحوار في حقيقته يتوجه إلى العقل البشري ليتفكر ويجول فيما خلق الله وفيما أمر ونهى ليستدل على الحقيقة التي أمر البشر في البحث عنها⁽⁴⁾». فالحوار يدع العقل يتفكر وينظر ويتدبر في خلق الله تعالى وفي أوامره ونواهيه، فهو من الأساليب التي تقنع العقل البشري عن طريق الحجة والبرهان، فهو يخرج الذهن من اضطراباته، والعقل من حيرته، لأنّ الحوار «يكون عندما يضطرب الذهن، ويصبح العقل في حيرة من أمر ما أو قضية من القضايا، والمراد من الحوار أن يخرج العقل من اضطرابه وحيرته⁽⁵⁾».

وقد يخرج الذهن والعقل من الاضطرابات عن طريق البيان وتقديم الحجة والبرهان، وإزالة الشك، وبروز اليقين، وعليه يمكن القول أن الحوار القرآني أسلوب من أساليب القرآن الإقناعية التي تنتقل بالعقل من حالة إلى حالة، ومن صورة إلى صورة هدفها الأسمى هو الإقناع واتباع الحق.

هـ-أنواع الحوار في القرآن الكريم

إن الإسلام حين بدئه واجه تحديات عديدة من قبل الكفار، ولقد «كان من بين

(1)-سورة البقرة، الآية: 2.

(2)-القسر: القهر على الكره، يقال: قسرته قسرا واقسرته أعم. الفراهدي، كتاب العلم، ص787.

(3)-العمرى، الحوار، ص92.

(4)-المرجع نفسه، ص92.

(5)-المرجع نفسه، ص9.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الأهداف التي استهدفها الإسلام في دعوته أن يرسم للأمة منهجا جديدا، سواء في طريقة التفكير أو في طريقة محاكمة القضايا التي تواجهها في حياتها»⁽¹⁾، فهذا المنهج الجديد قوبل أحيانا بالمعارضة والرفض، ولقد وجه القرآن الناس «إلى الطريقة العقلية التي تتمثل في محاكمة الفكرة على ضوء المقاييس العقلية، أو الطريقة الاستقرائية التي تعتمد على استقراء الواقع في جميع صورته ومظاهره من أجل الوصول إلى المعرفة»⁽²⁾، فلقد دعا إلى تحكيم الفكر وإعمال العقل بغية الوصول إلى معرفة الحقائق التي من خلالها يتم تغيير ما كانت عليه الأفكار، وكان للحوار دور في ذلك فعال، ولقد ورد في القرآن على أنواع عديدة منها.

1-الحوار مع المشركين: لقد واجه الرسول ρ في بداية الحركة الإسلامية في الدعوة إلى الله موضوع الشرك بالله كمشكلة مطروحة، تمثلت في الأصنام التي كان يعبدها الناس آنذاك⁽³⁾. وأصبحت قداستها في النفوس عظيمة، فتمسك بها الناس، ورأوها المقرب إلى الله تعالى، أضف إلى ذلك أنهم لم يكونوا يقرون بالإله الواحد، بل يقرون بتعدد الآلهة قال الله تعالى: [أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ] ⁽⁴⁾. فلقد أصابهم العجب حين دعاهم الرسول ρ إلى عبادة الله الواحد الأحد، وأنكروا ذلك، فإنهم تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم رسول الله ρ إلى الوجدانية أعظموا ذلك قبحهم الله تعالى⁽⁵⁾.

ولقد اتبع الأسلوب القرآني طريقة الحوار مع المشركين، فدعاهم إلى تحكيم العقل عن طريق النظر والتدبر، كما أبطل ما يعبدون من دون الله، وفي الوقت نفسه أثبت لهم أن الشرك يفقد دليل الإثبات تماما. كما أقنعهم بأن الله واحد سبحانه وتعالى عما يشكرون.

(1)-محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص68.

(2)-المرجع نفسه، ص68.

(3)-ينظر: المرجع نفسه، ص69.

(4)-سورة ص، الآية: 5.

(5)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص2460.

وبيّن لهم أن الأصنام لا تفعل شيئاً، مقدماً في ذلك الحجة والبرهان، ومن أمثلة الحوار القرآني مع المشركين قوله تعالى: [أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (192) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (193) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلَا تُنظِرُونِي] (1).

فلقد جاء الأسلوب القرآني في هذه الآيات الكريمت بالطريقة الحوارية، ونلاحظ في البداية نفي الخالقية عن الأصنام وإثبات أنها مخلوقة وهذا يبطل عبادتها، ثم نفي القدرة عن نصره أنفسهم وغيرهم، وبعد هذا نفي عنهم التأثير، ثم أقر بأنهم مخلوقين كخلق عباده، ثم برهن للمشركين بأنهم أفضل من الأصنام، لأن الأصنام يفقدون الأرجل والأيد والأعين والأذان، وفي هذا إبطال لما يزعمه المشركون، ولقد تعددت الطرق الحوارية مع المشركين في القرآن الكريم.

2- الحوار مع الملحدين: بعد موضوع الشرك واجه الإسلام قصة الإلحاد «ولكن بشكل أقل امتداداً وانتشاراً من موضوع الشرك» (2).

لأن قضية الإلحاد لم يكن لها الامتداد المباشر في المجتمع الذي ولدت فيه الرسالة، بل كان لها امتداد في مجتمعات أخرى (3).

ومن أمثلة الطرائق الحوارية التي جاء بها الأسلوب القرآني في محاوره الملحدين قوله تعالى: [وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ] (4).

ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون

(1) -سورة الأعراف، الآيات: 191-195.

(2) -محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص 89.

(3) -ينظر: المرجع نفسه، ص 89.

(4) -سورة النحل، الآية: 89.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وبعدها يرزقهم السمع والأبصار والأفئدة، وجعلها سبحانه وتعالى في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه⁽¹⁾.

ففي هذه المحاور إخبار من الله سبحانه وتعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، وأنه يخلق من العدم ويجعل الجوارح للإنسان وفي هذا إقناع للملحدين بتوحيد الربوبية^(*).

3- الحوار مع المنكرين للمعاد:

لقد واجه الإسلام فكرة إنكار البعث والحياة بعد الموت بصفة عامة، قال تعالى: [وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ. وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ. أَئِنذًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ] ⁽²⁾. فهذا دليل على إنكارهم البعث، ولم يكن لهم في ذلك حجة ولا برهان، فهم ينكرون ذلك لإنكارهم أن يتحول الجماد إلى حياة، ولقد حاورهم القرآن في ذلك وأقنعهم عن طريق العقل والحس، واثبت لهم أن المعاد في إطار قدرة الله. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهَا بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] ⁽³⁾.

فالآية الكريمة تتحدث عن منكري البعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، ولقد بين لهم المولى سبحانه وتعالى أنه لم يكرهه خلق السماوات والأرض بل قال لها كوني فكانت. بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلية، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟⁽⁴⁾. كما قال في آية أخرى: [لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م2، ص1644.

(*)-توحيد الربوبية: هو كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية: الإمام القاضي علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2005، ص86.

(2)-سورة الصافات، الآيات: 14-17.

(3)-سورة الأحقاف، الآية: 33.

(4)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص2641.

مِنْ خَلَقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] (1).

ففي المحاوراة الآتية حجج وبراهين على البعث، فلقد استدل على البعث بخلق السماوات والأرض، وهذا ما لا يجده جاحد، وفي الآية دعوى إلى تحكيم العقل عن طريق الحس، فخلق السموات والأرض يستدعي كونه جلّ وعلا قادر على أن يحيي الموتى.

4- الحوار مع المنكرين للنبوة: واجه الإسلام قضية إنكار النبوة، ولقد كانت النبوة

«موضع جدل ونقاش في مجتمعها الذي تعيش فيه»⁽²⁾، ويرجع ذلك إلى أن النبوة حدث غير عادي لأنها دعوة تتميز بارتباطها بما وراء هذا العالم من خلال الوحي الذي هو ظاهرة غير عادية، لأنه يمثل الاتصال غير المنظور بالقوة غير المنظورة، لأنها ليست من عالمنا هذا⁽³⁾.

ولقد واجه الإسلام هذه القضية، فالكفار مرة ينسبون إلى الرسول μ السحر، ومرة الشعر، ومرة أساطير الأولين، إلى غير ذلك، ولكن الأسلوب القرآني حاورهم وقادهم إلى تصحيح مفاهيمهم الخاطئة التي يحملونها عن النبوة ودورها في الحياة وعرفهم بشخصية النبي μ وطاقاته، كما أثبت لهم أنه لا عجب أن يوحى إلى رجل منهم، وأظهر لهم جليا أن الرسول μ لا يملك لنفس نفعا ولا صرا ولا يعلم الغيب وما هو إلا نذير وبشير، ولقد وردت محاوراة القرآن الكريم لمنكري النبوة في مواضع عديدة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: [وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ] (4).

فهذا دليل على صدق نبوة محمد μ وتكمن الحجة البالغة في عجزهم عن الإتيان

(1) -سورة غافر، الآية: 57.

(2) -محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم، ص95.

(3) -ينظر: المرجع نفسه، ص95.

(4) -سورة البقرة، الآيتان: 23-24.

بمثل ما أوتي به.

ولقد دعاهم القرآن الكريم إلى تحكيم العقل والنظر في صحة ما جاء به رسول الله ρ وذلك عن طريق الحجج والبراهين.

5- الحوار مع أهل الكتاب: لم يلتق الرسول ρ مع أهل الكتاب في موقف صراع في مكة، إذ كان المجتمع في ذلك الوقت وثنيا مشركا إلا من بعض الافراد القلائل، لذلك لا تجد في الآيات التي نزلت في مكة ما يشير إلى أي جدل أو حوار بينه وبينهم، فقد كان يحارب تيار الشرك والوثنية من جهة، ولأنهم لا يُعتبرون مشكلة إسلامية من جهة أخرى⁽¹⁾، كما وُجد تعاطف وتقارب في البداية بين الرسول ρ وبين المجتمع النصراني، ومن أمثلة ذلك هجرة المسلمين إلى الحبشة، وهاجر أيضا إلى المدينة المنورة فواجه اليهود من أهل الكتاب ولم يحاول أن يصطدم بهم، ولقد حاور القرآن الكريم أهل الكتاب بغية الدخول في الإسلام، ولأن الإسلام نسخ الديانات السابقة، كما دعاهم إلى التخلي عن الكفر والشرك، قال الله تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ] ⁽²⁾.

6- الحوار القصصي في القرآن الكريم: لقد آثر القرآن الكريم في أساليبه أكثر من أسلوب «من أجل الوصول إلى عقل الإنسان وشعوره فيما يفكر به في قضايا العقيدة والحياة»⁽³⁾.

فلقد نوع القرآن الكريم الأساليب وتفنن فيها من أجل إقناع العقل والوصول إلى شعوره، ولقد كانت القصة من بين الطرق التي سلكها القرن إذ أنها مرتبطة بالخط القرآني الكبير، أضف إلى ذلك أنها تحمل عبر وعظات، وهذا كله من أجل الدعوة إلى الله وإرشاد الناس إلى الحق وهدايتهم إلى الإيمان بالله والإسلام له، ولم تكن القصة مجرد

(1)-محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص117.

(2)-سورة آل عمران، الآية: 64.

(3)-محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ص213.

عرض تاريخي، ولقد ورد الحوار القصصي في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها قصص الأنبياء في حوار الرسالة وقصة إبليس لعنه الله، وغيرها.

هـ- الحوار ودوره في الإقناع

إن الحوار سلوك حضاري وأسلوب إقناعي، ولقد حفل القرآن الكريم بالأساليب الحوارية، وانطلق الإسلام في حياة الناس من قاعدة أصيلة تكمن في اعتبار العقل قوة صالحة للحكم على الأشياء، وميزان يزن به صحة القضايا وفسادها⁽¹⁾.

إن الإسلام يريد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان في إطار البرهان، والحوار يقوم على الحجة والبرهان، لذا كان من الأساليب الإقناعية في القرآن الكريم، والتي تنتهي بالعقل إلى الإيمان العميق، ثم إن الأسلوب الحواري معناه البعد عن العنف وفرض الرأي، ولقد ركز الإسلام على طريقة الحوار بغية الوصول إلى المعرفة وموقف الحق، ولقد تعددت الأساليب الحوارية في القرآن الكريم.

دراسة نماذج تطبيقية من الحوار في سورتي البقرة والأنعام ودوره في

الإقناع:

النموذج الأول:

قال الله تعالى: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

(1)-ينظر: المرجع نفسه، ص 29.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الكَافِرِينَ. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ⁽¹⁾.

فالواو قوله تعالى: [وَإِذْ^(*) قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ^(**) إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(***)]، عطف قصة خلق أول البشر على قصة خلق السموات والأرض، وقد مرّ معنا دراسة ذلك في مبحث الجدل.

وفي هذا العطف إقناع بوحداية الخالق وذلك عن طريق الاستدلال بخلق آدم لأن «خلق أصل النوع أمر مدرك بالضرورة»⁽²⁾، فوجود الإنسان مسبوق بوجود أصل له، وهذا ما لا ينكره عاقل، وإذا استقر ذلك ثبت أن الإنسان خلق من العدم، وعليه يجب في العقل أن الذي أوجد من العدم لا بد أن يكون واحداً.

فالله سبحانه وتعالى يقول لنبيه أذكر يا محمد وأقصص على قومك إذ قال ربك للملائكة: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً]، أي قوما يخلف بعضهم بعضاً، قرنا بعد قرن وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ]⁽³⁾⁽⁴⁾.

في الآية الكريمة محاولة بين الله سبحانه وتعالى وملائكته الأبرار.

فلما قال لهم: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ

(1) -سورة البقرة، الآيات: 30-36.

(*) -قال أبو عبيدة: إذ زائد، وقال القرطبي: أنكر هذا القول الزجاج والنحاة وجميع المفسرين. ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م، ج1، ص181. وقال النحاس: إذ ظرف زمان ليس مما يزداد: أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس، اعتنى به الشيخ خالد العلي، إعراب القرآن، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006، ص32.

(**) -قال الطاهر بن عاشور: الملائكة مخلوقات نورانية سماوية مجبولة على الخير قادرة على التشكل في خرق العادة: التحرير والتنوير، م، ج1، ص398.

(***) -اختلف في المراد بالخليفة هل هو آدم أم ليس آدم عينا. والظاهر ما ذهبنا إليه. ابن كثير، ج1، ص166.

(2) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م، ج1، ص395.

(3) -سورة الأنعام الآية: 165 [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ].

(4) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص166.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ [، فجواب الملائكة ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم⁽¹⁾ . والجعل في هذا الموضوع بمعنى الخلق. ومن المعلوم أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمت ولا تسبق بالقول وذلك عام في جميع الملائكة، فكيف قالوا: [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا]. فقيل المعنى أنهم لما سمعوا لفظ الخليفة فهموا ان في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد⁽²⁾ . فالله عز وجل حاور ملائكته في قضية جعل الخليفة في الأرض.

فقالوا أتجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، قال ابن كثير «فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك»⁽³⁾ . وهم يسبحون بحمد الله ويقدمون له ولا يقع الاقتصار عليهم، فأجابهم الله عز وجل بقوله: [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ]، «أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم»⁽⁴⁾ .

إن في هذه الآيات الكريمات محاورة بين الله عز وجل وملائكته الأبرار فقال لهم: [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً]، وهذا القول موجه لهم على وجه الإخبار «ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالأستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريم»⁽⁵⁾ ، وفي هذا إقناع لهم بأن هذا الجنس تغلب عليه المصلحة الراجحة على الفاسدة، فعن طريق هذا الحوار تعرف الملائكة فضل آدم وبنيه، فلما قالوا: [أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ]، قال الحق [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ]، وهذا جواب لكلامهم، ففي هذه المحاورة إقناع للملائكة بأن البشر فيه من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وليس صفات الفساد فقط.

(1)-ينظر: المصدر نفسه، ص166.

(2)-ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م، 1، ج1، ص189.

(3)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م، 1، ص166.

(4)-المصدر نفسه، ص166.

(5)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م، 1، ج2، ص400.

فمن طريق هذه المحاوره حصل إقناع الملائكة بخلق الخليفة في الأرض وأن من هذا الخليفة الصالحون. وهذا من بلاغة الحوار في القرآن الكريم.

بعد أن جاء الأسلوب القرآني بالاستدلال الإجمالي وذلك في قوله تعالى: [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ]، أعقب ذلك بالاستدلال التفصيلي في قوله تعالى: [وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا]. فتعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله: [إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ]»⁽¹⁾. ففي هذا إقناع للملائكة بجداره هذا المخلوق بالخلافة في الأرض، وقوله تعالى: [ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ] ، أي عرض تلك المسميات على الملائكة وقال: «أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: أتجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك»⁽²⁾، ففي هذه المحاوره إقناع للملائكة بأنهم غير عالمين بما هو غير موجود وذلك بدليل عدم علمهم بتلك الأسماء [قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ] .

فهذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه⁽³⁾. وأنه علام الغيوب وفي هذا إقناع بأن الملائكة لا تعلم إلا بما أطلعها الله عليه، وأن العلم لله وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: [قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ] ، فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة -عليهم السلام- في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله تعالى ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي⁽⁴⁾. وفي هذا إقناع لهم بفضل آدم -عليه السلام-، وإقناعهم بأن الله قد أحاط بكل شيء علما.

(1)-المصدر نفسه، ص407.

(2)-القول لابن عباس: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص172.

(3)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص172.

(4)-ينظر: المصدر نفسه، ص173.

إن هذه المحاورة التي تضمنتها الآيات الكريمة فيها إقناع للملائكة بأن الجنس البشري منه الصالح وليس كله مفسد وسفاك، أضف إلى ذلك أن فيها إقناع للملائكة الأبرار بأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه وتعالى، وفيها إقناع لهم بأن الله يعلم الغيب الظاهر والخفي، وإقناع لهم بفضل الجنس البشري، فعن طريق بلاغة الحوار حصل ذلك الإقناع للملائكة الأبرار -عليهم السلام- والأسلوب القرآني لا يفرض الفكرة فرضاً، بل عن طريق الإقناع بشتى أساليبه.

النموذج الثاني:

[وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] (1).

إن هذه الآيات الكريمة تصور قصة (*) من قصص بني إسرائيل مع موسى عليه

(1)-سورة البقرة، الآيات: 67-71.

(*)-تتظر القصة في: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص219.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الصلاة والسلام، فالله سبحانه وتعالى يقول: «واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة»⁽¹⁾. فموسى عليه السلام أمر قومه بما أمرهم الله سبحانه وتعالى وهو ذبح البقرة فلما ذكر لهم ذلك: [قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا] .

وفي هذا إقرار منهم بالتعنت والاستهزاء بدين الله ونبيه وبالمسلمين، فهم لم يأخذوا الأمر مأخذ جدية بل اعتبروه سخرية، وهذا لا يليق بمقام الرسول ρ قال فضل الله «لأنهم لم يجدوا علاقة بين ما سألوا عنه من فصل الخصومة ومعرفة القاتل وبين الأمر بذبح البقرة، حتى إذا رأوا الأمر جديًا حاولوا أن يتلاعبوا به أو هكذا يخيل إلينا من أسلوبهم في السؤال»⁽²⁾.

أرى أنّ هذا التأويل بعيد، لأنه لا عذر لهم في ذلك بل هم مستهزونون، فإن قلت ما الدال على ذلك؟ قلت: إنهم يعلمون أن موسى مرسل من عند الله وأن ما يأمرهم به فهو أمر الله، فكيف لهم أن ينظروا إلى الأمر نظرة سخرية نتيجة تباعد العلاقة؟ والظاهر أن قولهم دليل تعنتهم وعدم إيمانهم.

قال تعالى على لسان موسى: [قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ] ، وهذا تبرؤ وتنزه عن الهزء لآئه لا يليق بالعقلاء الأفاضل فإنه أخص من المزح لأنّ في الهزء مزحا مع استخفاف واحتقار للممزوح معه»⁽³⁾.

فموسى -عليه السلام- برأ نفسه ونزّها مما نسبوه إليه وقوله في هذه المحاورة [قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ] . إقناع من موسى -عليه السلام- لبني إسرائيل ببطلان قولهم، وإقناع لهم بأنه -عليه السلام- منزّه عن الاستهزاء، ثم إن صيغة [أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ] ، أبلغ في انتفاء الجهالة من أن لو قال أعوذ بالله أن أجهل. وذلك لأنّ اسم الفاعل يقتضي الانتفاء التام والأبدي أما صيغة أن أجهل ففيها عدم الانتفاء

(1)-المصدر نفسه، ج1، ص219.

(2)-فضل الله، الحوار في القرآن، ص275.

(3)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص548.

التام (1).

ولصيغة اسم الفاعل أثر عظيم على إقناع بني إسرائيل باستيفاء الاستهزاء عن موسى -عليه السلام-، ولهذه المحاورة أثر على إقناعهم، بما أمروا به ولذلك [قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ] . ففي الآية دليل على قبولهم الأمر ودليل آخر على تعنتهم، لما ضيقوا على أنفسهم ضيق عليهم الله سبحانه وتعالى، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت، لوقعت الموقع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم، ولو أخذوا أي بقرة كانت لكفنتهم (2) . [قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون]، أي: «لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل» (3)، فلقد بين لهم موسى -عليه السلام- البقرة التي تدبح، ولم يعترض عليهم بشيء ولقد لبي ما طلبوه منه، ولما بين لهم صنف البقرة لم يكتفوا بذلك لأنهم معاندون ومتهريون من هذا الأمر، وطلبوا منه لون البقرة [قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ] ، أي لونها شديد الصفرة، تكاد من صفرتها تبييض، وتعجب الناظرين (4)، فكلما طالب بنو إسرائيل موسى بنوع هذه البقرة وصنفها جاءهم بما يطلبون، فلقد أرادوا بيان اللون فبين لهم ذلك ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل [قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] . فبعد أن بين لهم اللون، رجعوا وطلبوا منه التحديد ولكنهم في هذه المرة اعتذروا وذلك عند قولهم [إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا] . وسبب اعتذارهم أنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلا عن هذا التكرير في السؤال، فلم يعتذروا في المرتين الأولىين ولكن اعتذروا في الثالثة لما في ذلك من وقع من النفس في التأكيد والسامة (5) . فعندها بين لهم موسى عليه السلام أنها بقرة

(1)-ينظر: المصدر نفسه، م 1، ج 2، ص 548.

(2)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 222.

(3)-المصدر نفسه، ص 222.

(4)-ينظر: المصدر نفسه، ص 223.

(5)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 1، ج 2، ص 554.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

ليست مذلة بالحرث ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسنة صبيحة صحيحة لا عيب فيها وليس فيها لون غير لونها [قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ] . فلما بين لهم موسى ذلك قالوا له الآن قد بينت لنا.

إن هذه المحاورة بين موسى كليم الله وبني إسرائيل في قضية ذبح البقرة، فلما قال لهم موسى إن الله يأمركم بذبح بقرة فنظروا إلى الأمر على أنه من باب التلاعب، نتيجة تعنتهم، ولكن موسى أبطل ما يشكون به، وواجه الموقف بأعصاب باردة والتزم معهم طريقة الحوار.

إن مواجهة موسى لبني إسرائيل بهذه الطريقة فيها إقناع بأن الحوار أساس التفاهم وإقناع بأن السبيل الوحيد الذي يوصل إلى النتائج الإيجابية هو برودة الأعصاب، وإقناع بأن الإنسان مهما علت منزلته فإنه ينزل الناس منازلهم، كيف؟ وهو رسول الله ρ ، وأتهم بالاستهزاء ولكنه ردّ على ذلك وأبطله بأسلوب حوار متأدب وبأجوبة هادئة، ووصل إلى إقناعهم بذلك وقبلوا ما طلب منهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن طريقة موسى مع قومه طريقة تربوية عملية تغلق الأبواب على أساليب التلاعب بالأوامر الملقاة إليهم، أضف إلى ذلك أن في هذه المحاورة، إقناع للعاملين بتناول المسؤوليات الموجهة إليهم من المسؤولين بكل بساطة وبدون تملل.

ثم إن بني إسرائيل لما قبلوا الأمر طلبوا صنف هذه البقرة، فلبى موسى رغبتهم، فهو لم يقل لهم لما تسألوا عن ذلك، بل أجابهم على قدر ما هم يسألون. وهذه طريقة الحوار في الإقناع أو بلاغة الحوار الإقناعي، وهي طريقة تربوية رائعة إذ تجعل للطالب المجال مفتوحاً أمام مطلوبة.

أضف إلى ذلك أن في جواب موسى إقناع للعقل بالصبر في المواقف حتى الوصول إلى الغرض.

ويعد طلبهم هذا أرادوا بيان اللون، فأجابهم على ذلك مبيناً لهم لون البقرة، وفي هذا لون آخر من ألوان الصبر الذي يتميز به موسى عليه السلام، فهو لم يعترض عليهم ولم

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

يكتف بأب ببن لهم بأب البقرة [لآ فأرضُ ولآ بكُرُ عَوَانُ] . بل تتبع بدقة مأ يطلبونه، وفي هذا إقناع بأب من شأنه الوصول إلى غرض معين يجب عليه أن يصبر ويتق وأن يداري محاوره ولا يضيق عليه لأن في ذلك تنفير وهروب للنفس.

وبعد بيان اللون طلبوا تحديد هذه البقرة ولكن جاءوا بطريقة لطيفة، وسبب هذه الطريقة، هو طريقة موسى عليه السلام، التي استخدمها معهم، فلما واجه الموقف ببرودة أعصاب وبتتبع دقيق، أثر ذلك عليهم وهذا من آثار الأسلوب الحوارى الإقناعى، فبعد أن حدد لهم البقرة بالضبط فعلوا ما أمروا به. ولقد كان لهذه المحاوره إقناع لبني إسرائيل بأب ما جاء به موسى هو الحق، ويجب أن يتبع.

النموذج الثالث:

[وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون. ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمُّ بكم عمي فهم لا يعقلون] (1).

إن المقصود بالخطاب هم المشركون والآية معطوفة(*) على قوله تعالى: [ولا تتبعوا

(1) -سورة البقرة، الآيتان: 170-171.

(*) -فالمعطوف هو قوله تعالى: [...وإذا قيل... ولا يهتدون].

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

خُطُوتِ الشَّيْطَانِ] (**). وفي الآية زيادة تفضيع لحال الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عن يدعوهم إلى إتباع ما أنزل الله وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبير (1).

فهؤلاء الكفرة المشركون أعرضوا عن اتباع ما جاء به الرسول ρ وتمسكوا بما ألفوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام والأنداد.

ففي الآية الكريمة حوار مع المشركين الذين هم بما ألفوا عليه آباءهم مستمسكون، فلما طُلب منهم الإيمان بما أنزل الله [قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا]. وفي "بل" إضراب إبطال، أي أضربوا عن قول الرسول ρ ، اتبعوا ما أنزل الله، إضراب إعراض بدون حجة إلاّ بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم» (2).

إن قولهم الذي لا حجة فيه، فيه إقناع لهم ببطلان عبادة ما وجدوا عليه آباءهم، ولقد استخدم الأسلوب القرآني الطريقة العقلية في الرد عليهم وإقناعهم، وذلك عند قوله تعالى: [لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]. «أي ليس لهم فهم ولا هداية» (3)، ففي هذا دعوة إلى النظر والتفكير فما دام الآباء كانوا يبتعدون عن الفهم والهداية، فهذا فيه الحجة على بطلان عبادة ما كانوا يعبدون، وفي هذا إقناع للعقل بأن تلك العبادة التي كان عليها الآباء لا تغني شيئاً وأن ذلك الآباء كانوا عديمي الفهم إذ [لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ]. فلو حكّموا عقولهم التي منحهم الله إياها لوقفوا على ضلالهم المبين، كيف يُعبد من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا؟ وكيف يعبد من يكون العابد أفضل منه؟ أضف إلى ذلك أن في الآية إقناع بأن هؤلاء المشركين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، لأنهم مثل آباءهم وفي هذه المحاوراة إقناع لهم بأنهم وآباءهم في ضلال مبين. ولما جاء الأسلوب القرآني

(**) - الآية 168 وتتمتها [يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ].

(1) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م2، ج1، ص106.

(2) - المصدر نفسه، ص106.

(3) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص348.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

بالطريقة العقلية لإقناعهم أرفها بطريقة حسية تكمن في قوله تعالى: [وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ]، أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيا أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، فهم صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه، ولا يعقلون شيئا ولا يفهمونه⁽¹⁾.

في الآية تمثيل للكفار بسوء حالهم وأنهم كالأنعام بل هم أضل، ولهذا التمثيل دور هام في إقناعهم بضلالهم، وجهلهم، ولقد حصل هذا الإقناع عن طريق الحس، إذ صورت الآية الكريمة حالهم فلا طريق يتبعونه غير طريق الضلال، أضف إلى ذلك أن في هذه المحاورة إقناع بأن الكفار عقولهم معطلة عن الإدراك.

النموذج الرابع:

[أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]⁽²⁾.

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص348.

(2)-سورة البقرة، الآية: 259.

اختلف في المار من هو؟ فذكر قولاً مشهوراً مفاده أن المار "عزير"⁽¹⁾، وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن المار هو «حزقيال بن بوزي نبيء إسرائيل»⁽²⁾، وهذا الأظهر عند سماحة الأستاذ. فالله أعلم بالمار. لأن القرآن لم يفصح بالمار ولو شاء الله لأفصح عن ذلك، لا سيما وحكمة النص تتحقق دون الإفصاح عن المار.

إن الظرف في قوله تعالى: [وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا]، مستقر في موضع الحال⁽³⁾. والمعنى أنها كانت خاوية ساقطة على سقفها، وذلك أشد الخراب، والعروش جمع عرش وهو السقف وأول ما يسقط من البناء السقف ثم تسقط الجدران⁽⁴⁾.

والمشهور أن هذه القرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها⁽⁵⁾. فلما رآها المارّ بعد العمارة العظيمة قال: [أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا]. وقوله "أني يحيي" استفهام إنكار واستبعاد أي متى يحيى أو كيف يحيى وهذا استبعاد إحيائها، قال صاحب الكشاف «وفي قوله "أني يحيي" اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء واستعظام لقدرة المحيي»⁽⁶⁾. فهذا المارّ لا يعرف طريقة الإحياء ومن ثم استبعد أن تحيا هذه القرية بعد موتها، ولكن الله سبحانه وتعالى ضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم [فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ]. مات مائة سنة وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، ثم أحياه الله عز وجل، وأول شيء أحياه الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله كيف يحيى بدنه؟ [قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ].

قيل أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص496.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م3، ج3، ص35.

(3)-ينظر: أبو البقاء، البيان في إعراب القرآن، ج4، ص168.

(4)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م3، ج3، ص36. وجاء في كتاب العين، ص619: أن العرش ما عُرِشَ من بناء يستظل به.

(5)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م1، ص497.

(6)-الزمخشري، الكشاف، ج1، ص389.

أنها شمس ذلك اليوم. وقول الله له كان بواسطة الملك⁽¹⁾.

[قَالَ بَلْ لَبِثَ مِائَةً عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ] ، وكان معه فيما ذكر
عنب وتين وعصير، فوجده كما فقده لم يتغير منه شيء⁽²⁾.

إن في هذه المحاورة إقناع للمار بقدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه يحي الموتى، فلما
حيي المار لم يعرف كم لبث؟ وفي هذا إقناع له بعظمة الخالق، إذ أنه مات أول النهار
وحيي آخره، فلا علم يقين له بالمدة التي لبثها، وفي هذا إقناع بالبعث وبعد أن أخبره
المولى بالمدة التي لبثها دعاه إلى النظر إلى طعامه وشرابه الذي لم يصبه التغيير.

فعلمه بالمدة التي ماتها فيها إقناعه بعظمة الله، الواحد الأحد، ثم عدم، تسنه طعامه
وشرابه فيه إقناع بقدرة الخالق وعظمته، وبعد هذا أراه الله آية أخرى ألا وهي إحياء حماره
وهو ينظر [وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
لِحْمًا].

فلقد دعاه الله إلى النظر إلى إحياء حماره، وفي هذا إقناع له بالمعاد، وإقناع له
بإحياء القرية التي ماتت، وقد جعله الله دليلاً على المعاد ثم دعاه إلى النظر إلى العظام
كيف ترفع فتركب بعضها على بعض، ثم تكسى لحماً.

إن في هذه المحاورة إقناع للمار بالمعاد وإقناع له بأن الله يحيي الموتى [فَلَمَّا تَبَيَّنَ
لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] .

وفي هذه المحاورة إقناع لمنكري البعث بالمعاد.

وجعل الله هذا المار آية على ذلك بدليل قوله: [وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ]. فموته وبعثه
فيهما إقناع بأن الله يحيي الموتى، ثم إن حفظ طعامه وعدم تغييره فيه الإقناع التام بكمال
قدرة الخالق، ثم إحياء حماره فيه إقناع بإحياء الموتى، ولقد تم إحياءه وإحياءه حماره وهو
ينظر، وفي هذا إقناع له بالإحياء بعد الموت. ثم إن تكرير الجملة الفعلية أو الأمرية

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص497.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص497.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

"أنظر" معناه النظر والتدبر حتى يبتعد أشد البعد عن استبعاد إحياء الله القرية والموتى بصفة عامة.

وفي ختام هذه المحاوراة [قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ]، «أي أنا عالم بهذا، وقد رأيت عيانا، فأنا أعلم أهل زمني بذلك»⁽¹⁾. والغرض العام من هذه المحاوراة هو الإقناع بأن الله عز وجل يحيي الموتى، وفيها استدلال على إحياء الموتى، وفيها رد على منكري البعث ومنكري الحياة بعد الموت، وإقناع لهم بأن الله على كل شيء قدير، وأن هناك حياة بعد الموت.

النموذج الخامس:

[وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]⁽²⁾.

إن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى: [قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ]. أي ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء حتى تسألني إراءته؟ [قَالَ بَلَىٰ]، علمت

(1)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص47.

(2)-البقرة، الآية: 260.

وآمنت بأنك قادر على ذلك ولكن سألت ليطمئن قلبي باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان، وذهب الجمهور إلى أن إبراهيم لم يكن شاكا في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جلبت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت به⁽¹⁾. فأمره الله سبحانه وتعالى أن يأخذ أربعة من الطير ويوثقهن ويذبحهن ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أمره الله أن يدعوهم وجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى اللحم وإلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له في الرؤية⁽²⁾.

إن إبراهيم يؤمن بقدره الله المطلقة، إيمانا ينبع من التفكير والملاحظة ولكنه يطلب أن ينطلق الإيمان من عملية الحس، وهذا الطلب كان دعاء ورجاء. ففي هذه المحاورة إقناع بإحياء الموتى، وفي هذا ردًا على منكري البعث من المشركين وغيرهم.

وهذه الطيور ذُبحت وقُطعت أجزاء ووُزعت ثم بعد ذلك صارت كما كانت.

وفي هذا إقناع تام بأن الإنسان يحي ويعود كما كان، إن قوله تعالى: [ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا]، فيه ريادة على الإقناع بإحياء الموتى، وفيه الاستدلال الكافي، ولقد حصل الإقناع بالإحياء عن طريق بلاغة الحوار بين الله ورسوله إبراهيم p، وقوله تعالى: [وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ]، أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع منه شيء وما شاء كان بلا ممانع⁽³⁾، فهو يُحيي الموتى وهو على كل شيء قدير.

(1) -الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص229-230.

(2) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص498.

(3) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص498.

النموذج السادس:

قال تعالى: [قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁽¹⁾].

جاء في كتاب أسباب النزول للنيسابوري: «أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحدا يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم فأنزل الله تعالى هذه

(1)-سورة الأنعام، الآية: 19.

الآية»⁽¹⁾.

إن هؤلاء المشركين أنكروا رسالة محمد ρ - كما أنكروا كل من اليهود والنصارى - .
ولقد جاءت الآية الكريمة بإثبات صدق الرسالة، وأبتدئت هذه المحاوراة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير «ومثّل هذا الأسلوب لإعداد السامعين لتلقي ما يرد بعد الاستفهام»⁽²⁾، أي تهيئة السامعين كي يتلقوا ما يأتي من كلام بعد الاستفهام، ويستقر في نفوسهم ويتلقوه بالقبول وهذا لون من ألوان الإقناع.

فإنه سبحانه وتعالى أمر رسوله ρ أن يسأل كفار قريش، أي شيء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر بأن تكون أصحابها وأصدقها؟ ثم أمره بالإجابة عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو الله سبحانه وتعالى وشهيد، بيني وبينكم، وأوحى إليّ هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذبي فيما جئت به مؤيدا بشهادته سبحانه وأنذر من بلغه هذا القرآن، فكل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم الساعة⁽³⁾.

إن في هذه المحاوراة إقناع للمشركين بصدق رسالة محمد ρ ، ومن دواعي الإقناع الواردة في الآية كونه سبحانه وتعالى شهيدا بين رسوله وبين المشركين، وفي هذا إقناع لهم ورد على إنكارهم، ثم إن قوله تعالى: [وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ]، فهو سبب آخر من أسباب إقناعهم، إذ أن هذه الجملة معطوفة على قوله: [اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ]، فالقرآن يثبت رسالة رسول الله ρ بالدلائل العظيمة، وفي هذا إقناع للمشركين بصدق الرسالة، ثم إن ذكرت النذارة دون البشارة فيه إقناع للمشركين بصدق الرسالة، وذكر النذارة دون البشارة لأنهم «في حال مكابرتهم التي هي مقام الكلام لا يناسبهم إلاّ الإنذار»⁽⁴⁾.

ففي هذا الإنذار إقناع لهم برد إنكارهم، لأنهم سيعاقبون على هذا الإنكار، ثم إن مجيء ذكر الإنذار بعد إثبات صدق الرسالة، فيه الحجة البالغة عليهم والإقناع التام،

(1)- النيسابوري، أسباب النزول، ص132 والقول للكلي.

(2)- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص166.

(3)- السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج7، ص338.

(4)- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص168.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

فبعد أن أثبت لهم صدق الرسالة أعقب ذلك بالإنداز بالقرآن من العقاب على التكذيب، ومن بلاغة الخطاب القرآني، أن الدليل الأول على صدق النبوة هو شهادة الله سبحانه وتعالى، فبعد أن استقر في أذهانهم ذلك جاء الإثبات بأن القرآن وحي من عند الله، وبعد استقرار هذا في أذهانهم، ذكرت غاية القرآن بالنسبة إلى حالهم وهي الإنداز، وفي هذا الحوار الإقناع التام بصدق الرسالة، وأن ما يقولونه باطل، وبعد أن قرر الرسول أن شهادة الله أكبر شهادة وأشهد الله على نفسه فيما بَلَغ، وعليهم فيما أعرضوا وكابروا قال لهم: «أتشهدون أنتم، على ما أصررتم عليه أن مع الله آلهة أخرى كما شهدت أنا على دعوتكم إليه»⁽¹⁾، وذلك في قوله تعالى: [أَتُنَكِّمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ]، وفي قوله تعالى: [قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ]، حجة ودليل على إيجاب التوحيد والبراءة عن الشرك.

وفي هذه المحاورة إقناع لهم بوحدانية الخالق، ووحدانية الخالق سبحانه وتعالى يستلزم عنها صدق الرسالة، ولقد دلت هذه الآية على إيجاب التوحيد بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد، ويكمن ذلك في ثلاثة أوجه⁽²⁾:

الأول قوله: [قُلْ لَا أَشْهَدُ]، أي لا أشهد بما تذكرونه من إثبات الشركاء والثاني قوله: [قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ]، وكلمة "إنما" تفيد الحصر، ولفظ الواحد صريح في التوحيد ونفي الشركاء. والثالث قوله: [وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ]، وفيه تصريح بالبراءة عن إثبات الشركاء.

إن في هذه المحاورة إقناع للمشركين بصدق الرسالة وبالوحدانية، وفي هذه المحاورة إقناع للمخاطبين عامة بعناد ومكابرة المشركين، ويكمن ذلك في أنه بعد ما أثبت صدق الرسالة أعقبها ببيان أن المشركين رغم معرفتهم وإقرارهم بذلك إلا أنهم يشركون مع الله غيره، وبعد هذا أثبت لهم أن الله واحد سبحانه وتعالى، وفي هذه المحاورة إقناع تام لهم ببطلان ما يدعون، وما ينكرون، وإقناع لهم ببطلان الشرك، وإقناع لهم بصدق نبوة

(1) -المصدر نفسه، ص169.

(2) -ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص179.

النموذج السابع:

قال الله تعالى: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ ﴿٧٤﴾ اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ] (1).

إن في الآية الكريمة محاوراة بين إبراهيم وأبيه آزر، والغرض من هذه المحاوراة هو الاحتجاج على مشركي العرب، قال الفخر «اعلم أنه سبحانه كثيرا يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام، وذلك لأنه يعترف بفضل جميع الطوائف والملل، فالمشركون كانوا معترفين بفضلهم مقرين بأنهم من أولاده واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره، فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض

(٤) -اختلف العلماء في اسم ابي إبراهيم. ينظر: التفسير الكبير، م7، ج13، ص35-36.

(1) -سورة الأنعام، الآيتان: 74-75.

الاحتجاج على المشركين»⁽¹⁾.

فإبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته⁽²⁾. فقال له: [إني أراك وقومك في ضلالٍ مبينٍ].

فإبراهيم أنكر شئيين على أبيه الأول: جعله الصور آلهة مع أنها ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية. والثاني: تعدد الآلهة ولذلك جعل مفعولا تتخذ جمعين ولم يقل أتخذ الضم إليها⁽³⁾.

إن في هذه المحاورة التي بين إبراهيم وأبيه إقناع للمشركين العرب بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وأنه واحد أحد، ثم إن قوله تعالى "تتخذ" فيه إشعار بأنها شيء مصطنع وفي هذا إبطال لكونها تُعبد، وإقناع بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، إذ كيف يعبد الصانع المصنوع، وفي هذا دعوة إلى النظر العقلي والتدبر الفكري، فالعقل لا يقبل أن يصنع الإنسان تماثيل بيده ويظل لها عاكفا، فهذا شيء عجاب، أضف إلى ذلك أن المحاورة فيها إقناع بإثبات التوحيد وإبطال الشرك، وقوله تعالى "أصناما" فيه الحجة القاطعة على بطلان الشرك، إذ لفظة "أصناما" توحى بتعدد الآلهة. وتعدد الآلهة يستحيل في العقل ودليل ذلك من النقل قوله تعالى: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا]⁽⁴⁾. فهذا إقناع للمشركين بأن ما يتبعونه باطل، وإلى جانب ذلك كون المحاورة فيها إبراهيم فإن فيها الإقناع التام لهم ببطلان الشرك، وهذه لطيفة عجيبة، فمشركو العرب وجميع الطوائف والملل كلهم يعترفون بفضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولما يذكر إبراهيم في الموقف الذي يدل على بطلان عبادة الأصنام، فهذا فيه الإقناع التام لهم بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، أضف إلى ذلك فهم يدعون أن آباءهم الأولون كانوا على أمة وهم على آثاهم مُقتدون، بدليل قوله تعالى: [إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ]⁽⁵⁾. فهذا هو

(1)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص34.

(2)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1078.

(3)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص313.

(4)-سورة الأنبياء، الآية: 22.

(5)-سورة الزخرف، الآية: 23.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

أبوهم إبراهيم [كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁽¹⁾]. وفي هذا حجة عليهم وإقناع لهم ببطلان ما يعتقدون.

وقوله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ]. فقد قال الفخر: «أن ملكوت السموات عبارة عن ملك السماء، والملك عبارة عن القدرة، وقدرة الله لا ترى، وإنما تعرف بالعقل، وهذا الكلام قاطع، إلا أن يقال المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض، إلا أن على هذا التقدير يضيع لفظ الملكوت ولا يحصل منه فائدة»⁽²⁾، وعليه فملكوت السموات والأرض على حد قول الفخر أنه قدرة الله التي لا ترى والله أعلم.

ومعنى الآية عند ابن كثير أنه تبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكة وخلقه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه⁽³⁾. وفي هذا إقناع للمشركين بالوحدانية إذ أن أباهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مقر بالوحدانية فيجب أن يكونوا على ملته.

ومجمل القول فإنّ في هذه المحاوراة اللطيفة إقناع للمشركين بتوحيد الخالق، وبطلان عبادة الأصنام. ولقد جاءت هذه المحاوراة بأفانين عجيبة ووسائل رائعة، بغية حصول الإقناع، وهذا من بلاغة الأسلوب الحوارية الإقناعية في القرآن الكريم، فلو نظرنا إلى الآيات لوجدناها تحمل الحجة العقلية في إثبات التوحيد وإبطال الشرك، وعليه يحصل الإقناع عن طريق العقل، إذ لما يستقر في العقل أن الإله واحد. وأن عبادة الأصنام باطلة، يستلزم عنه الانقياد إلى التوحيد والابتعاد عن الشرك.

(1) -سورة آل عمران الآية 67 وتتمتها [مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ].

(2) -الرازي، التفسير الكبير، م، 7، ج، 12، ص، 43.

(3) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، ج، 2، ص، 1079.

النموذج الثامن:

قال الله تعالى: [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ] (1).

إن في هذه الآية تقرير للنبوة ومدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد (2).

فقوله تعالى: [وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ]، أي ما عظموا الله حق تعظيمه، وأعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته (3)، فمعلوم أن من

(1) -سورة الأنعام، الآية: 91.

(2) -ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م7، ج2، ص82.

(3) -المصدر نفسه، ص82.

أنكر نبوة محمد ρ وأنكر رسالته ما عظم الله حق تعظيمه وما قدره حق قدره وما عرفه حق معرفته.

والذين ما قدروا الله حق قدره هم المشركون على ما اعتمده سماحة الأستاذ الطاهر بن عاشور وغيره من المفسرين وذهب البعض إلى غير ذلك^(*).

فهؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه [إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ]، قال سماحة الأستاذ «ومقالهم هذا يهجم جميع البشر لوقوع النكرة في سياق النفي لنفي الجنس»⁽¹⁾، وعليه يكون المراد أنهم نفوا ما أنزل الله من الكتب فقال الله لرسوله: [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا]. أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لا نزال شيء، من الكتب من عند الله، من أنزل التوراة التي قد علمتم - وكل أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورا وهدى للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدي بها من ظلم الشبهات⁽²⁾.

إن في الآية الكريمة محاورة بين منكري النبوة وبين رسول الله ρ ، فهؤلاء المنكرين لم يعظموا الله عز وجل حق تعظيمه وأنكروا إنزال الكتب، فجاءتهم الحجة القاطعة وهي قوله تعالى: [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى] فهم يعرفون حق المعرفة الكتاب الذي جاء به موسى وأنه من عند الله عز وجل، وعليه فكيف ينكرون إنزال الكتب؟

ففي هذه المحاورة إقناع لمنكري الوحي بإثبات إنزال الكتب وإثبات نبوة محمد ρ ، وذلك عن طريق إثبات أن الله أنزل على أحد من البشر كتابا، ففي هذا الحجة القاطعة والإقناع التام بأن الله يصطفي من عباده من يشاء ويُنزّل على من يشاء، وعليه ينتقض

^(*) قال سعيد بن حبيب جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أنتشدتك بالذي أنزل للتوراة على موسى أما تجد في التوراة، أن الله يبغض الحبر السمين، وكان حبرا سمينا، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا على موسى؟! فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية. النيسابوري، أسباب النزول، ص136.

⁽¹⁾ -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص363.

⁽²⁾ -بنظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1086.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

قولهم، وفي المحاورة إقناع لهم بانتقاض قولهم الذي قالوه، ثم في الاستفهام الذي أفاد التقرير والإلجاء في قوله تعالى: [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى]، إفحام لهم، وإقناع لهم بإنزال الكتب، ثم إن في الصفات التي وصفها الله كتاب موسى وهي كونه نورا وهدى للناس فيه الإقناع التام بإنزال الكتب، وبإثبات نبوة محمد p وقوله تعالى: [تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا]، أي يجعلها حملتها قراطيس يعني قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون ما يحرفون ويبدلون ويتأولون⁽¹⁾.

وفي هذا الإقناع التام لهم بصدق ما جاء في القرآن، فهم يعلمون ما فعلوا بالتوراة من تحريف، ولما ذكر هذا في القرآن يستلزم عنه كون القرآن كلام الله المنزل على محمد p ، وهذه حجة أخرى عليهم في إبطال ما يقولون.

وقوله تعالى: [وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ] . أي، ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلموا ذلك أنتم ولا آبائكم⁽²⁾. فالله هو الذي أنزل ذلك، ثم إنهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين.

ففي هذه المحاورة إقناع لهم بأن الكتاب الذي جاء به موسى هو من عند الله، وهذا فيه الدليل القاطع على إنزال الكتب. فالإقناع الحاصل جراء المحاورة يتوجه إلى العقل، إذ دعاهم إلى النظر والتفكير، وفي هذه المحاورة استدلال على نبوة سيدنا محمد p برسالة موسى عليه الصلاة والسلام، أي أن إثبات رسالة موسى ينجر عنه إثبات رسالة محمد p ، وفي هذا رد على منكري الوحي، ولقد استهل المولى سبحانه كلامه في هذه الآية بنفي أن يكونوا قدروه حق قدره، وهذا يدل على جرمهم العظيم الذي اقترفوه ألا وهو إنكار النبوة، فعن طريق المحاورة تم إقناعهم بنبوة محمد p ، وأياً ما كان الكلام موجه، فهو يقتضي إثبات النبوة، وفيه الإقناع التام بذلك، ولقد كان لذلك النفي والأمر والاستفهام دوراً فعالاً في إقناعهم بصدق رسالة محمد p .

(1)-ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص1087.

(2)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1087.

النموذج التاسع:

[وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ]⁽¹⁾.

جاء في كتاب أسباب النزول للنيسابوري أن قريشا كلمت رسول الله ﷺ «فقالوا يا محمد تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا وأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى وأن ثمود كانت لهم ناقة فأتتا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله ﷺ «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» فقالوا تجعل لنا الصفا ذهباً قال: «فإن فعلت تصدقوني»، قالوا نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاهه جبريل -عليه السلام- وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله ﷺ: «أتركهم حتى يتوب تائبهم»، فأنزل الله تعالى: [وَأَقْسَمُوا

(1) -سورة الأنعام، الآية: 109-111.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا. إلى قوله: [و كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ] (1).

إنّ في الآية إخبارا عن المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم وحلفوا أيماننا مؤكدة لئن جاءتهم معجزة خارقة ليصدقنها، فقال الله لرسوله ρ قل لهؤلاء الذين يسألونك تعنتا وكفرا وعنادا لا على سبيل الهدى والاسترشاد أن مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء أجب وإن شاء ترك (2).

فهؤلاء المشركين سألو الرسول ρ تعنتا وكفرا وعنادا أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وكانهم لم يكتفوا بمعجزة القرآن، بل إنهم يعلمون علم اليقين أنه كلام الله وسؤالهم هذا كان على سبيل المكابرة والعناد، والإصرار على عدم التغيير.

ولقد أخبر سبحانه وتعالى بأنهم لا يؤمنوا وإن جاءتهم الآيات وذلك في قوله "وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ"، فالخطاب في قوله "وما يشعركم" الأظهر أنه الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون على ما ذكره سماحة الأستاذ الطاهر بن عاشور (3)، والمعنى أن الحال والاستقراء أشعركم بكذبهم، فلا تطمعوا في إيمانهم لو جاءتهم آية ولا في صدق أيمانهم (4).

إن أول ما يعنّ لنا من هذه المحاوره هو تعنت المشركين وعنادهم، وفي المحاوره إقناع للمخاطب بتعللات المشركين للتمادي على الكفر بعد ظهور الحجج الدامغة لهم وسر ذلك أنهم طلبوا بمعجزة غير القرآن، كيف؟ وهم أفحاح العرب وفصائحها، وسر الإعجاز ظاهر في القرآن كله، ولقد تحداهم الله سبحانه وتعالى في غير ما موضع من القرآن الكريم.

ثم إن القسم الوارد في الآية توكيد للخبر، فهم يؤكدون على أنهم يؤمنون حين تأتيهم الآية، ولكنّ الله عز وجل أبطل ما يقولون، وفي المحاوره إقناع للمخاطبين بأن المشركين

(1)- النيسابوري، أسباب النزول، ص 138.

(2)- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 1097-1098.

(3)- ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 4، ج 7، ص 437.

(4)- المصدر نفسه، ص 439.

لم يؤمنوا ولو جاءتهم آية فهم مصرّون على الكفر، أضف إلى ذلك أن في المحاوراة إقناع بمكابرة المشركين، وأنهم في الضلال المبين، وفي المحاوراة إقناع للمشركين بأن الله عالم بكل شيء.

وقوله تعالى: [وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ]. فهذا بيان لسنة الله تعالى في عدم إيمانهم بروية الآية، أي وما يشعركم أيضا أننا نقبل أفئدتهم عند مجيء الآية بالخواطر، والتأويلات، والتفكر في استنباط الاحتمالات وأبصارهم في توهم التخيلات، كشأنهم في عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة من الآيات، ثم ندعهم في تجاوزهم الحدود في الكفر والعصيان المشابه لطغيان الماء في الطوفان. فهم يترددون متحيرين فيما سمعوا ورأوا من الآيات، هل هو الحق المبين؟ أم السحر الذي يخدم الناظرين؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين؟ أم المكابرة له والجدال فيه⁽¹⁾.

إن في حيرتهم هذه الإقناع التام بأنه تعالى هو الهادي إلى طريقه المستقيم وإقناع للمخاطبين بأنه تعالى يحول بين المرء وقلبه، وفي هذا الإقناع التام بتوحيد الخالق وأنه على كل شيء قدير.

وفي المحاوراة إقناع بأن هؤلاء المشركين لا يؤمنون ولو ظهرت آية، والدليل على ذلك قوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ]. أي ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذي أقسموا بالله جهد إيمانهم [لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها]. فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، وتخبرهم الموتى بذلك، وتعرض عليهم أمة بعد أمة فتخبرهم بذلك أيضا: [مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ]⁽²⁾. ففي هذه المحاوراة إقناع بأن الهداية إلى الله لا إليهم بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وفي المحاوراة إبطال لما قالوه على جهتين: الأولى: أنهم متعنتون مكابرون لا يريدون هداية، والثانية: أنهم يظنون أن الهداية

(1) -ينظر: السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج7، ص673.

(2) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1099.

ملك لهم وهم المتصرفون فيها، ففي المحاوراة إقناع لهم بأنهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ولا يملكون هداية ولا ضللاً، فالأمر لله رب العالمين، كما أن في المحاوراة إقناع للمخاطبين بأن المشركين لا يريدون الإيمان بالله وإقناع أيضاً بأن الآيات ليست لهواً ولا لعباً، وفي المحاوراة إقناع للمشركين بأن حقيقة الإيمان يصل إليها المرء دون المطالبة بالآية، أو لم تكفهم معجزة القرآن؟ بل هم قوم يجهلون، وفي ختام هذه الآية إقناع للمخاطبين بأن هؤلاء قوم لا يفقهون شيئاً.

النموذج العاشر:

قال الله تعالى: [يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ. ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ] (1).

إن في هذه الآية تقرير من الله سبحانه وتعالى إلى كافرين الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم وهو أعلم بهم هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ فقله تعالى: [يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ]. فهذا استفهام تقرير والمعنى ألم يأتكم رسل من جملتكم «والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد وابن جريج، وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم، ومن الجن نذر» (2). إن في هذا الاستفهام إقناع لهم ببعث الرسل وقص الآيات عليهم، وإقناع لهم بيوم الجزاء، وقله تعالى: [يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا]. أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك وأن هذا اليوم كائن لا محالة (3).

إن في هذه المحاوراة إقناع للتقلين بالمعاد وأنهم يُسألون عما فعلوه وإقناع لهم بأنهم يشهدون على أنفسهم بأنهم جاءتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما أن في المحاوراة

(1) -سورة الأنعام، الآية: 130-131.

(2) -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1114.

(3) -ينظر: المصدر نفسه، ص1115.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إقناع للتقلين بأنهم يشهدون على ما جاءهم من المنذرين، وقوله تعالى: [وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا]. ففيه إقناع لهم بما فرطوا في الحياة الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها.

[وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ]، أي يوم القيامة شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين بما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام⁽¹⁾. ففي المحاوراة إقناع للمخاطبين بالاستعداد إلى اليوم الآخر، وإقناع لهم بأن ما جاءت به الرسل حق وإقناع لهم، بأن الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو، أضف إلى ذلك أن في المحاوراة إقناع للمخاطبين باتباع المرسلين ودين الحق، وإقناع لهم، بأن الآخرة هي دار القرار ودار البقاء، وأن الدنيا ما هي إلا وسيلة للآخرة، كما أن في المحاوراة تنبيه من الغفلة، وتنبيه من خطورة ملذات الدنيا وشهواتها، أضف إلى ذلك أن في المحاوراة إقناع للمخاطبين بالحساب: [وَأَنَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى]⁽²⁾.

(1) -ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص1115.

(2) -سورة النجم، الآية: 39.

المبحث الثالث: الحجاج ودوره في الإقناع

أ- تعريفه:

- لغة: يقال: حاجبته أحاجه حجاجا ومحاجة حتى حجبتة؛ أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والمَحَجَّةُ الطريق، وقيل جادة الطريق وقيل مَحَجَّةُ الطريق سننه، والحَجَّوْجُ الطريق تستقيم مرة وتعْوُجُ أخرى، والحُجَّةُ البرهان، وقيل الحُجَّةُ ما دفع به الخصم، والنَحَاجُ التخاصم، وجمع الحجة حُجَجٌ وحِجَاجٌ، وحَاجَةٌ محاجة وحجاجًا؛ أي غلبه بالحجة، والحُجَّةُ الدليل والبرهان⁽¹⁾.

اصطلاحا:

قدم برلمان تعريفا للحجاج حيث جعله «جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما تعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع»⁽²⁾، إن المقصود من هذا التعريف هو أن الحجاج يعد أساليب الهدف منها إقناع المتلقي، أي أنه غاية الحجاج الأساسية هي الفعل في المتلقي، كما يعتمد على استخدام الحجة وإقامتها، ومجاله هو «توجيه الفعل وثبت الاعتقاد أو صنع الاعتقاد»، أي الاقتناع بالأفكار وثبوتها أو صنعها دون سبق، فالحجاج وسيلة من وسائل الإقناع، ولقد اعتبره أريسطو فن الإقناع أو مجموع التقنيات التي تحمل المتلقي على الاقتناع أو الإذعان، ولقد أكد أريسطو وجود الحجاج في الخطاب وفي الجدل، وتعتمد الخطابة على الحجاج، وشأنها في ذلك شأن الجدل.

ب- خصائص النص الحجاجي:

إن كل حجة تفترض حجة مضادة ولا وجود البتة لحجاج دون حجاج مضاد «باعتبار أن الحقيقة متى تنزلت في إطار العلاقات الإنسانية والاجتماعية صعب إدراكها

(1)- ابن منظور، لسان العرب، مادة: حجج، مج2، ص228.

(2)- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ص21.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

وأضحت محل نزاع وجدال في غياب الحجج المادية والموضوعية»⁽¹⁾، فينبغي تقديم الحجة وتدعيم الكلام بها حتى يظهر الرأي الأقوى، وعليه ينتفي النزاع والجدال، فالحجاج هو الفاصل في المسائل الجدلية، إذ أن الجدل ينتهي بالحجاج، ويمكن تقسيم النصوص الحجاجية من حيث خصائصها المميزة إلى الأقسام^(*) التالية:

1-النص الخبري: «هو نص يستجيب إلى هدف أساسي يتمثل في الإعلام والإخبار والتبئية»⁽²⁾، فهذا الضرب عادة ينشر لونا من المعارف.

2-النص التحليلي: فهذا النص يرصد لنفسه هدفا أساسيا يتمثل في الفهم ويقوم «تبعاً لذلك على عملي الشرح والتأويل وما يقتضيانه من ترتيب وتبديل»⁽³⁾، إذ يتم في هذا النوع عملية الشرح والتأويل والتوضيح.

3-النص الحجاجي: إن هذا الصنف من النصوص يحرص كل الحرص على إقناع المتلقي بوجهة نظره أو طريقة في تناول الأشياء، وذلك عن طريق البرهنة والاستدلال، حيث يكون استدلاله واضحا، وأفكاره مترابطة.

ج-سمات النص الحجاجي:

إن النص الحجاجي نص مترابط متغام وُضع لإقناع المتلقي بفكرة ما أو بحقيقة معينة عن طريق تقنيات مخصوصة، «وقد جمع بنوارونو سمات النص الحجاجي في النقاط التالية»⁽⁴⁾:

1-القصء المعلن: وهو إقناع المتلقي بفكرة معينة أي أنه البحث عن إحداث أثر ما في المتلقي.

2-التناعم: «فالنص الحجاجي نص مستدل عليه لذلك يقوم على منطق ما في كل

(1)-سامية الريددي، الحجاج، ص24.

(*)-تبنييت تقسيمات الدكتورء سامية ريددي، دون إحصاء كل التقسيمات.

(2)-سامية الريددي، الحجاج، ص24.

(3)-المرجع نفسه ص24.

(4)-المرجع نفسه، ص26.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

مراحله ويوظف على نحو دقيق التسلسل الذي يحكم ما يحدثه الكلام من تأثيرات»⁽¹⁾.

فهذا النوع من النصوص يختزل فكرة ويسهب في تحليل أخرى يسأل ويجيب ويأتي بالفكرة الواحدة على أنحاء مختلفة.

3- الاستدلال: إن النص الحجاجي نص قائم على البرهنة فعناصره تهدف إلى غاية مشتركة «فإذا أعدنا النص الحجاجي إلى أبسط صورة وجدناه ترتيبا عقليا للعناصر اللغوية ترتيبا يستجيب لنية الإقناع»⁽²⁾، فالهدف الأسمى من هذا النص إذ يقوم على الاستدلال والبرهنة بغية الإقناع.

4- البرهنة: إن البرهنة ترد إليها الأمثلة والحجج وكل تقنيات الإقناع مرورا بأبلغ إحصاء وأوضح استدلال وصولا إلى أطف فكرة وأنفذها⁽³⁾. فبالبرهنة يحصل الإقناع ويمكن الأثر على المتلقي فهي الطريق الأسمى للإقناع.

د- الباث والمتلقي في الخطاب الحجاجي:

إن الباث هو منتج الخطاب، والمتلقي هو المخاطب الذي يتلقى الخطاب، فالخطاب الحجاجي دائما يعرض فكرة ما ويحتج لها احتجاجا، وهذا الاحتجاج «قد يكون صارما دقيقا، وقد يفتقر أحيانا إلى الصرامة والدقة المنشودتين»⁽⁴⁾، وهدفه هو إقناع المتلقي أو إغرائه أو حمله على الإذعان، دون اقتناع حقيقي، ونجاح هذا الخطاب يكمن في مدى القدرة على اقتحام أجواء المتلقي وتفسيره، فالخطاب الحجاجي خطاب موجه غايته القصوى إقناع المتلقي.

ويذهب برلمان إلى أن الخطاب الحجاجي يبتعد عن كونه مجرد تواصل عادي من جهة أنه لا يقوم على مجرد التبليغ الذي يقتضي من المتلقي مجرد فك الرموز، وبذلك يتخذ من إقناع المتلقي هدفا أساسيا بوجهة نظر معينة.

(1)- سامية الدريدي، الحجاج، ص 26.

(2)- المرجع نفسه، ص 26.

(3)- المرجع نفسه، ص 31.

(4)- المرجع نفسه، ص 31.

هـ- الحجاج في القرآن الكريم:

سبق أن أومأنا إلى أن الحجاج يكون بين نقيضي الفكر، إذ ليس من الممكن أن يرد الحجاج بين متفقي الفكر، ولقد وردت المحاججة في القرآن الكريم في مواقف مختلفة منها قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ] (1). و منها قوله تعالى: [وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي] (2). ومنها قوله تعالى: [فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ] (3). ومنها قوله تعالى: [يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ] (4). ومنها قوله تعالى: [قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ] (5). ومنها قوله تعالى: [أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ] (6).

إن ما نستشفه من هذه الآيات الكريمة هو أن الحجاج يكون بين فكرين مختلفين وواضح فيها أن الحجاج يكون بين نقيضي الفكر.

ذهب عبد الله صولة إلى أن للحجاج ثلاثة مفاهيم على الأقل، فمفهوم يجعله مرادفا للجدل، ومفهوم يجعله قاسما مشتركا بين الجدل والخطابة ومفهوم مفاده أن الحجاج قد أخذ شيئا فشيئا في الاستواء مبحثا فلسفيا ولغويا قائم الذات في العصور الحديثة مستقلا عن صناعة الجدل من ناحية وعن صناعة الخطابة من أخرى (7).

إن المفهوم الحجاجي الذي سنتعرض له بالدراسة في موضوعنا هذا هو الجمع بين المفهومين الأول والأخير، إذ نتعرض للحجاج على كونه استدلال وتقديم برهنة هذا من جهة ومن جهة أخرى نتعرض إلى الخصائص اللغوية التي يبرز من خلالها الحجاج

(1)-سورة البقرة، الآية: 258.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 80.

(3)-سورة آل عمران، الآية: 20.

(4)-سورة آل عمران، الآية: 65.

(5)-سورة البقرة، الآية: 136.

(6)-سورة آل عمران، الآية: 73.

(7)-ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفراجي، تونس، 2007،

ويظهر .

إن القرآن الكريم كتاب رحمة، ولكنه في الوقت نفسه كتاب تحدي.

والقرآن الكريم يخاطب العقل والقلب معاً، كما يقدم الأدلة ويبرهن عليها، وفي الختام يصل إلى الإقناع، فلقد نفح الإيمان في الكبار والصغار نفخاً وبثه روحاً عاماً، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها ومقدساتها جملة.

فالرسالة السماوية التي جاء رسول الله μ كانت أمراً خارقاً للعادة، لذا قوبلت بالرفض والإنكار من قبل المشركين، ولكن أسلوب القرآن الجذاب وأدلته الراقية، ومحاورته الصارمة وحجابه المقنع جعل تلك العقول تقبل ذلك وتفتح اقتناعاً تاماً، بتلك الرسالة السماوية.

أضف إلى ذلك أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة ومدار البلاغة كله على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم.

فالقرآن الكريم «بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام»⁽¹⁾، فالإصلاح العام الذي جاء به القرآن، والانقلاب العالمي الذي تركه، ما حدث ولم يحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه، إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوي.

ولقد جاء القرآن الكريم بالحجج الدامغة والقاطعة التي لا تثيرها شبهة ولا يرقى إليها شك، فقد اشتمل «على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق بها، لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين»⁽²⁾. ولقد علل الجلال ذلك ورده لأمرين:

(1)-الزرقاني، مناهل العرفان، ص294.

(2)-السيوطي، الإقناع وبهامشه إعجاز القرآن، ج2، ص489.

الأول: بسبب ما قاله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ] (1).

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة، بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزا فأخرج الله سبحانه وتعالى مخاطبته في محاجة خلقه في أعلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة وتفهم الخواص من أنبائها ما يرى على ما أدركه فهم الخطباء (2).

فالحجاج القرآني جاء في أبهى وأجلى وأوضح صورة تفهمه العامة وتفهمه الخاصة، إذ أن الكلام موجه للخلق والناس مراتب، فالقرآن الكريم خاطب هذا وذلك وأفهم هذا وذلك، وبعبارة أوضح وأدق وأقرب إلى الفهم أكثر أنه خاطب المستويات العقلية المتفاوتة كلها، ومما اعتمده القرآن في أسلوبه الحجاجي هو إجماع الخصم بالحجة، قال صاحب البرهان: «وهو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية، تقطع المعاند له فيه» (3).

ولا شك في أن القرآن الكريم كان من أجل المصادر التي دعت إلى أعمال العقل وتحكيمه (4).

وقوله تعالى: [مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ] (5).
فهذه أيضا حجج عقلية فالعقل يسلم بأن الخالق واحد وهذا نتيجة نظام الكون.

و- الحجاج ودوره في الإقناع:

(1)-سورة إبراهيم، الآية: 4.

(2)-ينظر: السيوطي، الإقتان وبهامشه إعجاز القرآن، ج2، ص489.

(3)-الزركشي، البرهان، ج3، ص286.

(4)-ينظر: حسين شلوف، إشكالية الإقناع في نص الحجاجي عند الجاحظ بين إثبات العقل والتجربة الفنية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، 2008-2009.

(5)-سورة النجم، الآية: 39.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

إن للحجاج دورا فعالا في الإقناع، ولقد كان الأسلوب الحجاجي من الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن الكريم، فالحجاج عادة يعتمد على تقديم الحجج الفعالة والتي تعد عامل أساسي في الإقناع. فكلمة الحجاج تدل على معنى المشاركة في تقديم الحجج وعلى مقابلة الحجة بالحجة⁽¹⁾.

إن مقابلة الحجة بالحجة معناه بطلان إحداهما، وبطلان إحداهما يستلزم عنه كون إحداهما أقوى من الأخرى، لذا كان الحجاج من الأساليب الإقناعية، ولقد حفل القرآن الكريم بالأساليب الحجاجية، والتي من خلالها دحضت حجج أعداء الدين، ولم يبق أمامهم سوى الانقياد، وهذا نتيجة الإقناع القائم على أساس الحجاج.

(1) -ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص9.

دراسة نماذج تطبيقية من الحجاج في سورتي البقرة والأنعام

النموذج الأول:

قال الله تعالى: [وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ] (1) (*).

إن هاتين الآيتين تحاجج بني إسرائيل فيما نقلوه وأدعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار، إلا أياما معدودة ثم ينجون منها، فرد الله عليهم وأفحمهم بالحجة الدامغة، فقال لهم: [قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ]، أي عهدا بما قلتم فإن كان ذلك فإن الله لا يخلف وعده.

فهم لم يتخذوا عند الله عز وجل عهدا، وهذا الرد إبطال لما قالوه، وحجة على بطلانه، وفي هذه الحجة إقناع لهم ببطلان قولهم المتمثل في أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، وفي قوله تعالى: [فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ]، حجة أخرى على بطلان قولهم، لأنهم لو اتخذوا عنه الله عهدا فإنه سبحانه وتعالى لن يخلف وعده، وفي هذا إقناع لهم ببطلان ما قالوه، وفي هذه الحججان إقناع بأن هذا العهد ما جرى وما كان. بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه (2)، وهذه حجة أخرى ذات إقناع عظيم ببطلان قولهم، وإقناع لهم بأنهم كاذبون وقوله تعالى: [بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]، قال صاحب الكشاف "بلى" إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله -لن تمسنا النار- أي بلى تمسكم أبدا بدليل قوله [هُم فِيهَا خَالِدُونَ] (3)، ففي بلى إبطال لقولهم وهذه حجة عليهم وفي هذه الحجة الإقناع التام بفساد إدعائهم

(1)-سورة البقرة، الآية: 80-81.

(*)-إن الآية الكريمة وإن كانت ذات بعد بياني فإنها ذات بعد حجاجي حوارى، ولقد سبق التطرق إلى معناها في مبحث الاستعارة ودورها في الإقناع.

(2)-ينظر: ابن كثير، التفسير القرآن العظيم، ج1، ص233.

(3)-الزمخشري، الكشاف، ج1، ص292.

وافترائهم، وذلك بأن من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو من الخالدين في النار وإقناع لهم بخلودهم في النار، ومن جهة ثانية إقناع لكل المخاطبين بأن من تجرد من الأعمال الصالحات وكانت أعماله كلها خطايا كان من الخالدين في النار⁽¹⁾. ولا سبيل إلى التطرق إلى المسائل الكلامية في هذه الآية الكريمة إذ الموضوع الذي نحن بصدد البحث فيه لا يستدعي ذلك.

ثم عقب سبحانه وتعالى بقوله: [وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ]، أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتهم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله، لا انقطاع له أبداً⁽²⁾.

ففي هذه الآية حجة على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أصحاب الجنة هم فيها خالدون، وفي هذه الحجة إقناع لليهود ببطلان أقوالهم، وفي الآيتين حجج على أن من كفر كان من الخالدين في النار. ومن آمن وعمل صالحا كان من الخالدين في الجنة، وهذا يدل على أن قولهم باطل كما أن في الآيتين إقناع للمخاطبين بقبائح أقوال وأفعال اليهود، وتتمثل هذه القبائح من أقوالهم وأفعالهم في جزمهم بأن الله تعالى لا يعذبهم إلا أياما قليلة.

أذهب إلى أبعد من ذلك وأقول إن الحجاج الوارد في الآيتين له دور فعال في إقناع اليهود ببطلان قولهم الذي قالوه، [وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ]⁽³⁾.

ففي هذا الحجاج إبطال لقولهم الوارد في سورة المائدة، وفي الحجاج الوارد في الآيتين إقناع لهم بأن ما قالوه افتراء على الله وليس اتخاذ عهد، وفيه أيضا أي الحجاج إقناع للمخاطبين بأن الله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء من عباده وفيه الإقناع التام

(1) -ينظر: الرازي، التفسير الكبير، 2، ج3، ص144-161.

(2) -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، م1، ص234.

(3) -سورة المائدة، الآية: 18.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

بأنه تعالى هو المتصرف في شؤون عباده.

وفي هذا الحجاج إقناع للمخاطبين بأن دخول النار والخلود فيها منوط بالكفر، وأن دخول الجنة والخلود فيها منوط بالإيمان الصحيح.

ولقد توجه الحجاج في هذه الآتين إلى إقناع كل من العقل والحس، ولقد مر معنا الإقناع المتوجه إلى الوجدان في مبحث الاستعارة ودورها في الإقناع في سورتي البقرة والأنعام، فلا سبيل للإعادة هنا.

النموذج الثاني:

قال الله تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (1).

إن الآية الكريمة تتحدث عن اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب، الذين إذا قيل لهم صدّقوا واتبعوا ما نُزِّلَ على محمد p. [قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا]، أي بما أنزله الله على رسولنا موسى، وهذا هو مجمع ضلالتهم ومنبع عنادهم فلذلك تصدى القرآن لتطويل المحاجة فيه» (2)، فهؤلاء أرادوا التمسك بما أنزل إليهم، وقولهم: [نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا]، حجة عليهم وفيها إقناع للمخاطبين بهروب اليهود من الإيمان محمد p لأن قولهم: [نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا]، مجرد تبرير تمسكوا به فهم لم يؤمنوا حقا بما أنزل عليهم، ولقد أبطل الله قولهم هذا بالحجج المنيرة الساطعة فقال: [وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ]. يعني بما بعده، و«لقد جيء بالمضارع محاكاة لقولهم نؤمن بما أنزل علينا وتصريح بما لوحوا إليه ورد عليهم أي يدومون على الإيمان بما أنزل عليهم ويكفرون كذلك، بما وراءه فهم يرون أن الإيمان به مقتض للكفر بغيره على أن للمضارع تأثيرا في معنى التعجب والغرابة» (3).

إن في هذا الرد المفحم والحجة الساطعة، إقناع للمخاطبين بأن دعوى اليهود كونهم مؤمنين بالتوراة متناقضة، لأنّ الإيمان بالتوراة لا يقتضي الكفر بالإسلام، أضف إلى ذلك أن في هذه الحجة إقناع لليهود ببطلان ما يدعون، وقوله تعالى: [وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ]، فهي حجة أخرى دامغة، وقوله: "مصدقًا"، منصوب على الحال، وفيها الإقناع التام ببطلان قولهم وذلك لأنهم يكفرون بما أنزل على محمد p حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، وفي هذا حجة قائمة عليهم وفيها الإقناع التام بأنهم لم يؤمنوا بما أنزل إليهم، وبعد هذه الحجج جاءت الحجة التي لا كلام لهم بعدها، وهي قوله تعالى: [قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ]، قال سماحة الأستاذ في القول «فصله عما قبله لأنه اعتراض في أثناء ذكر أحوالهم قصد به الرد عليهم في معذرتهم هذه

(1) -سورة البقرة، الآية: 91.

(2) -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص243.

(3) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص607.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

لإظهار أن معاداة الأنبياء دأب لهم»⁽¹⁾، فهذا رد وحجة عظيمة عليهم ولهذه الحجة الأثر الهام في إقناع المخاطبين بكذب ما قالته اليهود وهو [نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا]. فلو كان هذا حقا لما قتل أسلافهم الأنبياء؟ فأسلافهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤوهم بتصديق التوراة التي بأيديهم، وفي هذا بطلان لقولهم الذي قالوه، وفي الحجة الأخيرة إفحام لهم إذ لا كلام لهم بعد ذلك، وفيها الإقناع التام لهم بأن قولهم [نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا]، لا أساس له من الصحة فلو كان حقا لما قتلوا للأنبياء لأن قتل الأنبياء منافي تماما للإيمان، ولهذه الحجج الأثر الهام على إقناع المخاطبين بأن اليهود كفروا بما أنزل على محمد μ ، وأنهم يفرون من الإيمان به ودليل ذلك أن ما قدموه من الحجج أبطله الحق سبحانه وتعالى، كما أن لتلك المحاجة الأثر الهام على إقناع اليهود بأنهم يتهبون من الإيمان بمحمد μ فقط، ليس أنهم أرادوا الإيمان بما أنزل عليهم، ثم إن الحجج التي جاءت بها الآيات فيها الإقناع التام بأنهم لم يؤمنوا لا بما أنزل عليهم ولا بما أنزل على محمد μ .

النموذج الثالث:

قال الله تعالى: [أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

(1)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م1، ج2، ص608.

رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ⁽¹⁾.

إن هذه الآية الكريمة تحكي حوار بين إبراهيم -عليه السلام- وملك^(*) يجادله في الله وهذا الحوار يعرض على النبي p وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل، ومشهد الحوار يعتبر من ثنايا التعبير القرآني العجيب⁽²⁾، لما فيه من بلاغة الخطاب الإقناعي، ولقد تضمن هذا الحوار حجاجا يهدف إلى إقناع هذا الملك الكافر أولاً، ثم إقناع المشركين ثانياً، ومعنى [الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ]، أنه خصمه خصاماً باطلاً في شأن صفات الله رب إبراهيم⁽³⁾. وأفهم من كلام سماحة الأستاذ أن هذا الكافر أنكر الوحدانية ولم ينكر الوجود، وهذا يوافق قول سيد قطب حيث قال: «إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكرًا لوجود الله أصلاً إنما كان منكرًا للوحدانية في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدييره لما يجري فيه وحده»⁽⁴⁾، أما الإمام الحافظ فذكر أن هذا الملك «أنكر أن يكون ثم إله غيره»⁽⁵⁾، وأقر ابن أبي العز أن الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم⁽⁶⁾. أيًا ما كان الأمر فسأنتطرق إلى أثر الحجاج الوارد في الآية على الإقناع بالوجود والوحدانية.

إنّ هذا الذي خصم إبراهيم في ربه أتاه الله الملك، وقد حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة تجبره، وتعنته، فطلب الدليل على وجود الرب الذي يدعو إليه إبراهيم، فقال إبراهيم: [رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ]. فهذه حجة على هذا المنكر، والإحياء والإماتة معروضتان لحس الإنسان وعقله، وهما في الوقت نفسه السر الذي يحير، إذ

(1) -سورة البقرة، الآية: 258.

(*) -هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل: نمرود بن كنان بن كوشا بن سام بن نوح، ويقال: نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن ارفنشد بن سام بن نوح والأول قول مجاهد: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص495.

(2) -ينظر: سيد قطب، في ضلال القرآن، م1، ج3، ص297.

(3) -الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م3، ج3، ص32.

(4) -سيد قطب، في ضلال القرآن، ص297.

(5) -ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص445.

(6) -ابن أبي العز، شرح العقيدة، الطحاوية، ص93.

يستحيل أن يكون المخلوق قادر على الإنشاء أو الإفناء، فإبراهيم عرّف ربه بالصفة التي لا يشاركه فيها أحد، ولم يكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام «ليعني من الإحياء والإماتة إلاّ إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً، فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه، ولكن الذي حاجّ إبراهيم رأى كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية»⁽¹⁾. ففي قوله تعالى: [رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ]، سر بلاغي عظيم ويكمن في أن إبراهيم أراد أن يبرهن للكافر أنّ ما يعتقد في ذهنه من أن إنفاذ أمره في قومه بالإماتة والإحياء مظهر من مظاهر الربوبية باطلاً، وفي هذه الحجة الإقناع التام للكافر ببطلان ما يعتقد إذ أن الإحياء والإماتة لا تعني إنفاذ الأمر بالموت.

إلا أن هذا المتعجرف استمر في ضلاله [قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ]، وذلك أنني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة⁽²⁾، إن شدة طغيانه جعلته يفقد معنى الإحياء والإماتة، على قول أغلب المفسرين وذهب البعض^(*) إلى أن قوله [أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ]، كان مكابرة ومعاندة، وأقول أيّاماً كان الأمر فإنّه أثبت لنفسه الإماتة والإحياء، فإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لم يرد أن يسترسل في جدل حول معنى الإماتة والإحياء مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة، حقيقة الإنفاذ وعدمه، والإنفاذ وعدمه قدر الله عز وجل، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام عدل إلى طريقة التحدي [قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ]، فهذا تحدي قائم وأمر ظاهر ولا سبيل إلى سوء الفهم أو الجدل، فهذه حجة عظيمة قائمة على هذا الطاغية.

ومعنى قوله تعالى: [قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ]، أي إذا كنت تدعي من أنك أنت الذي يحيى وتميت، فالذي يحيى ويميت هو

(1)-سيد قطب، في ضلال القرآن، م7، ج3، ص298.

(2)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص495.

(*)-من المفسرين من ذهب إلى أن معنى الإحياء والإماتة عند هذا الجبار أنها الإنفاذ وعدمه. وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق ورشدي وغير واحد، وذهب ابن كثير إلى أن قوله [أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ]، أن ذلك مكابرة ومعاندة. ينظر: المصدر نفسه.

الذي يتصرف في الوجود وفي خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إليها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت⁽¹⁾، أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة.

إن قوله تعالى على لسان إبراهيم [فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ]، حجة عظيمة على هذا الكافر إذ فيها الإقناع التام، له بعجزه وببطلان قوله: [أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ]، ويكمن من خلال هذه الحجة إقناع الكافر بوجود الله عز وجل ووحدانيته، وفيها إقناع بأن الذي يأتي بالشمس من المشرق هو من خلق الكون وهو من يحي ويميت، وفي الحجة أيضا الإقناع التام لهذا الطاغية بأن عجزه عن الإيتان بالشمس من المغرب معناه عجزه عن الإحياء والإماتة، كما فيها الإقناع العظيم لهذا المتعجرف بأنه مخلوق كباقي المخلوقات، إنسان كباقي البشر، لا يتميز عنهم بشيء مما يدعيه، ولهذا الحجاج الأثر الهام على إقناع الكافر بأن الذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر، وأنه هو الذي يتصرف في خلقه.

فلما علم الكافر أنه عاجز عن كل شيء بهت وقوله تعالى: [وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ]. أي لا يلهمهم حجة ولا برهان بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد⁽²⁾.

ففي هذه المحاجبة العظيمة إقناع للمشركين بوحداية الخالق سبحانه وتعالى ثم إن للاستفهام المجازي في قوله تعالى: [أَلَمْ تَرَ]. استدلال يكمن من خلاله إقناع المشركين بوحداية الله سبحانه وتعالى وإبطال إلهية غيره لانفراده بالإحياء والإماتة، وانفراده بخلق العوالم المشهودة للناس، وإقناع للمشركين أيضا ببطلان عبادة أصنامهم، فهل أصنامهم تحيي وتميت وتأتي بالشمس من المشرق أم لا؟ إن أصنامهم لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، بل هي حصب جهنم، وفي المحاجبة إقناع للمشركين بأن المنفرد بالإحياء والإماتة

(1)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص495.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص495.

العقل الثاني:وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

ويخلق العوالم المشهودة للناس، واحدا لا شريك له، ويستحق العبادة وحدة بلا شريك، وهذا مما يجب على العقل تصديقه، ثم إن في عدول إبراهيم من الدليل العقلي إلى الدليل المشاهد المحسوس لطيفة عظيمة تكمن في استدراج النمرود، حتى إفحامه عن الكلام، وفي هذا الاستدراج الإقناع التام للنمرود بوحداية الله من جهة، ومن جهة ثانية إقناع له ببطلان ما ادعاه من أنه يحيي ويميت، وفي هذا الاستدراج دعوى إلى النظر والتدبر وإعمال العقل.

فالدليل الأول توجه إلى إقناع العقل أما الثاني فمتوجه إلى إقناع الحس، ولقد حصل الإقناع كلية عن طريق كل من العقل والحس.

وفي هذه المحاجة إقناع للمخاطبين بوحداية الخالق سبحانه وتعالى، وأنه «يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»، ولقد كان لهذه المحاجة حصيلة كبيرة في أسلوب الدعوة إلى الله عز وجل، فأسلوب الحوار والحجاج من الأساليب البلاغية الإقناعية التي تعمل على إقناع المخاطبين.

النموذج الرابع:

قال الله تعالى: [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ

تَمْتَرُونَ. وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ»⁽¹⁾.

«افتتح الله كتابه بالحمد، ثم افتتح به أربع^(*) سور مكيات مشتملة كل منها على دعوة الإسلام ومحاجة المشركين فيها»⁽²⁾، وسورة الأنعام أصل في محاجة المشركين ولقد سبق الحديث على ذلك.

«وجملة "الحمد لله" تفيد استحقاق الله تعالى الحمد وحده دون غيره لأنها تدل على الحصر، واللام لتعريف الجنس، فدللت على انحصار استحقاق هذا الجنس لله تعالى»⁽³⁾، فإله سبحانه وتعالى يستحق الحمد وحده لا شريك له، وجملة "الحمد لله"، خبرية جمعت بين الخير والإنشاء، فالله سبحانه وتعالى أسند الحمد إليه وهذا خبر منه على المختار، والعبد يحكيه بالتلاوة، ومؤمنا به فيكون حامدا لمولاه⁽⁴⁾. وعلى هذا يتبين أن هذه الجملة الخبرية بيّنت أن الله سبحانه وتعالى مستحق للحمد دون غيره، وفي الوقت نفسه يحمده بها العبد ربه سبحانه وتعالى، وهذا من بلاغة أسلوب القرآن الكريم، الذي أبهر وأعجز الثقلين.

فإله سبحانه وتعالى مدح نفسه الكريمة وحمد لها على خلق السموات والأرض قرارا لعباده وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليالهم ونهارهم⁽⁵⁾. إن القصر^(*) الإضافي الوارد في قوله "الحمد لله"، ردّ على المشركين الذي حمدوا الأصنام على ما تخيلوه من إسدائها إليهم نعمًا ونصرًا وتفريج كرباتهم، فقد قال أبو سفيان حين انتصر هو فريقه يوم

(1)-سورة الأنعام، الآية: 1-3.

(*)-افتتح الله سبحانه وتعالى خمس سور مكية بالحمد، وهي سورة: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ وفاطر. ينظر: السيد رشيد رضا، تفسير المنار، ج 7، ص 291.

(2)-المصدر نفسه، ص 291.

(3)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م 4، ج 7، ص 125.

(4)-ينظر: السيد رشيد رضا، تفسير المنار، ج 7، ص 292.

(5)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 1043.

(*)-وذهب ابن عاشور إلى القول، بأنه يجوز أن يكون القصر قصرا حقيقيا: ينظر: المصدر نفسه، م 4، ج 7، ص 125.

أحد: أعل هبل لنا العزى ولا عزى لكم⁽¹⁾، ففي هذا القصر حجة على المشركين الغاية منها إقناعهم بأن أصنامهم لا تستحق الحمد وذلك عن طريق قصر الحمد على الله سبحانه وتعالى، ولقد استدل الله سبحانه وتعالى على وجوده بخلق السموات والأرض وفي هذه الحجة إقناع للمشركين بوحدانيته سبحانه وتعالى، وإبطال ما يدعون ألوهيته من الأصنام، ولقد بلغت هذه الحجة غاية في الإقناع وذلك لأنها بينت أن الله عز وجل هو خالق السموات والأرض وما دام الأمر هكذا وجب أن يكون الخالق واحداً، وما دام هو خالق السموات والأرض وجب أن يحمد، وفي هذا الإقناع التام ببطان حمد المشركين الأصنام.

إن في تقديم ذكر السماء على الأرض سرّ. وذلك أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء، فسرّ ذلك أن السماء كالدائرة والأرض كالمركز وحصول الدائرة يوجب تعيين المركز ولا ينعكس، فحصول المركز لا يوجب تعيين الدائرة لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها، فلما كانت السماء متقدمة على الأرض بهذا الاعتبار وجب تقديم ذكر السماء على الأرض بهذا الاعتبار⁽²⁾. إذا كان الأمر كما قال الفخر فإن الملفت للانتباه من تقديم ذكر السماء على الأرض هو النظر إلى السماء ثم الأرض، لأن الناظر إلى دائرة لا بد أن ينظر إليها قبل النظر إلى المركز، فبعد أن ينظر في الدائرة ويستقر استوائها في ذهنه يجره ذلك إلى النظر لمركز الدائرة، وعليه يمكن القول أن تقديم السماء على الأرض، يلفت الانتباه أكثر مما يلفته حين يكون النظر إلى الأرض قبل السماء، وعلى هذا يمكن أن أقول إن في تقديم ذكر السماء على الأرض إقناع للمشركين بعظمة قدرة الله عز وجل، أضف إلى ذلك أنه جمع لفظ السموات^(*) وأفرد الأرض، وفي هذا الإقناع التام بذلك إذ ذكر السموات يوجب التعدد في الذهن، ويتخيل الحس أن تلك السموات على شكل سماء الدنيا التي تشاهد، ومن خلال

(1)-ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص126.

(2)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير م6، ج12، ص148.

(*)-قال سماحة الأستاذ: وجمع "السموات" لأنها عوالم كثيرة، إذ كل كوكب منها عالم مستقل عن غيره،... وأفرد الأرض لأنها عالم واحد. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص126.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

هذا يحصل إقناع المشركين بعظمة قدره الخالق سبحانه وتعالى، ومن اتصف بذلك وجب اتصافه بالوحدانية واستحقاقه للحمد والعبادة، ففي هذه الحجة الإقناع التام للمشركين بذلك، وبعد أن ذكر خلق السموات والأرض قال: [وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ].

قال الزمخشري: «"جعل" يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله «وجعل الظلمات والنور»، وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله: [وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاءً]»⁽¹⁾. والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء... وجعل الظلمات والنور، لأن الظلمات من الإجمام المتكاثفة والنور من النار»⁽²⁾، وزاد الرازي معنى لذلك فقال: «وإنما حسن لفظ الجعل ههنا لأنَّ النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما إنما تولد من الآخر»⁽³⁾.

إن جعل الظلمات والنور حجة لإقناع المشركين بوجود الله ووحدانيته، فالاستدلال بخلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور فيه الإقناع التام للمشركين بالوجود والوحدانية، قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر الدلالة على وجود الصانع»⁽⁴⁾، فالحجاج الوارد في الآية الغاية منه هو الإقناع بوجود الصانع ووحدانيته، وفي ذكر الظلمات والنور الإقناع التام بذلك لأن الظلمات والنور لا تحدث هكذا تلقائياً، فإن ثمة حدوث أشياء.

فهي من تجعل تعاقب الظلمات والنور، ففي الآية الكريمة استدلال على وجود الخالق ووحدانيته، وذلك عن طريق ذكر خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وفي هذا الاستدلال الأثر الهام على إقناع المخاطبين بالوجود والوحدانية، أضف إلى ذلك أن للحجاج الوارد في الآية الكريمة دوراً هاماً في إقناع المشركين ببطان دعوى أن الأصنام آلهة، فالأصنام لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، إلى جانب ذلك يكمن إقناعهم بأن خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور هو الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد

(1) -سورة الزخرف، الآية: 19.

(2) -الزمخشري، الكشاف، ج2، ص3.

(3) -الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص150.

(4) -المصدر نفسه، ص149.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الفرد الصمد، فعن طريق بلاغة الحجاج يحصل الإقناع التام بحمد الله عز وجل وعبادته، وقوله تعالى [ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ]، أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبه وولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا⁽¹⁾، وهذا ما يدل على مكابرة هؤلاء المشركين وإصرارهم على الكفر، ولقد جاءهم من البيئات ما هو كاف، وفي الحجاج الوارد في الآية الإقناع التام للمشركين بأنّ غير الله عز وجل لا يستطيع خلقا ولا جعلاً ومن ثم فإن أصنامهم التي يضلون لها عاكفين لا تغني عنهم شيئا ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، فالحجاج الوارد في الآية الكريمة الغرض منه إثبات الوجود والوحدانية.

إن في هذا الحجاج الذي يحمل ذكر هذه المخلوقات الأربعة الإقناع التام ببطلان عقائد كفار العرب، فإنهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهيته عيسى أو عيسى ومريم، والمجوس ألهوا النور والظلمة⁽²⁾. فجاءتهم من الله الحجج الساطعة التي يكمن من خلالها إقناعهم بأن الله هو خالقهم وما يعبدون، وأنه سبحانه وتعالى هو خالق السماوات والأرض وما فيهن وخالق الظلمات والنور، وعليه يجب توحيده وعبادته وحده لا شريك له تعالى الله عن شركهم علوا كبيرا.

النموذج الخامس:

قال الله تعالى: [وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ]⁽³⁾.

إن هذه الآيات الكريمات تحتاج المشركين المنكرين للنبوة نقل النيسابوري قولاً

(1)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1043.

(2)-ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص127.

(3)-سورة الأنعام، الآية: 7-9.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

للكلبي مفاده «أن مشركي مكة قالوا: يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنت رسوله فنزلت هذه الآية»⁽¹⁾.
أي قوله تعالى: [وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ].

فالخطاب الوارد في الآية موجه للرسول ρ لأن كل كلام ينزل من القرآن موجه إليه
لأنه المبلغ⁽²⁾.

إن الله عزّ وجل أخبر عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهنتهم
ومنازعتهم فيه.

فلو أنزل كتابا على الرسول ρ في قرطاس وعينوه ورأوا نزوله وباشروه [لَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ].

فهذه حجة عليهم ولهذه الحجة إقناع لهم بجحودهم وعنادهم على الوحي وبعثة
الرسول ρ ، وفي هذه الحجة إقناع لهم بأنهم معاندين مكابرين إذ لا يؤمنون بالنبوة إطلاقاً،
ولهذه الحجة الإقناع التام على دحض ما يقوله المشركون لأنه لو أنزل على الرسول ρ
كتابا في قرطاس [لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ]. وقولهم هذا باطل وبهتان
عظيم وفي الحجة التي جاءت بها الآية الإقناع التام بذلك.

فهؤلاء المشركين لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الرسول ρ في صفيحة واحدة
فرأوه ولمسوه وشاهدوه عيانا لطعنوا فيه وقالوا: إنه سحر.

فالحجة التي جاءت في قوله تعالى: [وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ
لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ]. لها الأثر الهام على إقناع المخاطبين بعناد وكفر
المشركين، وأنهم في الظلمات يسبحون ثم إن قوله تعالى: [الَّذِينَ كَفَرُوا]. دون قوله:
"لقالوا"، إظهار في مقام الإضمار لقصد تسجيل أن دافعهم إلى هذا التعنت هو الكفر⁽³⁾.

(1)-ينظر: النيسابوري، أسباب النزول، ص132.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص141.

(3)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص142.

وفي هذا الإقناع التام لهم بأنهم متمسكون بالكفر، وقوله تعالى: [لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ]. فإنه حجة دامغة يكمن من خلالها إقناعهم بأنهم مغالطون قومهم لستر مكابرتهم ودفع ما ظهر من الغلبة عليهم، وهذا شأن المغلوب المحجوج الذي يتعلق بالمعاذير الكاذبة وقوله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ]. فهو معطوف⁽¹⁾ على قوله: [وَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا]. ولهذا العطف الإقناع التام لهم بعنادهم وعلل سماحة الأستاذ ذلك العطف الوارد فقال: «لأنّ هذا خبر عن توركهم وعنادهم وما قبله بيان لعدم جدوى محاولة ما يقلع عنادهم»⁽²⁾، فعلى حد قول سماحة الأستاذ فإن الآية المعطوف عليها بيان لعدم انتفاعهم بالدلائل وأنهم في عنادهم راسخون، أما الآية المعطوف فهي إخبار عن توركهم وعنادهم.

فقوله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ]. «أي لو لا أنزل عليه ملك نشاهده ويخبرنا بصدقه لأنّ ذلك هو الذي يتطلبه المعاند»⁽³⁾، فهؤلاء المشركين يطلبون نزول النذير ليكون مع الرسول ρ وقولهم عبارة عن مكابرة وعناد، فهم يتهربون من الواقع، وحببتهم هذه باطلة، إذ جعلوا إيمانهم بالرسول ρ مرتبط بنزول الملك، ولقد حاجهم الله سبحانه وتعالى وأبطل قولهم فقال: [وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ]. فهذه الحجة الأولى ومعنى الآية أنه لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاؤهم من الله العذاب⁽⁴⁾.

إن في هذه الحجة الإقناع التام لهم بأن نزول الملك آية باهرة فإنّ لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، أضف إلى ذلك أن للحجة الأثر الهام على إقناعهم بأن الله رحيم بعباده، لأنّه لو أنزل ملكا على صورته لزهقت أرواحهم، من هول ما يشهدون، فجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام عاينوا الملائكة في صورة البشر، والرسول ρ لما رأى جبريل

(1)-ينظر: المصدر نفسه، ص142.

(2)-ينظر: المصدر نفسه، ص142.

(3)-المصدر نفسه، ص143.

تنبيه: إن نزول الملك الذي لا يروونه فهو أمر واقع: ينظر: المصدر نفسه، ص143.

(4)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1045.

على صورته الأصلية غشى عليه⁽¹⁾.

إن في هذه الحجة بطلان ما يطلبون وفيها الإقناع التام لهم بأن إنزال الملك معناه القضاء عليهم، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن الملك إذا أنزل يجب أن يكون في صورة البشر فقال: [وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ]. «أي لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لا لتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري»⁽²⁾.

إن لهذه الحجة الثانية والتي أبطل بها الله قولهم الأثر الهام على إقناعهم، بأن الرسالة يجب أن تنزل على البشري، وأن الملك لو أنزل لكان في صورة البشر.

كما أن في هذه الحجة الإقناع التام لهم بأن الملك لو أنزل لجعله الله رجلا، وحينها يعود سؤالهم إلى أوله لا نرضى برسالة هذا الشخص.

إن الحجاج الوارد في هذه الآيات الكريمة له الأثر الهام على إقناع المخاطبين بتعنت المشركين ومكابرتهم وعنادهم، فهم قوم كافرون، يطلبون أشياء ويتظاهرون أنهم يؤمنون عند تحقيقها، ولقد حصل إقناعهم عن طريق الحجج بأنهم يكابرون ويعاندون، فلو تحقق ما طلبوا لبقوا في طغيانهم يعمهون، ولقد أبطل الله سبحانه وتعالى دعاويهم وأقنعهم، بأنهم لا يريدون أن يتخذوا مع الرسول ρ سبيلا، بل هم أصحاب الجحيم، وفي الحجاج الوارد في الآيات الإقناع التام للمشركين بأنهم يتهربون من الحق، ولقد كان لتقديم الحجة الأولى على الثانية أثر عظيم على إقناعهم باستحالة أن ينزل ملك ويشاهدونه على صورته، ففي الحجة الأولى بين المولى أنه لو أنزل الملك لقضي عليهم وفي هذا بطلان ما يطلبون.

وفي الحجة الثانية بين لهم أنه لو جعل ملكا لجعل رجلا ففي الحالتين لن يروا الملك وفي هذا إقناع لهم عظيم بأن الرسالة يأتي بها البشري وعليه فإن رسول الله ρ مرسل من عند الله وأن ما جاء به هو الحق.

(1)- ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص162.

(2)- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ص1045.

النموذج السادس:

قال تعالى: [قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ] (1).

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه كتب على نفسه المقدسة الرحمة، وأقسم سبحانه وتعالى بنفسه الكريمة ليجمع عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين، وأما الجاحدون

(1) -سورة الأنعام، الآية: 12.

المكذّبون فهم في ربهم يتردّدون، والذين خسروا أنفسهم يوم القيامة لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شرّ ذلك اليوم⁽¹⁾.

إن هذه الآية الكريمة تحاجج المشركين الذين يثبتون الإلهية لغير الله، ولقد جاءت الحجج في تلك الآية الكريمة على سبيل المحاورّة غير الحقيقية، ولقد سبق الكلام مساق إبلاغ الحجة مقدرة فيه محاورّة وليس هو محاورّة حقيقية، وهذا من أسلوب الكلام الصادر من متكلم واحد⁽²⁾. ففي قوله تعالى: [قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]. استدلال متضمن استفهاما تقريريًا، المراد به الإلجاء إلى الإقرار.

إن للاستفهام التقريري دورا فعالا في إقناع المشركين ببطلان معتقدهم المتمثل في الشرك وذلك عن طريق تنكيتهم وإلجائهم إلى الإقرار، فالاستفهام الغرض منه التقرير، والتقرير يفضي إلى إبطال ما يعتقدونه من الشرك، ولقد ابتدئت الآية الكريمة بإبطال أعظم ضلالهم وهو ضلال الشرك، ثم إن قوله تعالى "الله" فهو تنكيت لهم، فكل ما في السموات والأرض وما فيهن فهو لله قال سماحة الأستاذ: «واللام في قوله "الله" للملك دلت على عبودية الناس لله دون غيره وتستلزم أن العبد صائر إلى مالكة لا محالة»⁽³⁾.

إن الملك من معاني اللام الجارة، واللام المفردة ثلاثة أقسام: عاملة للجر وعاملة للجزم، وغير عاملة، وللام الجارة اثنان وعشرين معنى، ومن معانيها الملك نحو قوله تعالى: [لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ]⁽⁴⁾.⁽⁵⁾

فاللام الدالة على عبودية الناس لله دون غيره فيها الإقناع التام للمشركين بوحدانية الله وأنهم صائرون إليه لا محالة، كما أن في قوله تعالى: [قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

(1) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1045-1046.

(2) -ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج7، ص150.

(3) -ينظر: المصدر نفسه، ص151.

(4) -سورة البقرة، الآية 255.

(5) -ينظر: حاشية الشيخ مصطفى محمد عرفة الدسوقي على مغنى اللبيب عن كتب الأعراب للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري، تح: عبد السلام محمد أمين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000، ج2، ص6.

وَأَلْأَرْضِ قُلُّ لِلَّهِ]. فيه الحجة الدامغة والتي تحمل الإقناع التام للمشركين بأن غير الله ليس أهلا للإلهية كما تحمل لهم الإقناع التام بأن غير الله لا يملك ما في السماوات وما في الأرض، كما في الحجة الإقناع التام للمشركين بأن مالك السماوات والأرض وما فيهن واحد أحد فرد صمد وما دام كذلك وجبت عبادته وحده لا شريك له.

إن ثبوت كونه تعالى مالكا لما في السماوات والأرض وما فيهن يدل على كونه قادرا على الإعادة والحشر والنشر، وعليه فإن الحجاج الذي جاءت به الآيات له الأثر الهام على إقناع المشركين بأن الله خالق كل شيء وأنه يبعث الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، وأن ما جاء به الرسول ρ حق.

فالآية الكريمة ذات أبعاد والحجاج الوارد فيها يتوجه إلى إقناع العقل بإثبات الصانع ووحدانيته وتقرير المعاد وتقرير النبوة، قال الفخر «اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات الصانع، وتقرير المعاد وتقرير النبوة»⁽¹⁾. فإن قيل إن إثبات الوحدانية والمعاد ثابت في الآية، حقا فأين إثبات النبوة؟ قلت إذا ثبت أن الله عز وجل مالك الكون ثبت أنه خالقه وإذا ثبت أنه خالقه ثبت أنه واحد، وإذا ثبت أنه واحد ثبت أن ما أنزل على سيدنا محمد ρ من عند الله وفي هذا إثبات للنبوة، فعن طريق ذلك حصل إقناع المشركين بأن الله واحد وأنه يبعثهم ليوم القيامة لا ريب فيه، وأن ما جاء به الرسول ρ حق.

وقوله تعالى: [كَتَبَ عَلَي نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ]. جواب لسؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم، وفي هذا الجواب حجة عليهم ولهذه الحجة الأثر الهام على إقناعهم بأن العذاب يكون يوم القيامة، فهم يستعجلون إذ يقولون لو كان صدقا لعجل لنا العذاب، والمؤمن يستبطيء تأخير عقابهم فكان قوله: [كَتَبَ عَلَي نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ]. جوابا لكلا الفريقين وأنه تفضل بالرحمة ضمنها رحمة كاملة وهذه رحمة بعباده الصالحين، ومنها رحمة مؤقتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين⁽²⁾.

(1)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص164.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص151.

فلذكر الرحمة في الآية الإقناع التام للمؤمنين بالبشارة، وللمشركين بالتهديد.

النموذج السابع:

قال الله تعالى: [وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁽¹⁾].

إن هذه الآية الكريمة تحتاج منكري النبوة، فقال أولئك الظالمون لأنفسهم الذين يحجدون بآيات ربهم، ويعاندون رسوله إليهم هلا أنزل عليه -أي الرسول- آية من ربه من الآيات المخالفة لسنته تعالى في خلقه، مما اقترحنا عليه وجعلناه شرطاً لإيماننا به فقال الله تعالى لرسوله ρ قل إن الله قادر على تنزيل آية مما اقترحوا وإنما ينزلها إذا

(1)-سورة الأنعام، الآية: 37.

اقتضت حكمته تنزيلها، لا إذا تعلق شهورهم بتعجيز الرسول ρ بطلبها⁽¹⁾.

إن هؤلاء المشركين يطلبون أمراً خارقاً كي يؤمنوا، وطلبهم هذا عبارة عن معاندة ومكابرة، فهم يعلمون أن القرآن معجزة قاهرة وبينة باهرة بدليل أنه ρ تحداهم به فعجزوا عن معارضته، وذلك يدل على كونه معجزاً.

"لولا" حرف تحضيض^(*) بمعنى "هلا" قال سماحة الأستاذ «والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه»⁽²⁾.

إن للتحضيض الوارد في الآية الكريمة الإقناع التام للمشركين بالتعجيز.

ثم إن طلبهم الذي طلبوه أبطله الله عز وجل بقوله: [قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]. مستعمل في معناه الكنائي، وهو انتفاء أن يريد الله تعالى إجابة مقترحهم، لأنه لما أرسل رسوله بآيات بينات حصل المقصود من إقامة الحجة على الذين كفروا، فلو شاء لزادهم من الآيات لأنه قادر⁽³⁾. فلقد جاءتهم آيات بينات وقامت الحجة عليهم.

إن في الحجاج الوارد في الآية الإقناع التام للمشركين بأن الله عز وجل قادر على تنزيل الآيات. وأنه سبحانه وتعالى لا ينزل الآيات إذا تعلق شهورهم بتعجيز الرسول ρ ، وللحجاج الإقناع التام لهؤلاء المنكرين بأنه تعالى ينزل آياته إذا اقتضت حكمته ذلك لا إذا أرادوا هم، وفي هذا إقناع لهم بصدق نبوة محمد ρ ، ولقد جاءتهم الآيات البينات.

وقوله تعالى: [قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً]. فهو حجة عظيمة عليهم فالله

(1) - ينظر: السيد رشيد رضا، تفسير المنار، ج7، ص386-387.

(*) - قال ابن هشام: وأما التحضيض فكقولك: هل اتقيت الله تعالى فيغفر لك، وهل أسلمت فتدخل الجنة. وهو والعرض متقاربان يجمعهما التنبية على الفعل، إلا أن في التحضير زيادة تأكيد وحث. جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب، ومعه منتهى الطلب بتحقيق شرح شذور الذهب ورحلة السرور إلى إعراب شواهد الشذور، تأليف: بركات يوسف هبود، مراجعة وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1998، ص407.

(2) - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ج7، ص209.

(3) - ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ج7، ص210.

سبحانه وتعالى قادر على تنزيل الآيات وفي هذا الإقناع التام لهم ببطلان ما يطلبون ويصدق نبوة الرسول p.

وقوله تعالى: [وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]. أي لا يعلمون ما وجه الارتباط بين دلالة الآية ومدلولها. ومن المفسرين من جعل معنى قوله تعالى [وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]. أنهم لا يعلمون أن إنزال الآية على وفق مقترحهم يعقبها الاستئصال إن لم يؤمنوا، وهم لعنادهم لا يؤمنون⁽¹⁾.

أيما كان المعنى فإن في قوله تعالى: [وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]. الحجة الدامغة والتي من خلالها يكمن إقناعهم بأنهم جاهلون ومعاقدون وأنهم يطلبون الآيات عنادا واستكبارا وهروبا من الحق. ولقد اتضحت حقيقتهم وأبطل الله ما يدعونه وذلك من خلال بلاغة الحجاج الوارد في الآية الكريمة، ولقد أبطل الله حجتهم التي هم بها متمسكون وهي طلب الآية، بالتبيان لهم بأنه قادر على تنزيل الآيات، فحجتهم أبطلها الله بقوله: [قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ]. فبعد هذا ليس لهم ما يقولون، ثم إن المعجزة الباهرة آية عظيمة، فهل استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن؟، أو ليس هذا آية بيّنة على صدق الرسالة؟ أليس خلقهم أية من آيات الله؟ أليس في خلق السموات والأرض آيات للموقنين؟ ولكن المشركين عن هذا عمون، بل إن كفرهم كان عنادا واستكبارا وأنهم لا يرجون لله لقاء. ولقد أثبتت المحاجة الواردة في الآية صدق نبوة محمد p.

(1) -ينظر: المصدر نفسه، م4، ج7، ص211.

النموذج الثامن:

قال الله تعالى: [قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ] (1).

إن الآية الكريمة تحتاج المشركين الذين ينكرون النبوة، وهؤلاء المشركين لم يميزوا بين شؤون الألوهية وحقيقة الرسالة، فهم يعلمون أن الرسول p بشرا ولكنهم يطالبونه بما هو فوق مقدرة البشر. وفي الآية الكريمة توضيح للمشركين بأن الرسول إنما بعث للتبشير والإنذار كمال قال تعالى: [وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا

(1) -سورة الأنعام، الآية: 50.

العقل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ⁽¹⁾.
فالمشركون يعلمون ذلك ولكنهم يلجأون إلى المعاذير نتيجة مكابرتهم وعنادهم.

فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله الكريم قل لهؤلاء المشركين لست أملك خزائن الله ولا أتصرف فيها، ولا أقول لكم، إني أعلم الغيب إنما ذلك من علم الله عز وجل لا أطلع منه إلا ما أطلعني عليه، ولا أدعي أنني ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إلي من الله عز وجل شرفني بذلك وأنعم علي به⁽²⁾.

سبق القول أن هذه الآية تحتاج المشركين ولقد افتتح الكلام بنفي القول، وفي هذا النفي الإقناع التام للمشركين بأن هذا القول لم يقترن بدعوى الرسالة، فلا وجه لاقتراح تلك الأمور المنفي قولها على الرسول ρ ، لأن المعجزة من شأنها أن تجيء على وفق دعوى الرسالة.

ولقد أمر الله رسوله الكريم ρ أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة، وأول الأمور نفي أن يكون عنده خزائن الله، ولأنهم كانوا يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة⁽³⁾. ففي هذا النفي الإقناع التام للمشركين بأن رسول الله ρ ليس عنده خزائن الله، وفيه الإقناع التام بأن الله تعالى هو المنعم الذي يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير.

وثاني الأمور المنفية أنه نفي أن يكون يعلم الغيب، ولهذا النفي الأثر الهام على إقناع المشركين بأن علم الغيب من صفات الله وأن الرسول ρ لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه.

وثالث الأمور المنفية أنه نفي أن يكون ملكاً وفي هذا النفي يكمن إقناع المشركين بأن الرسالة يبلغها البشري، وأن الرسول ρ بشراً، وأنه ليس من الملائكة.
إن للحجاج الوارد في الآية الأثر الهام على إقناع المشركين بأن الرسول ρ بعث

(1) -سورة الأنعام، الآية: 48-49.

(2) -ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1056-1057.

(3) -ينظر: الرازي، التفسير الكبير، م6، ج12، ص230.

بشيرا ونذيرا، وأنه بشر وأن خزائن الله مالها الله، وأنه وحده يعلم الغيب، وأن الرسول p ليس ملكا.

ولقد جاءت الآية بتقديم لنفي الخزائن عن نفي العلم، ثم نفي كون الرسول p ملكا. وفي هذا التقديم سرّ ويكمن ذلك السر، في أن المشركين، في المقام الأول طلبوا من الرسول p الأموال والخيرات وفي المقام الثاني طلبوا منه الإخبار عن الغيوب⁽¹⁾. وما دام الأمر هكذا، فإنهم في المقام الثالث طلبوا تنزيل ملك من السماء.

ولقد جاء الحجاج في الآية بالترتيب إذ نفي الطلب الأول ثم الثاني ثم الثالث وفي هذا التقديم والتأخير الإقناع التام لهم، ببطلان ما يطلبون وأنهم قوم يكابرون، كما أن التقديم والتأخير من خصائص الخطاب الحجاجي في القرآن. كما أن للحجاج الوارد في الآية الإقناع الهام والتام للمشركين بأن الرسول p هو الذي يتحدى الأمة لأتته خليفة عن الله في تبليغ مراده من خلقه وليست الأمة هي التي تتحد الرسول، كما أن للحجاج الأثر الهام على إقناع المشركين ببطلان معاذيرهم.

النموذج التاسع:

قال الله تعالى: [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ]⁽²⁾.

إنّ هذه الآية الكريمة تحاجج المشركين، فلقد بيّن الله سبحانه وتعالى أنه خالق السماوات والأرض بالعدل ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، ويوم القيامة يكون أمره كلمح البصر أو هو أقرب⁽³⁾.

ومعنى قوله: [وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ

(1)-ينظر: المصدر نفسه، ص230.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 73..

(3)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1072.

الفصل الثاني: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الْحَيِّرُ]. أي له الملك في هذا اليوم، والصور قرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء، ولقد بين سبحانه وتعالى أنه عالم الغيب والشهادة [وَهُوَ الْحَكِيمُ] في جمع ما يصدر منه [الْحَيِّرُ] بكل شيء⁽¹⁾.

إن في الآية الكريمة ذكر ما يدل على أنه لا معبود إلا الله، وحده لا شريك له فأنه سبحانه وتعالى هو الخالق للأشياء، والقصر الوارد في قوله: [وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ]. فيه الإقناع التام بأنه تعالى مستحق للعبادة وحده لا شريك له.

والاستدلال الوارد كان على سبيل القصر، فإثبات أن السماوات والأرض خلقت بالحق فيه الإقناع التام للمشركين بتوحيد الخالق وعبادته سبحانه وتعالى وقوله: [وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ]، فيه الإقناع التام للمشركين بأن أمر الله عز وجل كلمح البصر أو هو أقرب.

فالحجاج الوارد في الآية الكريمة له الأثر الهام على إقناع المشركين بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، وكمال صفاته، كما للحجاج الدور الفعال على إقناعهم بعبادة الله وحده لا شريك له، «ووصف القول بأنه الحق للرد على المشركين أيضاً، وهذا القول هو عين المقول لفعل "يقول كن" وحذف المقول له "كن" لظهوره من المقام»⁽²⁾.

فقوله تعالى: [قَوْلُهُ الْحَقُّ]، فيه الإقناع التام للمشركين بأنه المعبود لا سواه، وأنه وحده يستحق العبادة، لأنّ الخلائق عبيده، وهذا الحجاج رد على المشركين الذين يعبدون غير الله، وعن طريق الحجاج الوارد في الآية الكريمة أثبت لهم أن أصنامهم لا تخلق شيئاً، وفي هذا يكمن إقناعهم بأن الأصنام لا تستحق العبادة، وأن الله هو الخالق وهو وحده يستحق العبادة، ولقد كان لبلاغة الحجاج في الآية الكريمة الأثر الهام على إقناع المشركين ببطان معتقدتهم.

(1)-ينظر: الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص545.

(2)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص307.

النموذج العاشر:

قال الله تعالى: [وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ]⁽¹⁾.

عطفت هذه الآية الكريمة على الجمل السابقة التي أولها [وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ]⁽²⁾. المشتملة على الحجج والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك فعقبت تلك الحجج بشاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلن التوحيد وأبطل الشرك بالحجج الدامغة والمناظرات الساطعة⁽³⁾.

(1)-سورة الأنعام، الآية: 74.

(2)-سورة الأنعام، الآية: 66-67 [وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ].

(3)-ينظر: المراغي، تفسير المراغي، م3، ج7، ص168.

إن في هذه الآية حجة عظيمة على المشركين بإبطال شركم ولهذه الحجة أثر هام على إقناعهم بذلك، وحصل ذلك عن طريق التبيان لهم أن أباهم إبراهيم لم يكن مشركاً، ولا مقرراً للشرك في قومه وأعظم حجة للرسول μ إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك.

في هذه الآية الكريمة يقول الله لرسوله الكريم وأذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقنناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم قصص جدهم إبراهيم الذي يبجلونه ويدعون اتباع ملته حين جادل قومه وراجعهم في باطل ما كانوا يعلمون⁽¹⁾.

إن إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه وقومه الشرك، وبين لأبيه ولقومه أنهم في ضلال مبين أي في ضلال عن الصراط المستقيم، قال الفخر «اعلم أنه سبحانه كثيراً يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام، وذلك لأنه يعترف بفضل جميع الطوائف والملل فالمشركون كانوا معترفين بفضلهم مقربين بأنهم من أولاده واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره، فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين»⁽²⁾.

إن في هذا الحجاج الوارد في الآية عبرة للمشركين، وذلك بنفي الإلهية عن الأصنام ولقد كان لهذا الحجاج الدور الفعال في إقناع المشركين بانتفاء الإلهية عن الأصنام، ومما زاد في إقناعهم هو ذلك الاستفهام الذي جاءت به الآية: [أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً]. استفهام إنكار وتوبيخ إذ يوحي بانتفاء الإلهية عن الأصنام وفي الوقت نفسه يوحي بشناعة عبادة الأصنام إذ لا يعقل أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن معبوده شيئاً ، ولقد كان للاحتجاج بأحوال إبراهيم على مشركي العرب الأثر الهام على إقناع المشركين بتوحيد الخالق وعبادته، وبطلان عبادة الأصنام ثم إن كون عبدة الأصنام في ضلال مبين فهذه حجة على المشركين بأنهم متمكسون بالباطل وفي هذه الحجة يكمن إقناعهم بأن من عبد غير الله فقد ظل عن الصراط المستقيم ومأواه جهنم وبئس المصير .

(1)-ينظر: الرازي، التفسير الكبير، مج7، ج1، ص34.

(2)-الفخر الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص34.

النموذج الحادي عشر:

قال الله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ⁽¹⁾ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ]⁽²⁾.

قال القرطبي في معنى قوله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ].

«أي ملك وزيدت الواو والتاء للمبالغة لغة في الصفة ومثله الرغبوت والرهبوت

(1) -جَنَّ: أجهه الليل وجنَّ عليه الليل إذا أظلم حتى يستتره بظلمته. خليل بن أحمد الفرائدي، كتاب العين، ص156.

(2) -سورة الأنعام، الآيات: 75-79.

والجبروت»⁽¹⁾، فمعنى ملكوت على حد قول القرطبي أنها الملك، ومعنى قوله تعالى: [وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ].

أي تكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفا يطلعه على حقائقها ومعرفة أن لا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا، ولقد أرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض إراء تبصير وفهم ليعلم علما على وفق لذلك التفهيم وهو العلم الكامل وليكون من الموقنين⁽²⁾.

إن في هذه الآية حجة على المشركين يكمن من خلالها إقناعهم بأن الله وحده لا شريك له هو المستحق للعبادة، لأن الخالق والمتصرف مستحق للعبادة دون سواه، كما يكمن إقناعهم أيضا في أن الأصنام لا تخلق شيئا ولا تضر ولا تنفع وعليه يبطل أن تكون معبودة.

كما أن لهذه الحجة الدور الهام في إقناع المشركين بحكمة الله وقدرته وقوله تعالى: [فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ]. فمعناه لما تغشاه الليل وستره، رءا نجما فقال هذا ربي فلما غاب النجم⁽³⁾ [قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ].

قال سماحة الأستاذ: « وقوله [جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ]، أي أظلم الليل إظلاما على إبراهيم، أي كان إبراهيم محوطا بظلمة الليل، وهو يقتضي أنه كان تحت السماء ولم يكن في بيت»⁽⁴⁾. ومعنى تحت السماء أنه كان خارج البيت أي في العراء، وأفهم من كلام سماحة الأستاذ «كان إبراهيم محوطا بظلمة الليل»، أي ظلمة داخنة شديدة الظلام، وعليه يكون الكوكب ساطع الظهور، والفاء في قوله تعالى: [فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ]، تقتضي الترتيب فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربه»⁽⁵⁾، ففي

(1)-القرطبي، تفسير القرطبي، م4، ج7، ص17.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص316.

(3)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص1079.

(4)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص317.

(5)-الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص48.

هذه الآية حجة على قومه في بطلان ما يعبدون وسبيل ذلك أنه لما قال: [هَذَا رَبِّي]. كان هذا القول جارياً على معتقد قومه ليصل بهم في الأخير إلى نقض هذا المعتقد وإبطاله، ولهذا الحجة الأثر الهام على إقناع قومه بأن الكوكب لا يستحق الربوبية ولا يستحق أن يكون معبوداً.

فقوم إبراهيم كانوا على دين الصائبة يعبدون الكواكب⁽¹⁾، ولقد وصل بهم إبراهيم - عليه السلام - إلى أن الكوكب ليس ربا ولا يستحق العبادة، ومما يزيد القوم إقناعاً هو بزوغ ذلك الكوكب ثم غيابه فهذا يقتضي أنه لا يستحق العبادة على الإطلاق، فقول إبراهيم [هَذَا رَبِّي]، فعلى سبيل الاستدراج حتى يصل بهم إلى أن هذا الكوكب ليس ربا، ولقد كان للحجة الواردة في الآية الدور الفعال في إقناع القوم بفساد معتقدهم، ثم الوصول بهم إلى الحق وقوله تعالى: [فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ]. فمعناه لما رآه القمر طالعا [قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ]. في الآية إيجاز والتقدير، فطلع القمر فلما رآه بازغاً فحذفت الحاجة للإيجاز ويقتضي أن القمر طلع بعد أفول الكوكب ولعله اختار لمحاجة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك.

إن إبراهيم - عليه السلام - ينبه قومه للنظر في معرفة الرب الحق، ثم إن الحجة الواردة في هذه الآية لها الدور الهام والفعال في إقناع القوم بأن كل من الكوكب والقمر لا يستحقان الربوبية، ومما زاد المخاطب إقناع هو ذلك التعريض الوارد في كلام إبراهيم بأن له ربا يهديه، وفي هذا تهيئة للنفوس لما عزم عليه بأن له ربا غير الكواكب، ثم عرض بقومه أنهم ضالون ففي قوله [لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ]. الإقناع التام لقومه بأنهم ضالون في عبادتهم غير الله عز وجل، وذلك لأنه أدخل في نفوسهم الشك في معتقدهم أن يكون ضلالاً، فهو يشير إلى أن في الناس قوما ضالين وهم قومه لذا جاء قوله تعالى: [لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ]، يدل: لأكونن ضالاً⁽²⁾، وعن طريق إثبات

(1)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص320.

(2)-ينظر: الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج4، ج7، ص322.

الربوبية للقمر ثم انتقاؤها يحصل إقناع القوم بضلالهم، في عبادة الكواكب ولقد حصل هذا الإقناع عن طريق الحجة الواردة في الآية.

وقوله تعالى: [فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ].

أي لما رأى ذلك المنير الطالع الأكثر إضاءة قال هذا ربي فلما غابت [قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ]، أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي [لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ]؛ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق "حنيفاً" أي في حال كوني حنيفاً، أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: [وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ].⁽¹⁾

إن في هذه الآية حجج على إبطال عبادة الكواكب عامة، ثم إن في نقض ربوبية الكوكب والقمر وحصرها في الشمس إقناع بإبطال عقائد قومه، إذ بين لهم أن كل من الكوكب والقمر لا يستحقان الربوبية، وأن الشمس هي الأكبر الأكثر إضاءة، فهي أولى باستحقاق الإلهية.

قال الفخر: «إن الأخذ من الأدون فالأدون، مترقياً إلى الأعلى فالأعلى، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد لا يحصل من غيره، فكان ذكره على هذا الوجه أولى»⁽²⁾، إن في الانتقال من الأدون إلى الأعلى فيه حجة على القوم يكمن من خلالها إقناعهم بأن هذه الكواكب لا تستحق الربوبية.

ولقد ورد الاستدراج أولاً للكوكب ثم بالقمر ثم الشمس قال سماحة الأستاذ: «وقوله [قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ]، إقناع لهم بأن لا يحاولوا موافقته إياهم على ضلالهم لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها، فقد انتفى عما دونها بالأحرى»⁽³⁾، فلما كانت الشمس هي أعظم الكواكب وانتفت عنها استحقاق الإلهية في

(1)-ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن، ج2، ص1080.

(2)-الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص57.

(3)-الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م4، ج7، ص322.

العقل القادي: وسائل التعبير العقلي ودورها في الإقناع في القرآن الكريم

الضرورة ينتفي عما دونها، وفي هذه الحجة إقناع للمخاطبين بأن الله وحده هو المستحق للإلهية وأن غيره لا يستحق الإلهية.

إن في الحجاج الوارد في هذه الآيات الكريمات الدور الهام على إقناع المشركين ببطلان ما يعتقدون، وأن الله وحده لا شريك له هو المستحق للعبادة.

وأن غير الله لا يستحق الإلهية، قال الفخر: «فلما ثبت بالدليل أن هذه الأشياء ليست أرباباً ولا آلهة، وثبت بالاتفاق نفي غيرها لا جرم حصل الجزم بنفي الشركاء على الإطلاق»⁽¹⁾. والأشياء التي يعنيها الفخر هي الواردة في الآيات أي الكوكب والقمر والشمس، ففي الحجاج الأثر الهام على إقناع المشركين بأن انتفاء الإلهية عن الكوكب والقمر والشمس معناه انتفاءً عن غيرهم وانتفاء الشركاء على الطلاق، وفي هذا الإقناع التام للمشركين بأن الله واحد أحد فرد صمد.

(1)-الرازي، التفسير الكبير، م7، ج13، ص57.

خاتمة

من خلال دراستي لهذا الموضوع أخلص إلى النتائج التالية:

- أن القرآن الكريم خاطب العقول بشتى أنواع أساليب الخطاب الإقناعية.

ونجده في معالجة القضية الواحدة يعدد الأساليب بغية الوصول إلى الإقناع.

- أنه يبتعد عن الفرض والحتم والإلزام، فهو يدع العقل يفكر ويتدبر ويقتنع دون قسر

أو إكراه.

- مدار القرآن على ثلاثة أمور: إثبات الوجدانية وصدق النبوة والمعاد، فنجده وهو

يثبت ذلك ينوع أساليب الخطاب الإقناعي، فلقد اعتمد مرة على التصويرات البيانية

وشخص المعاني وجسدها حتى يُلمس ريح المعنى قويا. فهو من خلال هذه التصورات

يثبت حقائقها ويبرزها للعقل الإنساني الذي يعتبر مناط التكليف.

- اعتمد على الوسائل العقلية المتمثلة في الجدل والحوار والحجاج، أثبت من خلالها

حقائقا، ودعا العقل إلى التفكير فيما حوله.

- لاحظت من خلال دراستي لهذا الموضوع سرا عجبيا في القرآن الكريم، ويكمن هذا

السّر في أن الخطاب القرآني الموجه لبني إسرائيل يعتمد على التصوير البياني في

الغالب، أما الخطاب القرآني الموجه للعرب فيعتمد على إعمال العقل والتفكير والتدبر.

وسرّ ذلك أنّ طائفة بني إسرائيل تتسم بالبلادة وقلة الفهم، لذلك جاءت المعاني في

صور محسة متخيلة حتى كأن المعنى يُرى بالعين المجردة.

أما العرب كما كانوا أذكى الأمم وأفظنها خاطبهم القرآن الكريم من الوجهة العقلية،

حيث دعاهم إلى النظر والتفكير، ولكن هذا لا يعني أن العرب خوطبوا إلا بهذه الأساليب

ولكن في الغالب.

- أن وسائل الإقناع متعددة ومتنوعة في القرآن الكريم، ويعز على الباحثين الإحاطة

بذلك، ولا يحوي جميعها أحد، إذ كل من المعاني النحوية والأساليب البلاغية بمعلمها

وبلاغة الكلمات واختيار مواضعها تعد من وسائل الإقناع وغير ذلك كثير.

- أن القرآن الكريم يجعل للإنسان مكانة عظيمة إذ يخاطبه بلطائف عجيبة وكما يضعه الموضوع الأنسب له، ويسعى به إلى التغيير والسير في طريق الحق، أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم ينزل الناس منازلهم، لأن التعامل مع الإنسان من أخطر أنواع التعامل، لذا نجد النص القرآني ذا مدلولات متنوعة ومتعددة، ويخاطب جميع أنواع المستويات العقلية، كما أنه يصل إلى الغرض عن طريق الحجة والبرهان.

فالقرآن الكريم كان وما يزال معجزة محمد ρ الباقية على صفحات الدهر. ذلك الكتاب الذي في أعلى مراتب البلاغة والبيان، والذي أبرز الحقائق للبشر، وأثبت أن دين الإسلامي هو الدين الواجب إتباعه والتمسك به، كما وضّح للإنسان أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، أضف إلى ذلك أنه أظهر جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، وفي هذا الإقناع التام باتباع الحق المبين، كما بيّن قدرة الله المطلقة، أضف إلى ذلك أنه لا يدع للعقل الشك أو الريب، بل يقنعه تمام الإقناع، ويقدم له الأدلة والبراهين، كما أيقظه من سباته وغفاته ودعاه إلى التوجه في الطريق المستقيم.

وبالله التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع

-القرآن الكريم برواية حفص

1- قائمة المصادر

1. أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط3، 1984.
2. الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، دط، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.
3. الإمام أبي السعود محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط2، دار إحياء التراث العربي، 1990.
4. الإمام أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2002
5. الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تفسير القرطبي، تحقيق: سالم مصطفى البدري، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000.
6. الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1991.
7. الإمام عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد الإسكندراني، م.مسعود، ط2، دار الكتاب العربي، 1998،
8. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2004.
9. أبو جعفر بن إسماعيل النحاس، إعراب القرآن، اعتنى به: الشيخ خالد العلي، ط1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2006.
10. جلال الدين السيوطي، أسباب النزول، تحقيق: محمد محمد تامر، دار التقوى، دط، دت.
11. جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ويليه كتاب إعجاز القرآن للإمام القاضي أبي بكر الباقلاني، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003.
12. جمال الدين أبي الفضل محمد بن عامر، ت: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، لسان العرب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005.

13. جمال الدين عبد الله بن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب ومعه منتهى الطلب بتحقيق: شرح شذور الذهب، ورحلة السرور إلى إعراب شواهد الشذور، تأليف: بركات يوسف هبوء، مراجعة وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1998.
14. ابن الجوزي، زاد الميسر في علم التفسير، ط3، المكتب الإسلامي، بيروت، 1984.
15. حاشية الشيخ مصطفى محمد عرفة الدستوقي على مغنى اللبيب عن كتب الأعراب للإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أهد بن هشام الأنصاري، تح: عبد السلام محمد أمين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000.
16. حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد للعيني، دط، دار الفكر، 2003.
17. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، معيار العلم في فن المنطق، ط4، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1983.
18. أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.
19. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004.
20. الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002.
21. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دط، دار صادر، بيروت، دت.
22. الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار إحياء التراث، العربي، ط2، بيروت، لبنان، 2005.
23. خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1986.

24. ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ضبطه وصححه ووضع فهرسه: مصطفى السيقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دط، دار الفكر، دت.
25. ديوان أبي العتاهية، دط، دار بيروت، للطباعة والنشر، 1986.
26. ديوان أبي فراس، شرح عباس عبد الستار، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
27. ديوان البحتري، دط، دار صادر، بيروت، لبنان.
28. ديوان امرئ القيس، شرح الدكتور عمر فاروق، دط، الطباع شركة دار الأرقم، بيروت، لبنان.
29. ديوان عنتر، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995.
30. الراغب الأصفهاني، المفردات، ضبط محمد خليل عيناني، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1998.
31. ابن رشيق، العمدة، ط5، دار الجيل، بيروت، لبنان.
32. الرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ط4، دار المعارف، دت.
33. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، معاني القرآن، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1980.
34. سنن أبي داوود، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1998.
35. سيد قطب، في ظلال القرآن، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1985.
36. السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط2، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دت.
37. شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء وبهامشه أحكام الرجال من ميزان الاعتدال في نقد الرجال، اعتنى به: محمد بن مميادي بن عبد الحلیم، ط1، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003.
38. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، دط، دم، دت.
39. أبو العباس عبد الله بن المعتز، البديع، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1990.

40. عباس، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، دط، دار الطبع، دت.
41. عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، مختصر صحيح مسلم، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دط، دار الهدى عين مليلة، الجزائر.
42. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: ياسين الأيوبي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2000.
43. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، دط، دت، دار الجيل، بيروت، ج2.
44. علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دط، دم، دت، طبع بالمطبعة الخيرية وبهامشه تفسير النسفي.
45. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط2، دار الكتب العلمية، طهران، دت.
46. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دت.
47. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004.
48. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دط، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
49. القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993.
50. القاضي علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شعيب الأرنؤوط، ط1، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، 2005.
51. محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دت.

52. النيسابوري أبو الحسن علي بن أحمد، شريف محمد عبد الرحمن، دط، دار التقوى، دت.

53. أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين ، تحقيق: علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.

54. أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الجدل، ت: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتابة، 1980.

55. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987.

2-قائمة المراجع:

1. أحمد أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 2002.

2. أحمد بن عبد الرحمن الصويان، الحوار وأصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ط1، دار الوطن للنشر، 1314هـ.

3. أحمد حسن يوسف العمري، صالح العمري، الحوار ودوره في الدعوة والتربية والثقافة، دط، دار الوضاح، عمان، 2006.

4. أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، 1986.

5. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، إشراف وتقديم: نور الدين عتر، ط1، دار المكتبي، سوريا، دمشق، 1994.

6. بدرية بنت محمد بن الحسن العثمان، من بلاغة القرآن في مجادلة منكري البعث، ط1، دار الراية، 1417هـ.

7. التفزازاني، المطول شرح تلخيص المفتاح ومن حاشية العلامة السيد الشريف الجرجاني، تحقيق: أحمد عزز عناية، ط1، دار التراث العربي، بيروت، لبنان، 2004.

8. تقية عبد الفتاح، المسير في علوم القرآن، ط1، قصر الكتاب، دت.

9. حسن إسماعيل عبد الرزاق، النظم البلاغي بين النظرية والتعليق، ط1، دار
الطباعة، المحمدية، مصر.
10. خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، ط1، عالم
الكتب الحديث، الأردن، 2005.
11. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني
للهجرة بنيته وأساليبه، ط1، جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، 2007.
12. سليمان عشراي، الخطاب القرآني، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية
بن عكنون، الجزائر.
13. السيد أحمد هاشمي، تحقيق: سليمان الصالح، جواهر البلاغة، ط1، بيروت،
لبنان، 2005.
14. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط10، دار الشروق، القاهرة، 1993
15. صالح بالعيد، نظرية النظم، دار هممه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط،
2002.
16. عبد الغني محمد سعد بركة أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، ط1، دار
غريب للطباعة، القاهرة، 1983.
17. عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة من أسرار التعبير العربي، دار المريخ، الرياض،
1983.
18. عبد الفتاح لاشين، من أسرار التعبير القرآني، ط1، دار المريخ، الرياض، ط1،
1983.
19. عبد الله بن محمد العوشن، كيف تقنع الآخرين، ط3، دار العاصمة، السعودية.
20. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار
الفرابي، تونس، 2007.
21. عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ط1، دار الكتاب العالمي،
الجزائري، 2006.

22. عمر السالمي، الإعجاز الفني في القرآن، ط1، مؤسسة عبد الكريم عبد الله، تونس، 1980.
23. فؤاد علي رضا، من علوم القرآن، ط1، دار إقرأ، بيروت، لبنان، 1986.
24. فاضل صالح السمرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ط1، دار عمان، عمان، 1998.
25. فضل حسن عباس، سناء فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط6، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن.
26. محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة.
27. محمد العمري في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق المغرب، 2002.
28. محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع حين في الرواية والدراية من علم التفسير ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003.
29. محمد بن محمد أبو شبهة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط1، مكتبة السنة، القاهرة، 1996.
30. محمد تومي، الجدل في القرآن الكريم، ط1، شركة الشهاب الجزائر، دت.
31. محمد حسين فضل الله، الحوار في القرآن، ط3، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1985.
32. محمد عبيد الحمزاوي، فن الحوار والمناظرة في الأدبيين الفارسي والعربي في العصر الحديث، تقديم: محمد زكي العشماوي، ط1، مركز الإسكندرية للكتاب، سوتير، 2001.
33. محمد قطب عبد العال، من جماليات التصوير في القرآن الكريم، ط1، دم، 1990.
34. محمود السيد شيحون، الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978.
35. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2000.

36. مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 2000.

الرسائل الجامعية:

1. حسين شلوف، إشكالية الإقناع في النص الحجاجي عند الجاحظ بين إثبات رسالة دكتوراه، العقل والتجربة الفنية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 2008-2009.

2. خالد حسين حمدان، الإقناع أسسه وأهدافه في ضوء أسلوب القرآن الكريم، دراسة وصفية تحليلية، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ-2005م.

فهرس الموضوعات

أ المقدمة
	المدخل
2 المبحث الأول: إعجاز القرآن
10 1-المفردة القرآنية
17 2-الجملة القرآنية

20	المبحث الثاني: الخطاب
20	أ-تعريفه
20	ب-الخطاب القرآني
22	ج-أنواع الخطاب القرآني من حيث النزول
23	1-الخطاب القرآني المكي
25	2-الخطاب القرآني المدني
26	د-موازنة بين الخطاب المكي والمدني
27	هـ-وجوه المخاطبة والخطاب في القرآن
34	المبحث الثالث: الإقناع
34	أ-تعريفه
35	ب-الأسس التي يقوم عليها الإقناع
35	ج-عناصر العملية الإقناعية
37	د-الإقناع القرآني
37	هـ-الإقناع بالحديث الشريف
39	المبحث الرابع: البلاغة
39	أ-تعريفها
40	ب-بلاغة القرآن المعجزة
42	ج-النظم
43	د-منابع فكرة النظم
	الفصل الأول: وسائل التصوير البياني ودورها في الإقناع
46	تعريف البيان
47	المبحث الأول: التشبيه ودوره في الإقناع
47	أ-تعريفه
49	ب-تقسيم التشبيه باعتبار الطرفين
51	ج-تقسيم التشبيه باعتبار تعددهما

53	د-تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه.....
56	هـ-تقسيم التشبيه باعتبار أدواته.....
57	و-تشبيه على غير طرقة الأصلية.....
58	ز-أدوات التشبيه.....
59	ح-دور التشبيه في الإقناع.....
	دراسة نماذج تطبيقية من التشبيه في سورتي البقرة والأنعام ودورها في
62	الإقناع.....
90	المبحث الثاني: الاستعارة ودورها في الإقناع.....
90	أ-تعريفها.....
91	ب-أركان الاستعارة.....
91	ج-قرينة الاستعارة.....
91	د- أقسام الاستعارة.....
92	هـ-تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين.....
92	و-تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع.....
93	ز-تقسيم الاستعارة باعتبار الجامع أيضا.....
94	ح-تقسيم الاستعارة باعتبار أركانها الثلاثة.....
95	ق-تقسيم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار.....
96	ي-تقسيم الاستعارة باعتبار آخر.....
96	ك-تقسيم الاستعارة باعتبار الطرفين أيضا.....
	-دراسة نماذج تطبيقية من الاستعارة في سورتي البقرة والأنعام ودورها في
99	الإقناع.....
121	المبحث الثالث: المجاز ودوره في الإقناع.....
121	أ-تعريفه.....
122	ب-أقسام المجاز.....
126	ج-المجاز العقلي.....

126	د-علاقات المجاز العقلي.....
	دراسة نماذج تطبيقية من المجاز في سورتى البقرة والأنعام ودورها في
128	الإقناع
138	المبحث الرابع: الكناية ودورها في الإقناع
138	أ-تعريفها
139	ب-تقسيم الكناية من حيث الممكنى.....
140	ج-تقسيم الكناية باعتبار لوازمها.....
141	د-دور الكناية في الإقناع.....
	دراسة نماذج تطبيقية من الكناية في سورتى البقرة والأنعام ودورها في
143	الإقناع
	الفصل الثانى: وسائل التعبير العقلى ودورها فى الإقناع فى القرآن الكريم
150	مقدمة
151	المبحث الأول: الجدل ودوره فى الإقناع.....
151	أ-تعريفه
152	ب-أسلوب القرآن فى الاستدلال والجدل.....
152	ج-الجدل القرآنى وجه من وجوه الإعجاز
152	د-أنواع استدلال الجدل القرآنى.....
155	هـ-أشكال الاستدلال القرآنى.....
158	و-الجدل ودوره فى الإقناع
	دراسة نماذج تطبيقية من الجدل فى سورتى البقرة والأنعام ودورها فى
159	الإقناع
189	المبحث الثانى: الحوار ودوره فى الإقناع
189	أ-تعريفه
190	ب-منهجية الحوار
192	ج-موضوع الحوار.....

192	د-أسلوب الحوار في القرآن الكريم.....
194	ه-أنواع الحوار في القرآن الكريم.....
199	و-الحوار ودوره في الإقناع.....
	دراسة نماذج تطبيقية من الحوار في سورتي البقرة والأنعام ودورها في
200	الإقناع
229	المبحث الثالث: الحجاج ودوره في الإقناع
229	أ-تعريفه
229	ب-خصائص النص الحجاجي.....
230	ج-سمات النص الحجاجي.....
231	د-الباتّ والمتلقي في الخطاب الحجاجي.....
232	ه-الحجاج في القرآن الكريم.....
235	و-الحجاج ودوره في الإقناع.....
	دراسة نماذج تطبيقية من الحجاج في سورتي البقرة والأنعام ودورها في
236	الإقناع
269	الخاتمة
272	قائمة المصادر والمراجع

ملخص البحث:

يستهدف هذا البحث ذكر بعض آليات ووسائل الإقناع في القرآن الكريم. وتمثل بلاغة الخطاب الإقناعي العودة القوية للبلاغة العربية تحت تسمية البلاغة الجديدة.

والإقناع هو هدف المخاطب الأسمى، وتعد البلاغة أساسه المعتمد، إذ لا ينفصل الخطاب الإقناعي عن البلاغة.

ولمّا كان القرآن الكريم كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل جاء في أعلى مراتب البلاغة والبيان. ولقد اعتمد على الوسائل البلاغية بغية حصول الإقناع، والهدف من ذلك هو الإيمان وتقريب مفهومه للناس. وبيان معنى الدين، وأن الإسلام دين رحمة. ولما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً خاطبه القرآن بثتى أنواع الخطاب الإقناعي، وراعى جميع المستويات العقلية. والأسلوب القرآني مرة دعا إلى تحكيم الحس ومرة دعا إلى تحكيم العقل ومرة دعا إلى تحكيمهما معاً، والغرض من ذلك تصحيح المفاهيم الخاطئة والسير بالإنسان نحو ما هو أنفع ودون فرض أو حتم.